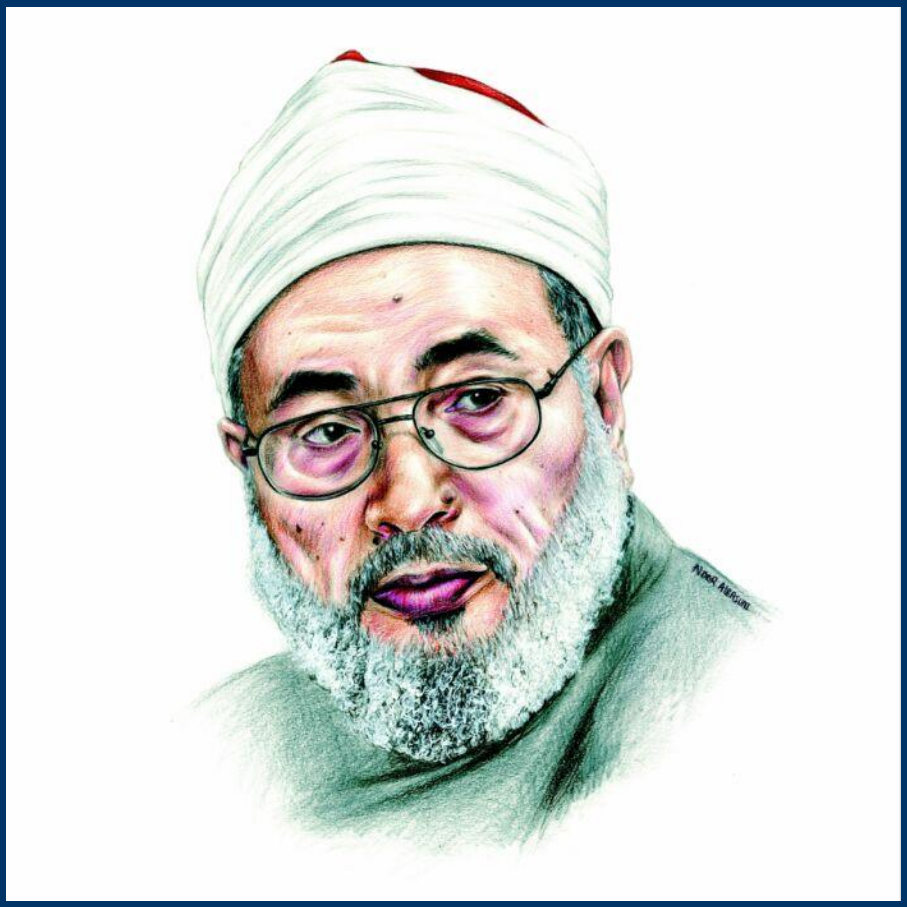

ملتقى الأصحاب والتلاميذ/ يولية 2007

عبد السلام البسيوني

albasuni@hotmail.com

القَرضَاويُّ شاعرًا

قال الله تبارك وتعالى في سورة الشعراء:

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (226) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا، وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (227)

ورد في الصحيحين عن سيد البلغاء صلى الله عليه وسلم:

إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

وقال الشيخ القرضاوي:

وقفتك يا شعري على الحق كله
فإن لم أنل إلاه قلت لهم: حسبي
وإن قال غر: ثروتي، قلت دعوتي
وإن قال لي: حزبي، أقول له: ربي
فعش كوكبًا يا شعر يهدي إلى العلا
وينقضّ رجمًا للشياطين كالشهْبِ

الإهداء:

إلى شيخي الإمام الأكبر العلامة القرضاوي

الحبيب لقلبي وعقلي

الذي نفعني الله تعالى به أيما نفع

وجعله لي منارة ومثابة

وإلى شيوخي الذين علموني

وكل محبي القرضاوي والأدب الجميل

أبو سهيل

الفهرس

المقدمة:

= الطبيعة اللغوية للشاعر القرضاوي:

- العربية موهبة لا صنعة:
- هل القرضاوي مطبوع أو متصنِّع؟
- نقلة لغوية نوعية:
- التهجين النافع:

= وقفة لا غنى عنها: استقلالية الشعر الإسلامي:

- طبيعة الأديب أم الأدب؟
- خصائص وبصائر:

= الالتزام في شعر القرضاوي:

- ما الالتزام؟ ومن الملتزم؟
- القرضاوي: أنا ملتزم

= شعر القرضاوي وقودًا للصحوة

- مسلمون مسلمون مسلمون
- مما أُنشد للقرضاوي

= الطبيعة المسرحية في شعر القرضاوي

- الشيخ المسرحي:
- مسرحية (يوسف الصديق)

= القرضاوي ملقيًا ومتحدثًا:

- الطبيعة الخطابية والإلقائية للشعر:
- ونِصْفٌ أداؤهُ:

- القرضاوي والشباب المتجدد مع الميكروفون:

= القرضاوي ظريفًا

- مبشرون ومكشرون:
- القرضاوي وقصة حبه القديمة:
- القرضاوي زارع واللا مزروع؟
- وكالة أبشروا!
- لجنة الفرفشة:
- الشيخ القرضاوي والبسابس!
- عبقرية الجنود الأميين:

= القرضاوي ساخرًا:

- السخرية موقف فلسفي:
- بين زنزانتين:
- أصوليون، وسلام السراب:
- سخرية سوداء مريرة:

= أغراض شعر القرضاوي:

- أقنعة عدة وغرض واحد:
- خصيصة تتجلى في ذكرى المولد:
- مناجاة في ليلة القدر:
- حلقات الولاء عند القرضاوي:
- يا أمتي وجب الكفاح:
- امتزاج الداعية بالشاعر في الخطاب:
- جيل الصحوة:
- نصرة دعوة الإخوان غرض رئيس عند القرضاوي:

- من أغراضه: التأمل، والتفلسف، وسبر الحقائق: السعادة وطالبوها:
- ومن أغراضه الرثاء:
- ومن أغراضه: الابتهال والمناجاة:

غرض الأغراض: مواجهة الظلم والظالمين: النونية نموذجًا

= أدب السجون والمعتقلات

= النونية في مسيرتها الطويلة:

- ماذا في النونية؟
- نبوءة تحققت:
- ملاك الشعر:
- العصابة:
- قبل أن تقرأ:
- بالتاريخ، والساعة، والحركة:
- في الحربي – هدمه الله وأشباهه –: العساكر والكلاب زملاء وأقران:
- اندهاش ومفاجأة:
- مواصفات الجلاد وقادته، وهيئة حفل الاستقبال:
- جرعة تعذيب أولى في حفل الاستقبال:
- تصنيف نعذر الشاعر عليه:
- حمزة البسيوني:
- اليقين في مصنع الهول:
- الساخر رغم الشدة:
- فنون التعذيب وأدواته في السجن الحربي، وكرامات مطوية:
- من الحربي، للمقطم، للجنة:
- مشهد الشهيد المعذب: صورة تفصيلية:
- تأكيد للمشهد:
- القضاء الهازل:

- حيثيات الاتهام:
- حمزة مرة أخرى:
- أنا ربكم الأعلى!
- زنزانة وزنزانة:
- حصاد الثورة الغراء:
- طعام خمس نجوم:
- عقوبات وحيثيات:
- أدوية ناجعة غير مسبوقة:
- دونكمُ.. يا عصبة الباستيل:
- لحساب من؟
- يا مصر حظك مثل حظي عاثر:
- حصاد الثورة.. وعطاء الأبطال:
- الثورة وأبناؤها العققة:
- إن تك هذه رجعية:
- يا كل فرعون وجلاد:
- حتمية لا نبوءة:
- وقفة تحدٍّ ومواجهة:
- وتجلدي للشامتين أريهمُ:
- يا رب.. يا رب:

= من خصائص شعر القرضاوي:

- زخم البدايات، والشح في الخواتيم:
- الثقة وإثبات الاقتدار:
- أولاً: القوافي الوعرة:
- ثانيًا: النفس الطويل:

- من خصائصه: الكتابة على النمط الخليلي التقليدي:
- من خصائصه: وضوح المرحلية في كتاباته:
- من خصائصه: السهولة والوضوح:
- من خصائصه: الحمية والعاطفية:
- من خصائصه التوسع في التضمين، واستدعاء التراث بأشكاله:
- ومن خصائصه استدعاء بعض المفردات الشعبية:

= من ضوائع القرضاوي:

- وجهة نظر:
- اسألوا السكرتاريا:
- السياقات التاريخية والعمْرية:
- لولا قيادة حكمة تنهاهمو:
- بعبد الله أشرقت الروابي:
- في ذكرى الهجرة:
- الدعوة تتحدث عن نفسها:
- في استقبال مصطفى مؤمن:
- غنَّى فأشجى:
- وداع الشهداء في فلسطين:
- نساء اليوم:
- مناجاة القبر:
- إن أنْسَ!
- قصيدة في دار الإخوان:
- مسرحية يوسف الصديق: أهم الضوائع:
- قصيدتي في القرضاوي:

ختام:

مقدمة:

رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي..

اللهم أجر الحق على لساني، وألق الصدق في قولي، وارزقني الإخلاص في سعيي، واختم لي، ولقارئي، ولشيخي بالصالحات.. اللهم آمين يا رب العالمين..

بعد قراءة، ومتابعة، ومعايشة، جاوزت ثلاثين عامًا، بدأت حيية، ثم تعمقت، وبعد أن أسعدني الله بالانتقال إلى الفلَك الذي يدور فيه – الدوحة – منذ أكثر من ربع قرن، لم أعد أشك قارئي الكريم أن مولانا القرضاوي ظاهرة؛ لكونه مجموعة من المواهب ضمها إهاب، وهو في كل منها – تبارك الله – متميز موهوب فائق، فهو – عندي – الإمام الأكبر، الموسوعي، المجتهد، الأصولي، الفقيه، الداعية، المفكر، الأكاديمي، البحاثة، الإعلامي، اللغوي، الشاعر، الناثر، الظريف، الذي يحيي لنا أنموذجًا سلفيًّا فذًّا؛ رأيته من قبل في الشافعي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر والسيوطي، وأشباههم من الموسوعيين العظماء متعددي المواهب! مع لطف في المعشر، وهدوء في الطبع، وحضور في البديهة، وسيلان في الذاكرة، وغزارة في العطاء، وعفة في اللسان؛ أقول ذلك مقالة العارف المتابع، وأشهد بما أعلم، والله تعالى سائلي، وأزعم أنني – على ما خالطت، وقابلت من الأعلام – ما رأيت في موسوعيته، وجديته، ودأبه، ودقة أدائه، وسلامة لسانه!

ولأن من المستحيل أن أحيط بهذه الجوانب كلها تحليلاً وتشقيقًا، فقد قبلت ما ناط بي فضيلته أن أتناوله – وهو الكتابة عن القرضاوي الشاعر – رغم أن الشعر من

هواياتي، وليس اختصاصي الرئيس، وهو كذلك ليس أحب الجوانب التي يمكن أن أتناولها؛ مما يتفرد به العلامة الدكتور الشيخ، حفظه الله، ومتع به، فقد وددت أن أكتب عنه إنسانًا، أو ربانيًّا، أو سلفيًّا، أو مجددًا، أو نحو ذلك..

لكن لم لا، وأنا شاعر أرى الشعر متعة النفس الإنسانية، وجزءًا من المساحة المخضرّة في عمري الذابل، وأعتقد أن اللغة والأدب وعاءا كلِّ خير وفن وإبداع، كما أن الجوَلان في شعر الشيخ الحبيب سياحة شخصية وأدبية ودينية وتاريخية ودعوية وشعرية لا تمل!

فليأذن لي قارئي الجميل أن أحاول استيعاب شعر أستاذي القرضاوي المطبوع، وما أقدر عليه من ضوائعه، وما أُنشدَ من قصائده، من خلال وجهة نظر محب، لا يمنعه الحب أن يتأمل ويقبل ويدع وينتقد، وأن يعرِّف بالقرضاوي شاعرًا ملتزمًا، وداعية بشعره، ووطنيًّا وظريفًا وساخرًا – على حد التعبير الشائع – ورائدًا وموجهًا.. كما أتناوله – من خلال قصائده – راضيًا وساخطًا، ومضطرمًا وهادئًا، ومحاورًا بشعره ومناجيًا.

ولن أبدأ هنا بالترتيب التقليدي في البحوث الأكاديمية – المظهرية في كثير من الأحيان – فإن الأمر أعجل من هذا. ولن أطيل على حضرتك قارئي المبارك بالتعريف بالقرضاوي، ومعنى الشعر، ومدارسه – خصوصًا الإسلامية – والشعر في عصر القرضاوي، وما كتب عنه كشاعر، ومثل هذه التقدمات الأكاديمية المكررة، والمتكلفة في كثير من الأحيان، كما أنني لن أحفل كثيرًا بالهوامش، والحواشي الشارحة؛ إلا ما اضطررت إليه، لأنني أدور في حدود ديواني الشيخ، وأشعاره المتناثرة، وإذا ما احتجت لشيء من الخارج فإنني أعزوه لمصدره في صلب العمل؛ حتى لا أغمط أحدًا حقه.

لكنني سأتحدث عن علاقة القرضاوي باللغة والشعر، وعن أول أعماله الشعرية والمسرحية (يوسف الصديق) الذي ابتدأه وهو في صفه الرابع من المرحلة الابتدائية! وطبع وهو في الصف الأول الثانوي، وعن أغراض شعره وخصائصه، وعن ضوائعه، وعن ظرفه، وسخريته، وإلقائه، ثم لعلي أتناول القرضاوي بعد ذلك أديبًا – في دراسة أخرى – إن شاء الله، فالشعر والأدب لا ينفصلان، والأديب والشاعر في عقل

القرضاوي كذلك لا ينفصلان.

وليعذرني قارئي المبارك على التقصير – إن وجد خللاً – وليسمح لي أن أدعو لشيخي الإمام الأكبر بطول العمر، وحسن العمل، ودوام النفع، وأن أشكر الإخوة القائمين على هذا الملتقى المبارك الذي جاء متأخرًا عقودًا عدة، وأن أخص الأخوين اللذين عاونا في توفير بعض النصوص: الشيخ أكرم كساب، والشيخ عصام تَلِّيمة – بفتح التاء، وتشديد الياء المكسورة، اسمه كدا أعمل إيه يعني؟! – وأن يبارك تعالى القصد، ويطهر النية، وأن يصلي ويسلم ويبارك على الشفيع البشير النذير، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

تلميذ القرضاوي وخريجه

عبد السلام البسيوني

الدوحة في 1/ 5/ 2007

الطبيعة اللغوية للقرضاوي:

العربية موهبة لا صنعة:

أظن أن لي رأيًا في إجادة اللغات قد يبدو غريبًا أو محل نقاش، هو أن البراعة في اللغة – بجانب كونها دراسة ومعرفة وتطبيقًا – موهبة يمنحها الله بعض عبادة دون سائرهم، تمامًا كالخط الجميل، أو الصوت الحسن، أو الذاكرة النشطة، أو القدرة على التخيل، أو الإبداع المتميز.

فالتألق في العبارة، والتأنق في الصياغة، والشُّحَن التي تَخفى في بواطن الألفاظ، أمور تتفاوت بين المحسنين للّغة، والأقران الذين درسوا قواعدها وأتقنوها، وتعلموا ما في بطون كتبها في المستوى نفسه، وعلى الأستاذ نفسه، فتجد أحدهم (عاديًّا) لا طلاوة لعباراته، ولا حلاوة في تراكيبه، وتجد الآخر يشدك من أذنك وقلبك شدًّا، بل يملك عليك أقطار نفسك، لتبقى أسير فصاحته وروعة عبارته، وربما أطربك وأرقصك، على حد قول بشار – وقد اهتز طربًا – لما سمع قول أبي العتاهية:

أتته الخلافة منقادةً	إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له	ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره	لزلزلت الأرض زلزالها
وإن الخليفة من بغض لا	إليه ليبغضُ من قالها

انظروا هل طار أمير المؤمنين عن كرسيه!؟

وجرب – لتجد برهان ذلك – أن تتلقى عبارة من الرافعي، أو عبد الرحمن الوكيل، أو دراز، أو سيد قطب، أو علي الطنطاوي، أو محمد الغزالي، وأن تتلقى مرادفتها من غيرهم، ممن درسوا قطر الندى، والشذور، وابن عقيل، وأتقنوا علم ما فيها! لتجد الفرق بين البلاغة والثرثرة. وربما تماديت في زعمي هذا وقلت إن الرجل الفصيح السليقي أقدر على تعلم العلوم واللغات الأخرى من غيره، لأنه يكون موهوبًا لغويًّا، ويكون حب اللغة مغروسًا في (جيناته)، وتكون موهبة التعامل بها مولودة معه.

هل القرضاوي مطبوع أو متصنِّع؟

وربما مس شيخنا القرضاوي هذا المعنى حين أشار في مذكراته: سيرة ومسيرة – وسأنقل عنها كثيرًا فيما يلي – إلى أن دراسة كتب النحو التقليدية، غير كافية – برغم توسعها وتعمقها – إذ ينقصها شيء جد مهم، وهو الخروج من النظرية إلى التطبيق، فكثير من الذين يحصلون على 40 من 40 في امتحان النحو، لا يكادون يقيمون جملة سليمة إذا تكلموا!

ويبدو أن القرضاوي كان ممن وهبوا هذه الملكة، وأشربتها قلوبهم مع القرآن في الكُتّاب بصفط تراب، ثم منذ أول دراسته بالأزهر؛ حتى إن أستاذه في السنة الأولى الابتدائية كان يناديه: يا علامة؛ لما رأى هضمه لعلم النحو، وتذوقه له..

يقول في مذكراته:

ولقد سهل الله جل شأنه عليَّ علم النحو والصرف، منذ السنة الأولى الابتدائية، فهضمت النحو ووعيته بيسر وسهولة، لم أحس معه بأي عنت، وكان زملاؤنا يشكون من صعوبة النحو، ثم اشتكوا بعد ذلك من صعوبة الصرف، وأنا أجدهما عندي كشربة الماء العذب البارد على الظمأ.

ومن يوم درست النحو إلى اليوم، وأنا لا أخطئ فيه إذا قرأت، أو إذا تكلمت، من غير تعب ولا تكلف، كأنها فطرة أو طبيعة. ولذا كان مدرسو النحو من أحب المدرسين إلى قلبي!

وأعانه على الإجادة دراسته بالأزهر منذ السنة الأولى الابتدائية؛ إذ اهتمت المناهج بالنحو والصرف اهتمامًا بالغًا (حتى إننا درسنا النحو كله أربع مرات في المرحلة الابتدائية: درسناه في السنة الأولي في شرح الأجرومية، وفي السنة الثانية في شرح الأزهرية، وفي السنة الثالثة في شرح قطر الندى لابن هشام، وفي السنة الرابعة في شرح شذور الذهب له أيضًا).

ولأستاذي الكريم الدكتور عبد العظيم الديب عليه رحمات الله ورضوانه طريقة عاشها بنفسها، حين رأى طلاب المعهد الأحمدي يحملون القرضاوي على أكتافهم

هاتفين مهللين، فلما سألهم عن السبب قالوا: إن يوسف يعرب ابن عقيل مثل الشيخ محيي الدين عبد الحميد تمامًا، فقد امتحنوه في أبيات يعربها فلم يتلعثم في كلمة؛ ما أثار إعجاب زملائه، فحملوه على أكتافهم، مكبرين.

نقلة لغوية نوعية:

وفي السنة الثانية الابتدائية في المعهد فتح الكريم للقرضاوي أفقًا آخر بهيجًا، عمّق حبه للعربية، وأبعده عن أن يكون مجرد متقعر في النحو، (متأزهرٍ) في العبارة؛ دون أن يمتلك ناصية جمال الجملة العربية، أو يتأنق في سَوق القول، وكان هذا الأفق هو دار الكتب بطنطا، التي كاد يصبح من روادها الدائمين، وفيها انفتح على كتابات أديب العربية، المتوفى عام 1932 – في الثالث عشر من أكتوبر يوم وفاة شوقي أمير الشعراء، عليهما رحمات الله – مصطفى لطفي المنفلوطي، الذي كان أدبه أحب إلى قلوب الشباب وعقولهم من غيره، لسلاسته وتدفقه وعذوبته، وللموضوعات التي يطرقها، كما في كتابه الشهير (النظرات)، وكما في القصص التي ترجمها بأسلوبه الخاص، مثل العبرات، وماجدولين، وفي سبيل التاج، والشاعر، والفضيلة، وغيرها.

كما انفتح الشيخ النابه على كتابات أديب طنطا ومصر والعربية مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، وأوراق الورد، والمساكين وغيرها، وقرأ لطه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات وغيرهم من كتّاب مجلتي (الرسالة) و(الثقافة) الشهيرتين في ذلك الوقت.

وفي السنة الثانية الابتدائية هذه بدأ يخطو الخطوات الأولى في نظم الشعر، فكتب أول أبيات نظمها عن (صفارة الإنذار). فقد كان الزمن زمن حرب، وكانت صفارة الإنذار تعمل، ويسمع الناس أصواتها، فيطفئون الأنوار بالليل، ويحاولون الاختباء بالنهار.. وقد كان ما نظمه في هذه السنة قليلاً، ثم طفق يكثر ويتسع في السنة التي بعدها، ولا سيما في السنة الرابعة، كما كتب في المذكرات.

التهجين النافع:

وأزعم أن لغة القرضاوي قد دخلها نوع من (التهجين) المفيد، من خلال مؤثرات عدة هي:

- انفتاحه – كما سبق – على كتابات كبار مفكري العربية مقتبل حياته، دون اقتصاره على لغة المشايخ التقليدية، وعلى كتب النحو التي درسها في سني التحصيل.
- ومقابلته بعد ذلك للشيخين البنا والغزالي رحمهما الله، وكانا ذوَي بصمة لغوية خاصة – عليه وعلى غيره – مفعمة بالحرارة والعاطفة، والمفردات المشحونة التي تأسر القلوب.
- وتركيبته الشخصية، التي لا تنحني للجمود والتقليدية، حتى في العبارات، والصياغات.
- ثم انفتاحه الثقافي على آفاق كثيرة من العلوم، بجانب الموهبة الفطرية التي فطره الله تبارك وتعالى عليها.
- وأخيرًا عطاؤه الثر في التأليف والكتابة والمحاضرة والإلقاء، في أصعدة مختلفة، وبين جماهير شديدة التنوع: أكاديميين وعوام/ رجال ونساء/ عرب وعجم/ إسلاميين وعلمانيين/ صغار وكبار؛ ما عمّق تجربته، وسليقته، واقتداره.

لذا تأتي لغة القرضاوي في باب السهل الممتنع، تظن أنك تقدر عليه، فإذا حاولت وجدتك أبعد الناس منه.

لقد استمعت للشيخ حفظه الله تعالى خطيبًا، ومحاضرًا، وشاعرًا، ومتحدثًا رسميًّا، وفي مجلسه بين محبيه، كما قرأت كثيرًا من كتبه العلمية والفكرية والدعوية وأعماله الشعرية، فما وجدت لغته تختلف كثيرًا. فهو ممن يتكلمون كما يكتبون؛ بتلك اللغة الفصيحة، الواضحة، قريبة المأخذ، التي لا تحوج سامعها لفتح معجم، ولا لكدّ ذهن.

وأذكر أنني حضرت مرة ندوة عن الثقافة في جامعة قطر دامت يومين أو ثلاثة صباحًا ومساء، وشارك فيها أناس ذوو أسماء كبيرة، فما نلت من لغوهم المترفع أو

ترفعهم اللاغي غير الصداع، لكثرة ما زحموا عقلي، وأرهقوا أذني بالألفاظ الغريبة، والتراكيب اللقيطة، تلك التي يملأ بعض (الأكاديميين) بها أشداقهم تمظهرًا وادعاءً، حتى إنني لم أكن أصبر على محاضر من أولئكم أكثر من ربع ساعة، فلما كانت محاضرة القرضاوي خاتمة المؤتمر، وقف يتحدث عن الثقافة، بلغته السهلة الممتنعة، فاستحوذ على الأسماع والقلوب، وكأنه – بعصًا سحرية – كنس التكلف، والتفيهق الذي كان يتناثر من الأشداق المكتنزة، ووضّح ما عجزت الألفاظ اللزجة المستكبرة – دون استحقاق – أن توضحه، ونال من التصفيق والاستحسان خمسة أمثال من صفق لهم الناس من قبل!

ويلاحظ أن الشيخ في لغته، وفي شعره يتنزل أحيانًا ليستخدم مثلاً شعبيًّا، أو مفردة عامية، تكون في الكلام كالملح في الطعام، تضفي عليه طعمًا مستساغًا محببًا، كما أنه لكثرة ما يحب الشعر ويحفظه، وغزارة ما يجمع من جوامع الكلم، لا يترك شيئًا إلا أورد له الشواهد من ذخائر محفوظه الثر، بسهولة بعيدة عن التكلف والتعمل.

وللشيخ ولع في كتاباته وأشعاره بالاقتباس والتضمين والاغتراف من التراث، وإيراد الجمل والمعاني المتقابلة، التي يعنيني منها هنا: الجانب الشعري.. وهو ما سأورده في محله إن شاء الله.

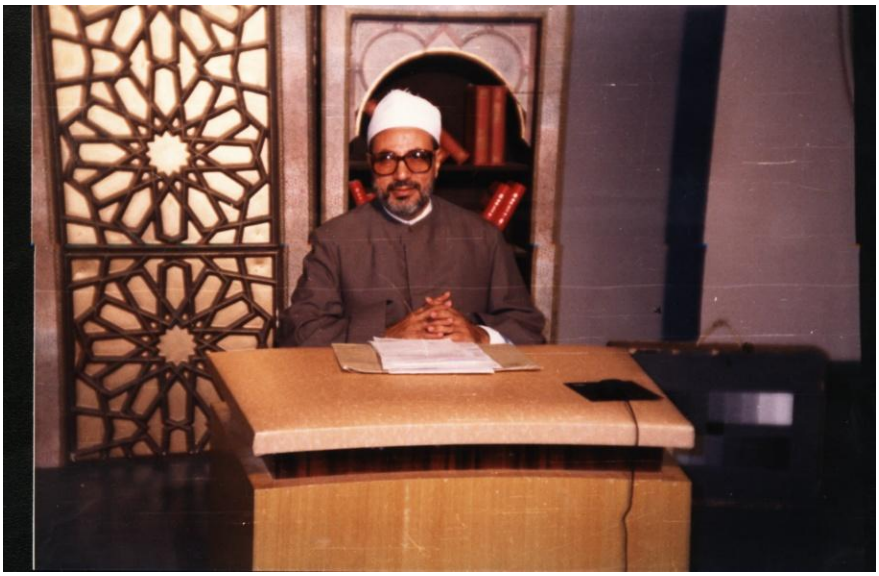

وقفة لا غنى عنها: استقلالية الشعر الإسلامي

طبيعة الأديب أم الأدب؟

ينظر كثير من النقاد للأدب الإسلامي – حين يريدون مناقشة أعمال مبدعيه – نظرتهم للمناهج الأدبية الأخرى – على اختلاف أطروحاتها الفكرية والعقدية والفنية – ويعاملونه بالمعايير الفنية ذاتها؛ دون نظر للمضامين والمقاصد، حتى لو كانت هادمة، أو فوضوية، خارجة مستبيحة، أو متمردة على الثوابت اللغوية والعقلية والإيمانية.

ولا أظن هذا صوابًا على إطلاقه؛ بل لا بد للناقد والقارئ للشعر الإسلامي من مراعاة طبيعة الأدب الإسلامي وخصائصه، حتى يمكن النظر إليه نظرة نقدية صحيحة، وضابطة، ومؤثرة.

تمامًا كما إذا أردنا أن نقرأ نصًّا فرعونيًّا، أو إغريقيًّا، أو عبريًّا، أو إنجيليًّا، أو نبويًّا؛ أو استشراقيًّا، أو حداثيًّا؛ فإن من البديهي أن نقرأه من خلال زمانه، وثقافات قائله، ودلالات ألفاظه في زمانها؛ وإلا فسنكون قد جنينا على الحقيقة، وأردنا أن نفرض على الطاووس مشية الأسد، وعلى الصُّرَد انقضاضة النسر، وما هذا بعلم ولا بمنهج.

ويوضح هذا اختلاف دلالات الألفاظ باختلاف وضعها اللغوي أو العرفي أو الشرعي أو الاصطلاحي أو العامي:

فماذا تعني كلمة الفاعل مثلاً؟

إن لها دلالة عند النحاة تختلف عنها عند الفقهاء، كما تختلف في دلالتها عند الفلاسفة، وعند العامة، وعند المعجميين؛ فلو أن أحدًا قرأها وفق رؤيته هو – دون إخضاعها لسياقها وسائقها – لكان متجنيًّا، أو متغابيًا!

وحين يتطلع بعض القراء أو النقاد لشعر القرضاوي، قد يلمسون فيه بعدًا خطابيًّا، واستطرادات تقريريّة، وتضمينات مباشرة لنصوص ومعانٍ تراثية، فيعدون هذا نقصًا فيه أو نقطة ضعف.

واسمحوا لي أن أزعم أن هذه طبيعة الأدب الإسلامي لا طبيعة القرضاوي – سواء كانت مدحًا له أم قدحًا فيه – فهذا الأدب – في كثير من عطاءاته – غير حفي بالإلغاز والتهويم، ولا يرحب كثيرًا بالألفاظ فاقدة الدلالات، ولا بغياب النسب بين العبارات، ويحتقر الضعف اللغوي العام الذي (يتجمل) به الأدب الحداثي، ويأبى التقنّع بالأساطير الوثنية أو المصطنعة، باعتبارها مهربًا من التزام أو مواجهة، كما يرفض إهمال الجمهور بشكل عام، وعدم المبالاة به، كما هو الاتجاه السائد في بعض المدارس المعاصرة، التي تمارس نوعًا من البلطجة النقدية على الساحة، وتصر على إقصاء الآخرين، والانتقاص منهم.

يقول الدكتور صابر عبد الدايم في حوار له مع رواء:

ففي هذا الجيل – منذ السبعينيات إلى الآن – تكاثرت الرؤى والمناحي الإبداعية، فهناك أصحاب الرؤية الجديدة في كل الفنون الأدبية، ولهم نتاج ضخم كمًّا، محدود كيفًا، لأنهم حصروا أنفسهم في القالب المذهبي، وسجنوا تجاربهم بين جدران المصطلحات والمذهب، وقديماً قال الدكتور محمد مندور: إنك لا تجد أسس المذهب إلا عند صغار الشعراء والأدباء.

ومن هذا الجيل من اتجه بشعره إلى الرمز والتعقيد والأحاجي، فغابت شمس الرؤية، ونضب معين التجربة. وتيار الحداثة في كثير من نماذجه تصادم مع المألوف، ومزق جسد اللغة، ونشر الضبابية في الفضاء الشعري، ولم تنج من هذه الآفة إلا الأصوات القوية الموهوبة، ومن هذه الأصوات من اتجه بملكته وموهبته إلى حقل التجربة الإسلامية، واستدعاء وتوظيف الرموز الإسلامية – مكانًا وأشخاصًا، وتراثًا، ولغةً، وفكرًا، ونبضًا روحيًّا فعّالاً صادقًا – وهذا هو التوجُّه الحضاري الأصدق.

خصائص وبصائر:

وقد أوجز الدكتور الشاعر عدنان النحوي – في دراسة له – خصائص الأدب الإسلامي التي أجتزئ منها: أنه عطاء الأديب المؤمن الملتزم..

وميدانه الكون والحياة كلها والإنسان، والدنيا والآخرة!

وأنه ليس أدب الوهم والخرافة والأساطير، بل أدب الواقع الذي يُفهم من خلال منهاج الله تعالى..

وأنه أدب إنساني ينبع من حقيقة الآدمي وفطرته، ويعالج قضاياه/ وهو عالمي بإنسانيته وامتدادها، وقوة أمته، وعالميّة رسالته..

وهو ملتزم، يحترم الكلمة، ويراها مسؤولية، ويعتقد أن صاحبها محاسب عليها بين يدي الله في الآخرة، كما يحاسب عليها في الدنيا..

والموعظة والوصيّة والنصيحة باب من أبواب هذا الأدب، ما دامت ترتقي بخصائصها الفنية والإيمانية..

وهو أدب متميّز بهذه الخصائص الثابتة، التي لا تنحرف مع تيارات الأدب وعواصفه، بل يحافظ على استقلاله، وعدم تبعيّته.

وهذه العناصر يكاد يتفق عليها المنظرون لإسلامية الأدب، وإن كان استخدام التقنيات الجديدة وتطوير أدوات التعبير، والتجديد في معجم الصور، والمفردات، وفي هندسة القصيدة التي يبدعها الشاعر الإسلامي – في إطار ضوابطه – باتت – فيما أرى – أمورًا ضروريّة؛ حتى يستطيع الأدب الإسلامي منافسة الآداب الأخرى، وأن يقول كلمته، ويثبت حضوره الفني.

وإنّ تأخرَ بعض الأدباء الإسلاميين عن تطوير أنفسهم، وبقائهم في حالة اجترار، ليضر بهذا الأدب، ويخذله حيث يجب نصره.. وأنا شخصيًّا أملّ في كثير من الأحيان سماع بعض القصائد الجديدة، من شعراء إسلاميين معروفين، إذ أخال أنني سمعت

هذه القصيدة كلها أو قرأتها من قبل لكونها لا تحمل جديدًا؛ بل أحس أنني أستمع للصور، والمفردات، والتعابير ذاتها، للمرة المليون!

لذلك فقد طربت حين قرأت بعد القصائد للمغربي أحمد الطريبق، والعراقي حكمت صالح، وديوان الراحل الكريم الشيخ إبراهيم عزت وأشباههم، لما لمست عندهم من إضافات وضيئة على مدرسة الشعر الإسلامي.

وعلى ضوء ما سبق ينبغي أن تُقرأ قصائد القرضاوي: الزمان، والمكان، والغرض، والقائل، والجمهور، وإلا فستكون قراءتنا الناقدة ضربًا من القصور، أو الغرض.

الالتزام في شعر القرضاوي

ما الالتزام ومن الملتزم؟

الالتزام الإسلامي في الأدب كما يعرفه الدكتور ناصر الخنين هو: أن يصدر الأديب المسلم في فنه عن نظرة الإسلام للخالق سبحانه ومخلوقاته.

ومن خلال هذا المفهوم أصبح كل موضوع في متناول الأديب المسلم وتحت تصرفه؛ وليس شيء محظورًا عليه ولا ممنوعًا منه؛ ما دام هذا الالتزام موصوفًا بالإسلام، وصادرًا عنه؛ فقد صار كل ما ينفيه الإسلام منفيًا بالتبعية في أدب الملتزم، ولم يَعُدْ له ورود أو متسع في بيانه الأدبي. كما غدا كل ما يثبته الإسلام ويدعو إليه مثبتًا في ذلك الأدب، ومتناولاً – من قريب أو بعيد – بالطريقة الفنية التي تنسجم مع طبيعة الأدب وفنونه.

ومن هنا ندرك رحابة القضايا والموضوعات التي يتناولها الأديب الملتزم، فليست محدودة بحد، ولا محصية بعد.

ومن اللحظة الأولى، وعلى امتداد الطريق، وحتى اللحظة هذه، أعلن الشاعر القرضاوي التزامه – في أدبه – بهدف ولغة وأسلوب أداء، وأوضح أن هدفه الرئيس، الذي تدور حوله كل الأغراض الفرعية لشعره ونثره، هو نصرة الإسلام، وتجلية صحيفته، وبيان محاسنه، ودفع الشبهات عنه، سواء أكان ذلك بشعره، أم بتآليفه، ومحاضراته، وندواته، وبرامجه، ومواقفه.

هو يعلن ذلك، ومتابعوه يلحظون ذلك، لم ينازع هذا الغرض شيء آخر.. حتى إذا مدح أو تغزّل، أو وصف، أو بكى ورثا، أو غضب وهجا، أو سخر وعابث، أو ضحك وأضحك..

فأدبه إذن أدب ملتزم – بالمعنى الأدبي الشائع – كما أن الحداثيين ملتزمون بمنهج، والتبشيريين (بأي منهج أو دين أو مدرسة شعرية) وفلول الواقعية الاشتراكية، والكلاسيكية، وحتى شعراء البلاطات المعاصرة – على اختلاف أنواعها – يلتزمون بشيء ما، بشكل ما، وإن ادعى بعضهم أنه يبدع الفن للفن، والشعر للشعر، والأدب لمجرد الأدب؛ لا أدري كيف!

بل أزعم أن أدب الهدم والتفكيك والفوضى هو أيضًا أدب ملتزم، يتبنى منهجًا، ويتحراه، ويمكِّن له، ويدفع عنه في غالب أحيانه، وإن ادعوا أنهم يتهربون من الالتزام؛ إذ إنهم يتهربون من المصطلح ويعيشون المعنى!

وحكاية (في غالب أحيانه) لم أجدها عند الشاعر القرضاوي فهو – في أحيانه كلها – شاعر ملتزم، وإن حاول بعض النقاد أن يقدحوا في ذلك، ويعتبروه نقصًا في شعر أي شاعر، أو نقطة ضعف.

القرضاوي: أنا ملتزم:

وقد صرح الشاعر القرضاوي نفسه بموقفه من الالتزام فقال – كما نشرت جريدة الخليج –:

الشعر، والأدب عامة، له هدف ووظيفة، وليس سائبًا، فهو شعر ملتزم، وأدب ملتزم، وفن ملتزم، أما القوالب التي يظهر فيها الشعر أو الأدب فلا مانع من تغييرها، وتطويرها، واقتباس ما يلائمنا مما عند غيرنا، المهم هو الهدف والمضمون والوظيفة.

كما صرح بما يريده من الشعر، وانتقد مواقف المتأكلين به، والسافحين لشرفه، والمتلاعبين بمقاصده النبيلة، معلنًا عليهم (العصيان الشعري) متخذًا سبيله الخاص، الذي يراه محجة شعرية بيضاء بلجة، وذلك في قصيدة أسماها: أنا والشعر، نظمها في عشرينياته، عام 1950 – حين كان في عنفوانه الشعري والحركي – وتبلغ أبياتها تسعة وعشرين، يقول فيها، معترفًا بسطوة الشعر على مشاعره وقلبه:

أريد له هجرًا فيغلبني حبي	وأنوي، ولكن لا يطاوعني قلبي
وكيف أطيق الصبر عنه وإنما	أرى الشعر للوجدان كالماء للعشب
فكم شد من عزم وبصّر من عمًى	وأيقظ من نوم، وذلل من صعب

وينزعج من سلوك المتسلقة والوصوليين ودجاجلة الكتابة:

لقد بغضت لي الشعرَ في مصرَ ثلةٌ	يبيعونه بالمال للبغي والنهب
فكم سافحٍ قد لقبوه بفاتحٍ	وكم مسرفٍ سموه ذا الكرم الرحب
وكم فاجر باغٍ مشوا في ركابه	وسموه ليثًا وهو أدنأ من كلب
وكم ولغت في حرمة الناس كفُّهُ	فغطوا عليها كالخضاب على الشيب
إذا كان هذا ديدنَ الشعر في الورى	فما هو إلا السم في المشرب العذب

ويتحدث عن المتشاعرين ذوي القرائح الجافة، والأداء السقيم فيقول:

وثلة سوء ظنت الشعر معدنًا	يصاغ بجهد كالنحاس وكالصلب
فجاؤوا به وزنًا أجفّ من الصفا	وأثقل من هجر على مهجة الصب
لئن نحتوه كالتماثيل هيئة	فمن لهمُ بالروح، والروح من ربي

وثلة أخرى من المخذلين المثبطين القانطين الموئسين، يقول عنها:

وشرذمة أخرى سبى اليأس قلبهم	ولليأس جندٌ كم يميت وكم يسبي
إذا عرضوا للشعب قال قنوطهم	عليل قد استعصى على نطس الطب
نسوا ما به من مكرمات كوامن	كمون اللظى في الفحم والتبر في الترب

ويرثي للشعب وحالة التردي التي أركسه فيها ظالموه، وأحوال أصحاب الشهوات والأهواء فيقول:

لك الله شعبًا سامه جمع قلة	فيا لك من جمع ويا لك من شعب
يريق دماه المترفون لينعموا	بها خمرة تحلو على اللهو واللعب
يسيغونه لحمًا فإما تمتعوا	رموه عظامًا كاد يقضي لها نحبي
يساق إلى ما يشتهون كأنه	قطيع، وويل للقطيع من الذئب

وعن العابثين الأبيقوريين الذي جردوا الشعر من نبله، وجماله وأثره الإيجابي يقول:

وطائفة أخرى أطاعوا هواهمُ	فجازوا إلى اللذات.. دربًا إلى درب
يقولون: ليس المرء إلا فؤاده	وكيف يعيش المرء جسمًا بلا قلب؟
فغاصوا به في الغيد والحب والهوى	كأن لم يكن في القلب معنى سوى الحب
إذا لم يكن في القلب دين وهمة	وبغض لطغيان فما هو بالقلب

ويدفع الشيخ عن نفسه تهمة كونه حالمًا، يبحث عن يوتوبيا لا وجود لها، وأنه يبذر في أرض سبخة، فيعلن أنه يؤدي دوره، ويعذر إلى ربه تعالى، ثم يوضح بجلاء لا شك فيه أن لشعره رسالة واضحة، لا يعدل عنها إلى غيرها، وأظنه حافظ عليها طوال سبع وخمسين سنة – منذ كتب القصيدة إلى اليوم – فاقرأ وتأمل رسالته هو شخصيًّا:

عجبت لهم قالوا: تماديت في المنى	وفي المثل العليا وفي المرتقى الصعب
فأقصر ولا تجهد يراعك إنما	ستبذر حبًّا في ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم: مهلاً فما اليأس شيمتي	سأبذر حبي، والثمار من الرب
وإن أنا أبلغت الرسالة جاهدًا	ولم أجد السمع المجيب فما ذنبي؟

واقرأ وتأمل رسالته شعره:

وقفتك يا شعري على الحق وحده	فإن لم أنل إلاه قلت لهم: حسبي
وإن قال غر: ثروتي، قلت دعوتي	وإن قال لي: حزبي، أقول له: ربي
فعش كوكبًا يا شعر يهدي إلى العلا	وينقض رجمًا للشياطين كالشهب

هذه رؤية القرضاوي، وهذه رسالته، وهذا دور الشعر في نظره؛ فهو ليس شعرًا لمجرد الشعر، ولا لشد الأنظار وكسب الإعجاب، ولا للتجارة والشطارة، ولا للتملق والتسلق، بل هو شعر للحق، والحق وحده.

شعر القرضاوي وقودًا للصحوة

مسلمون مسلمون مسلمون: وكما زعمت أن شيخنا القرضاوي صدق فيما وعد ووقف من شعره، أزعم أن قصائده وأناشيده ساهمت بمقدار كبير في دفع الصحوة الإسلامية من وقت مبكر، ومن ينسى نشيده: مسلمون، الذي سار شمسًا في أفق الصحوة، والذي أوحاه له – كما ذكر في مذكراته – الغلو في القومية العربية، حتى زعم بعضهم أنها نبوة جديدة، وأن الولاء لها كالولاء لدين الله، وظهر شطط كثير لدى بعض الأقلام والألسنة، هيج النزعات القومية الأخرى في العالم العربي. فكتب الشيخ نشيد : مسلمون؛ ليؤكد فيه ضرورة الانتماء الإسلامي، وأهميته في جمع الأمة:

مسلمون، مسلمون، مسلمونْ حيث كان الحق والعدل نكونْ
نرتضي الموت ونأبى أن نهونْ في سبيل الله ما أحلى المنونْ
مسلمون، مسلمون، مسلمونْ

نحن صممنا وأقسمنا اليمين أن نموت أو نعيش مسلمين
مستقيمين على الحق المبين متحدين ضلال المبطلين
جاهدين أن يسود المسلمون

نحن بالإسلام كنا خير معشر وحكمنا باسمه كسرى وقيصر
وزرعناه بالعدل في الدنيا فأثمر ونشرنا في الورى: الله أكبر
فاسألوا إن كنتمُ لا تعلمون

نحن بالإيمان أحيينا القلوب نحن بالإسلام حررنا الشعوب
نحن بالقرآن قومنا العيوب وانطلقنا في الشمال والجنوب
ننشر النور ونمحو كل هون

نحن بالأخلاق نورنا الحياة نحن بالتوحيد أعلينا الجباه

نحن بالبتار أدبنا الطغاة نحن للحق دعاة ورعاة

ذلكم تاريخنا يا سائلون

سائلوا التاريخ عنا ما وعى من حمى حق فقير ضيعا؟

من بنى للعلم صرحا أرفعا؟ من أقام الدين والدنيا معا؟

سائلوه سيجيب المسلمون

قم نعد عدل الهداة الراشدين قم نصل مجد الأباة الفاتحين

شَقِيَ الناس بدنيا دون دين فلنعدها رحمة للعالمين

لا تقل كيف فإنا مسلمون

يقول الشيخ حفظه الله تعالى: وقد جاء النشيد في موعده، وانتشر انتشارًا هائلاً، وتغنى به الشباب المسلم في كل مكان، ولحنه أكثر من واحد، في أكثر من بلد، حتى إنه كان نشيد المدارس اليمنية بصفة عامة، أيام رئاسة القاضي عبد الرحمن الإرياني. وكان نشيد المدارس الإسلامية في عدد من البلاد، التي يعيش المسلمون فيها أقليات، مثل المدارس الهندية، ولا سيما أن النشيد يقول:

يا أخي في الهند أو في المغرب أنا منك أنت مني أنت بي

لا تسل عن عنصري عن نسبي إنه الإسلام أمي وأبي

إخوة نحن به مؤتلفون

ويروي شاعرنا أن الشيخ الغزالي رحمه الله حدثه عن أول مرة استمع فيها إلى هذا النشيد، وكيف تأثر به، وذرفت دموعه، عندما ألقاه الشباب في أحد المؤتمرات في الجزائر، وكان تلحينه قويًّا، وإنشاده جماعيًّا، وفي الفقرة التي تقول:

يا أخا الإسلام في كل مكان قم نفك القيد قد آن الأوان

واصعد الربوة واهتف بالأذان وارفع المصحف دستور الزمان

واملأ الآفاق: إنا مسلمون

ويروى الغزالي كيف صعد بعض الشباب، وهتف بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، بصوت جميل مؤثر .. ورفع عدد من الشباب المصاحف منادين: القرآن دستور الأمة .. وردد الحضور مع الشباب في النهاية:

مسلمون، مسلمون، مسلمونْ حيث كان الحق والعدل نكونْ

مما أُنشد للقرضاوي:

وليس هذا النشيد هو الوحيد الذي انطلق من وجدان الشيخ، ليزرع الوعي والحمية والهمة، في نفوس أبناء الصحوة، بل قد أنشدت له قصائد أخرى منها: مرحبًا بالحراب، وأنا عائد، وفتى القرآن، والله أكبر، وأنا المسلم، وثورة لاجئ، ومقاطع من النونية، ويا أمتي وجب الكفاح، تلك الملحمة الطويلة الحماسية، التي أبدع هو في تصويرها، وشحنها بالعاطفة والهم والتاريخ والحفز، وأبدع تلحينها وتجسيد معانيها، ثم أصدرها – في شريط مستقل مع قصيدتين أخريين – نجل الشيخ، الشاعر الشاب، والمنشد ذو الصوت البديع الأستاذ عبد الرحمن القرضاوي الذي قدم سلسلة من الأناشيد، بالاشتراك مع الأخوين عقيل الجناحي وعبد الحميد محمود في أوائل التسعينيات، وجمعت في خمسة أشرطة تحت اسم (أناشيد المجلة الإسلامية).

الشاعر عبد الرحمن القرضاوي

ومما يسرني ذكره هنا أن أناشيد هذه الأشرطة الخمسة أذيعت كلها في تلفزيون قطر – في برنامج (المجلة الإسلامية) الذي كنت أعده آنذاك، وبدأتُ به علاقتي مع التلفزيون عام 1989 وحصل على جائزة أحسن برنامج في تلفزيون قطر ذلك العام، وقدمه الصديق المنشد والإعلامي المبدع عقيل الجناحي – وكانت الأناشيد هذه مدعومة بالصور، والمواد الفيلمية المناسبة، التي ساندت الأفغان أيام جهادهم الفعلي

ضد الروس، كما دعمت الانتفاضة الفلسطينية بشكل واسع، إضافة إلى ما نثرته آنذاك من أبعاد إيمانية ودعوية وتربوية.

أعود إلى الشيخ القرضاوي وعلاقته بالشعر الذي يعشقه، ويكتبه (بدمه وأعصابه ومشاعره) ليخرج – حين يواتيه مَلاكُه – صادقًا منيرًا، كما صرح في مطلع نونيته:

ثار القريض بخاطري فدعوني — أفضي لكم بفجائعي وشجوني
فالشعر دمعي حين يعصرني الأسى — والشعر عودي يوم عزف لحوني
كم قال صحبي: أين غرُّ قصائد — تشجي القلوب بلحنها المحزون
وتخلّد الذكرى الأليمة للورى — تتلى على الأجيال بعد قرون
ما حيلتي والشعر فيض خواطرٍ — ما دمت أبغيه ولا يبغيني؟
واليوم عاودني الملاك فهزني — طربًا إلى الإنشاد والتلحين
أُلهمتها عصماء تنبع من دمي — ويمدها قلبي وماء عيوني
نونية.. والنون تحلو في فمي — أبدًا فكدت يقال لي ذو النونِ
صورت فيها ما استطعت بريشتي — وتركت للأيام ما يعييني

وتأمل معي روح التحدي التي يواجه بها القرضاوي من خلال شعره الظلم والطغيان؛ غير هياب ولا مبال، وهي قطعة مما أنشده المنشد السوري أبو الجود موالاً لأبيات من عند نفسه:

إنا لعمري إن صمتنا برهةً	فالنارُ في البركان ذات كُمونِ
تالله ما الطغيان يهزم دعوةً	يومًا وفي التاريخ برُّ يميني
ضع في يديّ القيد ألهب أضلعي	بالسوط ضع عنقي على السكّين
لن تستطيع حصار فكري ساعةً	أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي.. وقلبي في يديْ	ربّي.. وربّي ناصري ومعيني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي	وأموت مبتسماً ليحيا ديني

الطبيعة المسرحية في شعر القرضاوي

الشيخ المسرحي:

بدأ القرضاوي أعماله الشعرية مسرحيًّا، من خلال عمله البكر (يوسف الصديق عليه السلام). ولعلي لا أكون متجاوزًا ولا مغاليًا إذا لاحظت أن الشاعر القرضاوي يميل إلى شخصنة شعره، بتحويل القصيدة بشكل عام إلى نوع من الحوار الشخصي (المونولوج)، وإلى توجيه الخطاب لآخرين حوله، موجودين أو مفترضين (الديالوج) وإلى الرغبة في مَسْرَحَة القصيدة؛ بجعلها مشاهد متعددة، تنقل القارئ من حالة ذهنية وعاطفية، إلى حالة أخرى..

وأزعم أن هذا يكاد يكون مطَّردًا في قصائده كلها.

ففي قصيدته الشهيرة: الأصوليون، لم يدلف إلى مقصوده بشكل تقريري خبري، بل تراه يقوم بدور المخبر، حين يوجه الخطاب لشخص يستدعيه:

أبلغ رجال الأمن حتى يزحفوا فهاهنا جماعة تطرفوا

ويستمر طوال القصيدة في تقديم تقرير أمني لطرف مقابل، ما يكاد يجعل القصيدة مشهدًا إنشائيًّا مسرحيًّا متطاولاً.

وحين يهنئ آل ندا وآل العطار يقول:

قم فحي العطر وافاه الندى قم فحي النيل لاقى بردى

قم فحي الأموي اليوم قد عانق الأزهر ثم اتحدا

وفي النونية يستدعي حالة مسرحية، تضعه وسط مجموعة من الناس/ المحبين/ المشفقين/ الذين يمكن أن يستمعوا له، ويطالبهم أن يأذنوا له بالقول:

ثار القريض بخاطري فدعوني أفضي لكم بفجائعي وشجوني

فالشعر دمعي حين يعصرني الأسى والشعر عودي يوم عزف لحوني

كم قال صحبي أين غر قصائدٍ تشجي القلوب بلحنها المحزون

وفي ثورة لاجئ يقيم حوارًا مع الطفل الفلسطيني المشرد هاني، ويبادله همًّا بهم:

رأيته مُطْرِقًا يبكي.. فأبكاني وهاجَ من قلبيَ المكلومِ أشْجاني

في زهرةِ العُمر... إلا أنَّ دهرك لا يَرعى الشيوخَ ولا يَرثي لصبيانِ

بكى.. فكادت لهُ نفسي تَذوب أسًى كأنَّ رامِيَه بالسّهم أصماني

سألتُ ما اسمُك قال اسمي يدلُّ على معنًى غريبٍ على مثلي، أنا هاني!

ويدور الحوار (رأيته/ سألت/ ما اسمك؟/ قال/ أنا هاني...) ويتواصل المشهد المسرحي الذي يحسن الشيخ عرض تفاصيله وأجزائه.

وفي قصيدته التي مطلعها: بعبد الله أشرقت الروابي، يستحضر الصحابي عبد الله ابن الحارث رضي الله عنه مخاطبًا إياه، معددًا فضائله وسجاياه، وأثره في مصر عامة وصفط خاصة:

بعبد الله أشرقت الروابي	وبوركت السهول مع الهضاب
صحابيّ الرسول، جزيت خيرًا	عن الإسلام، يا نعم الصحابي
شرفت بصحبة المختار دهرا	تلقَّى من مناهله العِذاب
وتسمع منه قول الحق صفوا	وتشهد فعله وبلا حجاب
وجئت لمصر تحمل خير دين	مع ابن العاص في شرخ الشباب
ورحب شعب مصر بكم، وأصغى	لدعوتكم، وفتَّح كل باب
دعوتم مصر بالحسنى فلبّت	نداء الله، لا بشبا الحراب
بسيف الحب والعدل انتصرتم	وليس ببطش ذي ظفر وناب
وأمست مصر للإسلام حصنا	ودرعا للسان وللكتاب
وأنقذتم من الرومان شعبا	غدا لهمو كأبقار الحِلاب
وأسلم أهل صفط على يديكم	ودانَوْكم بصهر واقتراب
وعشت بها، ومت بها، هنيئا	لَها بك من جوار مستطاب

وحق لصفطنا بك أن تسمى	بصفط التبر لا صفط التراب!

وهنا يكلم صحابي صفط الذهب بألفاظ مثل وتعابير: (صحابي الرسول/ شرفت/ وتسمع/ وجئت/ ورحب/ دعوتم.. إلخ) كأنما هو أمامه يحاوره ويناجيه..

وفي أبياته التي يسخر فيها من الإنجليز يناديهم بأداة نداء كأنهم حضور يرونه ويراهم:

يأيها الأضياف! لا أهلاً ولا	سهلاً، ولا ترحيب لا إكرامُ
الضيف إن تمرر عليه صبائح	يثقلْ، وقد مرت لكم أعوام
غصت مساكننا بجندكمو، كما	غصت قطارات وغص ترام
وغذت بطونكمو غلال بلادنا	وبنو البلاد من الطوى قد صاموا
وغدت مصانعنا تحوك للبسكم	والعري فينا قاعد قوّام
إن القِرى إن لم يكن بسماحة	فالسمن سم، والحَمام حِمَام!

بل إنه في قصيدته عن المرشد العام (يا مرشدًا) كلم الشيخ البنا رحمه الله فعلاً، وتحولت القصيدة إلى تفاعل حي بين الملقي والمتلقي، فحين قال:

وثلة الهدم في السفلى مواقفهم	صبوا عليك الأذى بغيًا وعدوانا
ترميك بالإفك أقلام وألسنة	خانت أمانتها يا بئس من خانا
كذاك لا بد للبنّاء من حجر	يصيبه أو يصيب الطين أردانا

قال الشيخ البنا: يا رب سلم.... وحين قال:

آذوك ظلمًا، فلم تجز الأذى بأذىً	لكن جعلت جزاء السوء إحسانا
فكنت كالنخل يُرمى بالحجارة من	قوم، فيرميهمُ بالتمر ألوانا
قد أوسعوك أكاذيبًا ملفقة	وأنت أوسعتهم صفحًا وغفرانا

فرد الشيخ البنا رحمه الله تعالى: نسل يهود أخس وأخبث.

أم زائرة ولا مزور:

وفي قصيدته: أم زائرة ولا مزور: مونولوج مسرحي متواصل، يكشف عن خلجات نفس الأم التي اعتقل وحيدها البار الكريم، وأُذن لها بزيارته، وكيف هيأت نفسها، وأعدت ما استطاعت لتلقاه، ثم هرع قلبها قبل بدنها – لهفة واشتياقًا وقلقًا – إلى السجن لتلقاه.. إلى آخر المقطع المؤثر الذي يشبه ما كتبه الشاعر العظيم هاشم الرفاعي عليه رحمات الله ورضوانه في قصيدته الشهيرة.. فاقرأ مطلع قصيدة القرضاوي، وتابع كيف رسم لك صورة نفسية ومسرحية شديدة القوة والوضوح والتأثير:

قالوا: الزيارة أطلقت لكِ مرة — في العيد بعد المنع والتقييد
عاد الشبابُ لها ونضّر وجهَها — قربُ اللقاء بحِبها المنشود
وغدت كوجه الصبح أشرق نوره — أو كالخميلة جُمّلت بورود
ومضت تعد لِحبّها ما يشتهي — من مطعم أو ملبس و نقود
تشدو: غدًا عيد جديد وجهه — يشفي الجوى، ولِقا حبيبي عيدي
غدًا الذي أخفته أسوار الأذى — عني تراه العين غير بعيد!
كم قبلة سأزفها لجبينه — كم ضمة بذراعي المكدود!

ثم أخذ يقرأ حالتها النفسية، وما يمور بوجدانها من انفعالات وعواطف تمور بنفس كل أم في مثل حالتها، وما تمني نفسها من سعادة بلقيا فلذة الكبد:

باتت تعد دقائقًا وثوانيًا — هيهات ينعم مثلها برقود!
باتت تحث الليل يسرع خطوه — للصبح ذي التكبير والتحميد
وتنفس الصبح المرجّى مؤذنًا — بقدوم يوم ليس بالمعهود
ومضت تناجي نفسها في نشوة: — قد عاد لي عيدي وخضرة عودي
كم فات من عيد وعيد قبله — ما كنت فيه أحس بالتعييد

كم من صباح مرّ لم أدرك له طعمًا، فلم يك فيه أي جديد
واليوم يوم العمر يوم الملتقى اليوم أبعث بعد طول همود!
اليوم صالحني الزمان وجاد لي بالوصل بعد تمنع وصدود!
عامان مرّا، كل يومٍ منهما دهر يطول عليّ جد شديد
أقضي نهاري في التفكر والأسى وأبيت ليلي في جوًى وسهود
ألم يميت القلب لو لم يحييه أمل بيوم للقاء سعيد

وحين تذهب للقائه في السجن، وتجد كل الأمهات مع أبنائهن إلا هي، ولا يخامرها شك أنهم قتلوه اغتالوه تعذيبًا ونكالاً، ترتاع مصدومة، وتصرخ مكلومة، لتعود عواطف وانفعالات من نوع آخر تضطرم بصدرها.

ونجد الشيخ الشاعر ينقلنا إلى تصوير دقيق لعلاقتها بابنها المغدور، ويبين كيف كان معها وكانت معها، وكم بنت عليه من أحلام وآمال، وكيف كان بها برًّا وكانت به كَلفة.

ولا تجد الأم الثكلي ركنًا أشد من الله تعالى تأوي إليه، ليأخذ لها بثأر ابنها، وينتقم من قاتليه، فتهتف، أو يهتف هو على لسانها، في عبارات عاطفية، مناسبة لمقتضى الحال والشخصية، بسيطة غير مزوقة، تلقائية مباشرة، مثلما يخرج في مثل هذه المواقف من ألسنة الأمهات الثكالى في البيئات الشعبية، التي لا تعرف التكلف في العبارة، مثل: دمَّرَ عيشتي/ يا رب خذهم/ أم قد دعتك/ إن كنت عاجزة فإنك قادر/ ما لي غير بابك:

رباه إن الظلم دمر عيشتي وقضى على وتري، وحطم عودي!
رباه إن الظالمين استكبروا في الأرض لم يرعوا لأي عقود!
رباه لا تحلم عليهم، وانتصر خذهم كعادٍ قبلهم وثمود!
رباه: أم قد دعتك بمهجة حرّى وقلب ثاكل منكود!
إن كنت عاجزة، فإنك قادر فاثأر لركني الواهن المهدود!
رباه، ما لي غير بابك منفذ فافتحه لي في دربي المسدود!

وفي قصيدته: الدعوة تتحدث عن نفسها، يخاطب الدعوة وتخاطبه، فالحالة المسرحية كائنة قائمة:

يا دعوة الحق قصّي ما لقيت فقد يؤذى الهدى ويعان الباطل البورُ
قالت: ولدت وحق الشرق مكتئب وباطل الغرب مسرور ومغرور
لا عدل في الأرض بل ظلم وتفرقة والعدل أعظم ما تحوي الدساتير

وفي نونيته التي ألقاها في السيدة زينب – بعد خروجه من معتقل الطور – يتردد الحديث بل الحوار: (قالوا/ قلنا):

يا قوم قد أيَّد التاريخ حجتنا وحصحص الحق للمستبصر الآنا
إنا أقمنا على إخلاص دعوتنا وصدقنا ألف برهان وبرهانا
لقد نَفَوْنا فقلنا: الماء أين جرى يُحيي الموات ويروي كل ظمآنا
قالوا إلى السجن قلنا شعبة فُتحت ليجمعونا بها في الله إخوانا
قالوا إلى الطور قلنا الطور مؤتمر فيه نقرر ما يخشاه أعدانا
فهو المصلى نزكي فيه أنفسنا وهو المصيف نقوي فيه أبدانا

وفي قصيدته الوصفية لما يفعله الجنود الجلادون ينقلنا إلى قلب الحدث، ويجعلنا نتفاعل مع مشهد الضرب والجلد والإهانة فيقول:

ما للجنود ذوي العصيّ ومالي؟ ما كنت بالباغي ولا المحتالِ؟
ما بالهم هجموا علينا بغتة متوثِّبين كهجمةِ الأغوالِ؟
قد كشّروا عن نابِهم، وتقدّموا ببسالة للثأر من أمثالي
حملوا العصيّ غليظة كقلوبهم ومضوا كسيل من كل مكان عال
لم كلُّ هذا الحشد من جندٍ، ومن حرسٍ، كأن اليوم يوم نزال؟
وإذا عجبتُ فإن أعجبَ ما أرى إضرامُ معركة بغير قتال
ضربٌ بلا هدف، ولا معنىً، ولا عقلٍ، سوى تنفيذ أمر الوالي
كم بيننا من ذي سقام يشتكي لكن لمن يشكو أذى الجهال؟

كم بيننا شيخ ينوء بعمره يعدو الجهول عليه غير مبال
كم بيننا من يافع ومُرفَّه ينجُ من ضرب وسوط نكال

ولم ينس أن يقدم لنا تجسيدًا وصفيًّا لما كان يحصل في حفل الاستقبال الأليم هذا من مواقف بطولية، تعكس ثبات أولئك الرجال المستمسكين بدينهم، الواثقين بربهم، المستعلين فوق جراحهم:

لم أنسَ وقفة (صالح) بشجاعة يحمي الضعاف بعزة وجلال
وثباتَ حسَّان ومحيي حوله وأخي الدمرداشيّ والعسال
ومزاح مصباحٍ وحلو نِكاته رغم الضنى في الجسم والأثقال
وبقربنا شيخ يجلجل صوته في الجند يصرخ صرخة الرئبال
عبد المعزِّ يقولُ: دونكمُ اضربوا ضرب الخسيس لشامخ متعال

وفي إحدى ضوائعه يقول:

دع المداد، وسطر بالدم القاني وأسكت الفم، واخطب بالفم الثاني
فم المدافع في صدر العداة له من الفصاحة ما يزري بسحبان
يا أزهر الخير قدها اليوم عاصفة فإنما أنت من نور ونيران
هذا شبابك للميدان منطلق فهل نرى في الشيوخ اليوم كاشاني؟

وهكذا تراه في قصائده عن: السعادة، وفي يا أمتي وجب الكفاح، والأصوليون ولك يا إمامي، وغيرها كثير، كلها تحمل هذه الروح المسرحية، والحوارات مع الذات، أو مع الآخرين الموجودين أو المفترضين؟

مسرحية (يوسف الصديق):

ولا يجوز لنا هنا أن نغفل مسرحية (يوسف الصديق) التي أخذت نهج العمل الشعري المسرحي، بما يعنيه من أدوار، وحوارات، وشخصيات، وجمل مقطّعة، وتجاذب للحديث، وهي العمل الشعري الأبرز في بدايات حياته الشعرية والدعوية.

ويحسن بي هنا أن أنقل ما ذكره الشيخ بنفسه عن المسرحية: كيف بدأها، وماذا كتب بها:

أول عمل لي دخل المكتبة العربية كان عملاً شعريًّا مسرحيًّا، فقد قرأت مسرحيتيْ شوقي مصرع كليوباترا ومجنون ليلى، وتأثرت بهما، وأردت أن أنسج على منوالهما مسرحية عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام، لما فيها من غرائب الأحداث، مما يصلح لمسرحية شعرية.

وقد شرعت في كتابتها وأنا في السنة الرابعة الابتدائية، وأكملتها وأنا في السنة الأولى الثانوية (لم تكن هناك مرحلة إعدادية آنذاك) ودفعت بها إلى المطبعة!

وكانت تسمى (المطبعة اليوسفية) فكان هذا من المفارقات، فالموضوع هو (يوسف الصديق) والمؤلف هو يوسف القرضاوي، والمطبعة هي (اليوسفية) لصاحبها يوسف!

وكانت المشكلة في تكاليف الطبع؛ فالمطبعة تريد مبلغًا مقدمًا، وأنا لا أملك هذا المبلغ، ولا توجد جهة تشجع الشباب الناشئين، كما يوجد في هذه الأيام. ولم أجد من يعينني في ذلك غير قريب لي هو الحاج محمد الرياشي الحاروقي، الذي أسلفني مبلغ خمسة جنيهات، أعطيته للمطبعة، وكتبت عليَّ وَصْلاً بالباقي، وكان العدد كله 500 خمسمائة نسخة، أهديت وبعت منه في محيط الطلبة والإخوان حوالي المائة، وبقي نحو 400 أربعمائة نسخة، فهيأ الله رجلاً اشتراها على ما أذكر بعشرة جنيهات، أعطيت منها الخمسة التي استلفتها من قريبي، وسددت باقي مبلغ المطبعة، وقلت: الحمد لله الذي أخرجني سالمًا، لا لي ولا علي، فإن الدَّيْن هم بالليل، ومذلة بالنهار.

وقد أثنت بعض المجلات الأدبية في حينها على المسرحية، باعتبارها تمثل نموذجًا من شعر الشباب، ونقلت فقرات منها:

وقد كتبت على غلاف المسرحية هذه الأبيات:

يا من رمته الليالي: اصبر لرميتها إن الليالِيَ والأيامَ أدوارُ

فالجو يصحو، وإن عمت غمائمُه والليل يعقبه صبحٌ وإسفار

وانظر ليوسف أضحت مصر في يده وقبل في سجنها انتابته أظفار

وعلى غرار ما جرى عليه كثير من الشعراء في ذلك الزمن، وضعت صورتي في مقدمة المسرحية، وكتبت تحتها:

أمصور الأشكال والأبدان هلا تصور حكمتي وبياني؟

أتصَورنْ وجه الرجال وتتركن تصوير ما بالرأس من عرفانِ

المرء ليس بوجهه أو جسمه لكن بفكرٍ ثاقب ولسان

لو كان قدر المرء جسمًا لا حِجًا لسما عليه الثور بالجسمانِ

ويبدو في هذا الشعر شيء من الإعجاب بالنفس، وهو ليس من خلقي، ولكني قلته محاكاة وتقليدًا لشعراء ذلك الزمان.

كان هذا هو عملي المسرحي الأول. ولقد عملت عملاً مسرحيًّا آخر، في عالم النثر، وهو مسرحية تاريخية تجسد طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي، وجبروته، وموقف العلماء منه، ممثلاً في واحد من أبرزهم، هو العالم الفقيه الشجاع سعيد بن جبير. وقد سميت هذه المسرحية (عالم وطاغية).

وقد مثلت في أكثر من بلد، ولقيت قبولاً، وأما مسرحية (يوسف الصديق) فلم تمثل، لأن الفتوى المعتمدة: أن رسل الله وأنبياءه عليهم السلام لا يمثلون.

وسوف ألقي مزيدًا من الضوء على المسرحية إن شاء الله تعالى عند حديثي عن ضوائع القرضاوي.

القرضاوي ملقيًا ومتحدثًا

الشيخ المسكون بالشعر:

لعلي لا أغلو إذا قلت إن الشيخ حفظه الله مسكون بالشعر والتراث والإبداع والجمال!

ولعلي لا أغلو إذا زعمت أن القرضاوي – خطيبًا أو محاضرًا أو كاتبًا – لا ينفصل عن القرضاوي شاعرًا، فالشعر دائم الحضور في هذه الأداءات كلها، لا يمكن أن يمر أحدها إلا وهو يستشهد بأبيات، من شعره، أو شعر غيره، من القديم والحديث، الحر والتقليدي، الفصيح والشعبي.

وقد عددت للشيخ من شواهد الشعر، في كتاب واحد، هو الجزء الأول من مذكراته (سيرة ومسيرة) عددت تسعة أبيات وأربعمائة بيت، ثم أعياني العد، فتوقفت مللاً، وضنًّا بالوقت!

فإذا كان الشيخ يخطب فلن تخطئ أذنك الشواهد التي تساق بذكاء وغزارة، في أثناء الكلام، يلقيها دون تَعمُّل، ولا عصر للذهن ليتذكر ما يريد أن يقول!

والخطابة وإلقاء الشعر موهبتان متداخلتان، فالخطيب المفوه ملقٍ للشعر مجيد – وأرجو أن يكون هذا أمرًا أغلبيًّا عامًّا – وما يجادل أحد أن القرضاوي من أبرع الخطباء في زمني الذي عشت، إن لم يكن أبرعهم وأطولهم نفسًا، وقد استمعت إليه سنين طويلة، فوجدته الأقدر والأجرأ – ولا أزكي على الله أحدًا – بل أتمنى أن يكتب أحد عن القرضاوي خطيبًا، ويسرد مواقفه الأخيرة في مواجهة الصهاينة والأمريكان والروافض والطواغيت العرب، تبك التي تذكرنا بمواقف السلف الصالح في الصدع بالحق، دون مبالاة بلوم اللائمين، ولا رضا الراضين، أحسبه والله تعالى حسيبي وحسيبه، ولا أزكيه على الله ولا غيره!

وأتمنى أن يكتب عن اقتدار القرضاوي في امتلاك عناصر التأثير الخطابي؛ من حيث: التمكن من موضوعاته التي يطرحها، وبراعته في الاستهلال، والتشويق، والتنويع في استخدام الصوت، وقدرته على شد انتباه الحضور، وتوظيفه لحركات الوجه

واليدين، واستخدام المؤثرات النصية، والقدرة الفذة على الإجابة عما يدور في أذهان المتلقين.. وغيرها من العناصر التي لا تجتمع إلا في قليل من الموفقين.

الطبيعة الخطابية والإلقائية للشعر:

الشعر هو أبو الفنون – كما يقول سيد جودة في مقال له بالعنوان نفسه – ليس لأنه أقدمها؛ بل لأنه يجمع في طياته كل ألوان الفنون:

ففيه فن الرسم بالكلمات، وتركيب الصور والألوان، ورسمها في الخيال بشكل يضاهي أبرع اللوحات في الواقع.

والشعر فيه فن الموسيقى بإيقاعه وتفعيلته، التي تخلق جوًّا مرحًا، أو كئيبًا، أو هادئًا، أو عنيفًا؛ حسب ما يتطلبه الشاعر في القصيدة!

وفي الشعر فن الإلقاء، وهناك شعراء برعوا في إلقاء الشعر أكثر مما برعوا في كتابته.

وفيه فن التمثيل أيضًا حيث إن بعض القصائد تتطلب قدرة على التعبير بملامح الوجه وحركات اليدين، وبعض القصائد تكتب لكي يؤديها شخصان كحوار أو كصوت وصدى، وهذا نجده في الشعر الإنجليزي خاصة.

ونحن محتاجون هنا إلى أن نشير إلى الطبيعة الخطابية والموسيقية لإلقاء الشعر، الذي يعتمد على وجود متلقين، أو بيئة اجتماعية تتفاعل مع الملقي، كما يحتاج إلى الصوت، والتنغيم، وحسن الأداء الذي يقتضي نوعًا من التمثيل أو التشخيص؛ لتوصيل ما يريد صاحبه، فإذا لم يتوفر فيه ذلك ضعُف تفاعل الجمهور معه – مهما كان شعره جيدًا – فكم من شاعر مجيد وضَعه ضعفُ صوته، وسوء أدائه! وكم من شاعر (نَصَف) رجّ المنابر بأبيات متواضعة، كان الأبرز فيها حسن أدائه، وترديده بين الأبيات، والترجيع، مستثيرًا بذلك إعجاب السامعين..

وأذكر أن الأمير شوقيًّا رحمه الله تعالى كان يتهرب من إلقاء قصائده بنفسه؛ لضعف صوته – وهو الأمير المبدع – وكان يكل ذلك إلى شاعر آخر يحسن إلقاء الشعر، هو الأستاذ الشاعر علي الجارم رحمه الله..

ونِصْفٌ أداؤهُ:

بل إن بعض الشعر ذي النكهة الخاصة – كالشعر البدوي، والصعيدي، والنبطي، والمغرق في العامية المحلية – يكون نصفه إلقاءً ونصفه شاعرية (فشعرُ الفتى نصفٌ ونصف أداؤهُ) وحاول أن تقرأ شيئًا للأبنودي أو نجم أو عمر الفرا أو الشيخ أمين الديب أو إيمان بكري وأشباههم من المبدعين، وأؤكد أنك لن (تستطعم) شيئًا مما تقرأ!

ثم اسمع منهم القصائد ذاتها، وتأمل روعة ما يلقون، لتجد أنك أمام حالات شعرية شديدة الخصوصية والتميز والإبهار؛ بسبب النص والأداء مجتمعين!

كما أذكر ندوة شعرية أقيمت بالدوحة – ربما قبل اثنتي عشرة سنة – حضرها أربعة شعراء معروفين.. كان أبرعهم يلقي قصيدته من ورقة بيده، إلقاء قطةٍ ناعسةٍ كسلى تموء، فما حرك الناس؛ رغم قوة شعره، وتفجر أبياته بالصدق!

ثم كان من تبعاه مملين، رتيبين، تقليديين، ضعيفي الصوت والأداء، فما شدا انتباهًا، ولا انتزعا تصفيقًا؛ إلا تصفيق مجاملة حين انتهيا..

فلما كان دور الرابع – وكان في تقديري أضعف الموجودين شاعرية وسبكًا – ترك المنصة، ونهض واقفًا، مقتربًا من الجمهور، وأمسك الميكروفون بيده، ومن الذاكرة أخذ صوته الضخم يتفجر هادرًا بالأبيات المرقصة، فهز الناس هزًّا، وسط اندهاشي وحيرتي: كيف يتفاعل الناس مع هذا، ولا يتفاعلون مع هؤلاء؟

ليس ثم إلا براعة الإلقاء!

القرضاوي وعودة الشباب مع الميكروفون:

فإذا جئنا إلى شيخنا القرضاوي حفظه الله، فإنك واجد فيه شيئًا من عجيب خلق الله.. فهو في سنِّه هذه، ضعيف البدن، يغالب المرض، ويعالجه، لكنك ستجده خلقًا آخر – تبارك الله أحسن الخالقين – إذا هو ركب المنبر، أو جلس على منصة، أو قبض على ميكروفون – إذ تراه كما قال الشاعر (وفي أثوابه أسد مزيرُ) فيعلو صوته، ويجلجل في المكان، ليمتلك آذان الحاضرين ووعيهم، ببساطته، وتدفقه، وقدرته على تنويع صوته، من أدنى طبقاته إلى أعلاها، في حرفية ومهارة صقلتهما الدربة، وعمق التجربة، وطول معافسة القول.

وعلى كثرة من خالطت من كبار الدعاة قدرًا وعمرًا، لم أجد هذا إلا في رجلين اثنين – سبحان الله العظيم – هما القرضاوي حفظه الله، والشعراوي رحمه الله، لأن الإنسان إذا أسنّ أسنَّ فيه كل شيء، غير أن الصوت عند هذين الرجلين – على حد قول أهل الطرب – كالعود القديم: كلما طال به العهد جاد!

وأذكر أنني زرت الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى قبل بضع وعشرين سنة؛ لأسجل معه لتلفزيون قطر، وكان قد تأخر نحو ساعة خارج الفندق الذي واعدناه فيه، لأنه كان في ساعة مشيه اليومية، كما أمره الطبيب. فلما قابلته، عاتبته قائلاً: يا مولانا: جئنا من مكان بعيد، ووقتنا محدود، وحضرتك تركتنا هذا الوقت الطويل!

فاعتذر عليه رحمات الله بصوت مكدود أنهكه المرض: (يا بْنِي سامحوني؛ أنا عيان، والدكتور طلب مني أمشي كل يوم شوية) فلما جلس أمام الكاميرا صار شخصًا آخر غير الذي كان يحدثني قبل قليل، في قوة صوته، وتدفقه، وسيطرته على المجلس، حتى إنك لتخاله ابن عشرين أو ثلاثين!

فتبارك الله أحسن الخالقين!

وشيخنا القرضاوي كذلك؛ فهو – إذا خطب، أو حاضر، أو ألقى شعرًا – ينسى مرضه، وينطلق في صوتٍ شابٍّ هدار، ليوصل المعنى من خلال النبرات والطبقات، ويحسن البدء الهادئ، والتفاعل مع المعنى!

فإذا جاء أمر يمس الإسلام، أو يُنخي النفوس، أو يثير المشاعر، علا صوته، واحمر وجهه، وضرب بيده المنصة، فلم يبق عنق إلا التفت، ولا عين إلا نظرت، ولا قلب إلا انفتح، ليضع فيه القرضاوي ما يريد..

فشيخنا – إذن – خطيب مفوه، وملقٍ مميز، وشاعر يهز المكان، ويحسن إلقاء القصيدة الساخرة، أو الطريفة، أو المطربة، أو الجادة، أو المثيرة، أو ما شئت، فهو – متّع الله به – أستاذ المنبر والميكروفون بلا منازعة!

القرضاوي في شبابه يحاضر بمدينة الخليل المحتلة

القرضاوي ظريفًا

مبشرون ومكشرون:

نجح الإعلام نجاحًا بارعًا في تقديم العلماء المسلمين على أنهم قوم ثقيلو الدم، منفرون، كما نجح في أن يضفي على رجال الكنيسة سمات السماحة والبشاشة، حتى سماهم مبشرين!

فتخيل: هؤلاء مبشرون..

وأولئك مكشِّرون.. يا لطيف يا رب!

وأزعم – بل أجزم – أن سادتي علماء الشرع الحقيقيين، من أظرف الناس مجلسًا، وأحضرهم بديهة، وأخفهم دمًّا، إذا رأيتهم على سجيتهم،لم تصدق أنهم يمتلكون هذا المقدار من (العفرتة، والشقاوة). واسألوا من لقي الشيخ أحمد بن حجر أو الشيخ حسن عيسى أو الشيخ عبد التواب هيكل أو حسان حتحوت وغيرهم، وقد كتبت في هذا كتابًا عنوانه: مشايخ لكن ظرفاء، جمعت فيه من طرائفهم وملحهم الشيء الكثير.

ولا يختلف مجلس القرضاوي في دفئه وحميميته، وانبساط وجه صاحبه، وانجذاب القلوب له عن مجالس الظرفاء؛ لولا أنه الظرف الوقور، الذي يمس ولا يفحش، ويرسم البسمة، ولا يؤذي.

وهو يسوق طرائفه دعاباتٍ لطيفة، وعباراتٍ ظريفة، وأبياتًا شفيفة، لا بد أن يطرب لها الذوق النقي، وقد لازمه هذا من أول حياته حتى يومنا هذا..

ومذكراته خير شاهد على دعواي – خصوصًا جزأيها الأول والثاني – كما أن هذه القصيدة الغرامية الساخنة، التي كتبها قبل أكثر من نصف قرن برهان حي على شيخ لطيف المعشر، يحسن أن يرسم الضحكة، ويثير الفكرة، ويعابث من أمامه معابثة لطيفة خفيفة.

قصة الحب القديمة:

واسمح لي قارئي المبارك أن أسرد قصة الحب التي عاشها مولانا القرضاوي، والتي أعتقد أنه لا يزال يحب بطلتها – على طول الزمن – وهو لا يخفي ذلك ولا يتردد في إعلانه، حتى يومنا هذا؛ فقد شغفته حبًّا أنثى صعيدية من قنا، تعلق بها قلبه فكتب قصيدة لطيفة طريفة يعبر فيها عن هيامه، ولم يتردد في أن يصف محاسنها، ويعدد مزاياها، على غير عادة المحب العفيف الكتوم، ومن العجيب أن بعض الناس قرؤوها ولم يفهموا المراد منها فأساؤوا ظنًّا بالشيخ؛ إذ كيف يكتب مثل هذه العبارات الملتهبة في امرأة غريبة، وقد اتصل بي أحدهم مستفهمًا، حتى تعجبت من استفهامه، وقد كانت حبيبته:

أنثى تروق أخا الهيام.... حسناء فارعة القوام
جسمٌ رشيقٌ زانه.... عنقٌ حكى عنق النعام
جذابةٌ تغريك طلعتُ.... ها، فتدنو في اهتمام
وتحس أن لقاءها يشفي الصدور من الأُوام
وإذا حُرمت القربَ منـ..ها فالجوانح في ضرام
عُرفت بطهر القلب لم.... يعلق به خبثُ اللئام
ينبيك ظاهرُها بما في.... قلبها.. وبلا كلام
بنت الصعيد كريمة....من طينة القوم الكرام
قنوية، لكنها بيـ.....ضاءُ كالبدر التمام
قنويةٌ خلعت عبا.....ءتها وألقت الاحتشام
وكأنها بنت الزما.....لك في السفور والاقتحام

ثارت على قعر البيو.....ت فلا تحب بها المقام

إلا إذا هجم الشتا بـالبرد يصحبه الغمام

حتى إذا ولد الربيـ.....ع مع الزهور والابتسام

ودنا هجوم الصيف أعـ.....جبها الخروج على الدوام

فبدت من الشرفات ضا.....حكةً تجاذبك الغرام

لا تستحي من وافدٍ....يرنو إليها باهتمام

فإذا دنا منها دنت فـو.....رًا.. وأسلمت الزمام

ليست ترد يدًا تُلا.....مسها.. ولو كفي غلام

تلقاك في وضح النهـا.....ر وإن أردت ففي الظلام

فإذا اقتربت تريدها.....وتروم منها ما يرام

أفضت إليك بصدرها.....دون امتناع أو خصام

وحَبَتك فاها العذبَ تلـثِمُه ولا تخشى الملام

وتحوط كفُّك خصرَها.....وهي المطيعة في سلام

والناس حولك ينظرو.....ن يهنئونك باحترام

ومن العجائب أنها لتُحَـبّ من كل الأنام

حتى التقيِّ المستقيـمِ بها تعلّق واستهام

ما كفه عنها تقـاه ولا نهاه أن استقام

لا لا تسيئوا الظن فهـي طهورة طهر الغمام

كلا ولا عَرفت خنًا.....أو نـالها يومًا أثام

قنوية.. لكنـها رقـت كأقداح المدام

هي لا تحب سوى العشير أخي التلطف والوئام

إن لم تعاملها برفـق قـد يفاجئها السقام

ولربما منيت بجـرح لا يكون له التئام

والكسر فيها ليس يجـبره نطاسيُّ العظام

ولَرُبَّ عنفٍ قد يعـرضها لأن تلقى الحِمام

ماذا دها بنت الكرام ومن رماها بالسهام؟

كانت فتاة الحي ليـلى كل قيس مستهام

ليست تنافسها هنالـك مُدْمَزيلٌ أو مدام

واليوم قد أضحت تنـازعها بنات العم سام

هذي هي الدنيا، فليـس لكائن فيها دوام

أعرفت من أعني؟ لعلك قد فهمت من المقام

قل لي: " أبنت قنا " ترى أم يا ترى بنت الحرام؟

عرفت طبعًا قارئي الكريم تلك الأنثى التي هام بها القرضاوي ولا يزال.

ما عرفت؟ ألـم تفهـم شيئًا من حديثه عن العنق، والطينة، وعن بروزها في الصيف، والكسر الذي لا يجبر، وعن بنات الحرام بنات العم سام؟!

فأما بنات العم سام فهن الثلاجات..

وأما القناوية التي سقط القرضاوي في غرامها فهي القلة الفخارية المصنوعة في قنا بصعيد مصر، والتي يعرفها كل من عرف مصر، وهي نفسها (اللي بيكسروها ورا الضيف غير المرغوب فيه علشان ما يرجعش) والتي غنى لها سيد درويش طقطوقة مذهبها: مليحة جوي الجلل الجناوي/ رخيصة جوي الجلل الجناوي/ جرَّب حَدانا وخد جُلتين!

القرضاوي زارع واللا مزروع؟!

ويبقى شيخنا القرضاوي شخصًا سمحًا، لينًا، غير متكلف، مثل بعض المستكبرين الذين يتصنعون الأهمية، ويستجدون العظمة، ويضفون على أنفسهم هالة الادعاء والتشبع بما لم يعطوا.. وكثيرًا ما سمعته – بعد بعض كلمات الثناء من محبيه – يقول: إن هذا الكلام لن يخدعني عن نفسي، فأنا أعلم بها، فاللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

ولعل مما يليق بهذا المقام – مقام الأدب والشعر اللذين لا ينفك عنهما الظرف – أن أورد بعض اللطائف التي شهدتها أو علمتها، مما يتناغم مع نفسية العالم السمح، والأديب والداعية والشاعر الدكتور القرضاوي.

فقبل قريب من عشرين سنة تواضع فضيلته، وهاتفني – لأول مرة – لأمر لا أذكره، فلم أميز صوته الذي بدا رفيقًا ودودًا، فقلت مُرحبًا: أهلاً يا دكتور مزروعة، أقصد الدكتور محمود مزروعة الذي كان أستاذًا في كلية الشريعة بجامعة قطر آنذاك، فأبى الشيخ إلا أن يداعبني، وقال مازحًا؟

– مين اللي قال إنني مزروعة؟

– إذا مش مزروعة، تبقى حضرتك مين؟

– أنا زارع مش مزروع!

– زارع مش مزروعة.. مش مزروعة؛ يعني تبقى مين؟ من حضرتك؟

– قول انت!

– مش عارف والله؛ غلب غُلابي يا أستاذي زي ما بنقول في زفتى.. مين حضرتك؟

قال وابتسامته التي أراها من سماعة الهاتف تفضح عجزي عن التعرف عليه:

أنا يوسف القرضاوي..

فوثبت من مقعدي، كأني (أومباشا) أو عسكري في الجيش، فاجأه القائد الأعلى للقوات المسلحة، وضربت تعظيم سلام للتليفون، وأنا أهتف:

مين حضرتك؟ آآآآس.. آسف جدًّا يا أستاذي.. آآآآآآآسف والله.. أنا آسسس!

وكنت معه ذات مرة في مجلسه الكريم في بيته القديم بالدفنة، ودار شيء اقتضى أن أستشهد بقصيدة لأستاذ العامية اللاذعة أحمد فؤاد نجم:

الحمد لله خبّطْنا.. تحت بَاطاطنا
يا ما احلى رجعِةْ ظُبّاطْنا من خط النار
يا أهل مصر المحمية.. بالحرامية
الفول كتيرْ والطعمية.. والبَرّ عَمَار
والحالة معدنْ وَهِي ماشيةْ آخر أشيا
ما دام جنابُه والحاشية بكروشْ وِكْتار!

فقال الشيخ: الله! جميلة جدًّا، من اللي قال الكلام الحلو دا؟!

فرفعت حاجبي دهشة، وقلت: من كلام الشاعر الشعبي المبدع أحمد فؤاد نجم، ادعي له يا شيخ!

فدعا له الشيخ بخير، لكن شيطاني استفزني، فلم أملك لساني الذي بادر بما يشبه العتاب:

الله يسامحك يا شيخنا؟ لماذا لمتني إذن حين استخدمتُ قليلاً من الألفاظ العامية في كتابي: تجفيف منابع الأنوثة الذي قدمتم له؟ فقال: لأنك رجل لغوي، وأسلوبك رفيع راقٍ، فرأيت ألا تهدره في العامية!

فسألته: إذن ممكن حضرتك تسمع الشعر العامي، وتأنس له؟

فقال: بالعكس، أنا أحبه، وأحفظ منه الكثير، وكنا نقوله أيام اعتقالنا، وأخذ يسرد علي أشعارًا مما كان يقوله المساجين أيام اعتقاله في مطالع شبابه، ويسمعني مقطوعات زجلية من هنا وهناك، ومنها ليه وليه، التي قيلت آنذاك؛ احتجاجًا على الظلم، والاستبداد، والقهر السياسي:

ليه وليه؟ عملنا إيه؟
يا حكومة يا ظالمة جرى لك إيه؟
أنا كنت قاعد جُوّا البيت
دخل عليّ كم عفريت

وفتشوني وقالوا: جنِّيت!

يا متهم، قلت لهم: إيه؟!

ليه وليه؟ عملنا إيه؟

يا حكومة يا ظالمة جرى لك إيه؟

قالوا لي: إنت من الإخوان

وضبطْنا فِي بيتك قرآن

ومأثورات وسبحة كمان

ومْربّي ذقنك جاوب: ليه؟

ليه وليه؟ عملنا إيه؟

يا حكومة يا ظالمة جرى لك إيه؟

بتصلي من غير إذن بوليس

وتصوم الاثنين من غير ترخيص

وعلى صلاة الفجر حريص

والمصطفى بتصلي عليه

ليه وليه؟ عملنا إيه؟

يا حكومة يا ظالمة جرى لك إيه؟

وتصف الأبيات حالهم في الليمان:

في الصبح نفطر عدس وفول

أما الفاصوليا دي على طول

يا اخوانّا محنة وبكرة تزول

وكل ظالم ورده عليه

ليه وليه؟ عملنا إيه؟

يا حكومة يا ظالمة جرى لك إيه؟

وأشار الشيخ – كما ورد بمذكراته – إلى أنهم في أيام السجن كانوا على ثلاثة أنحاء:

- فمنهم شعراء كانوا ينشئون القصائد التي تضج بالشكوى، مثل قصيدته النونية.
- ومنهم زجالون كانوا يؤلفون الأزجال، مثل زجل أحدهم في وصف سوء المعاملة في الحربي: اللي ما شافش السجن الحربي/ مهما اتربّى ما تربّاش.
- والفريق الثالث هم الذين كانوا يقلبون الأغنيات المشهورة بكلمات جديدة، لتصبح ملائمة لوصف الحال، ويتغنون بها، مثل ذلك الذي كان يقلد أغنية أم كلثوم الشهيرة: يا ظالمني. وكان يغير عباراتها، وينشدها بصوته العذب، فيقول:

وتضربني وتِئذيني/ وتنفخني وتكويني/ وتزعل لما أقول لك يوم: يا ظالمني.

وقد ترجم الدكتور القرضاوي بشكل ساخر ظريف – رغم شناعة ما هم فيه – محنته وإخوانه في السجن – التي أشار إليها الزجل السابق – في قصيدته الشهيرة النونية التي كتبها قبل نصف قرن، واستخدم فيها لغة وسيطة بسيطة وواضحة، لم تخل من سخرية من السجن والسجانين والتعذيب، ومنها:

وفطورُنا عدسٌ تزيّن بالحَصَى..... إن الحَصَى فرضٌ على (التعيين)
قد عِفْتُه.. حتى اسمَهُ وحروفه..... من عينِه، أو دالِه، والسينِ
وغداؤنا فاصوليةٌ ضاقت بها..... نفسي، فرؤية صَحْنها تؤذيني
وعشاؤنا شيءٌ يُحيِّرك اسمه..... وكأنما صنعوه من غِسْلين
لا طعمَ فيه ولا غذاء.. وإنما..... يحلو لنا من قلة التموين
طبقٌ يُكال لسبعة أو نصفُه..... وعليَّ أن أرضى؛ وقد ظلموني

وأتعجب كثيرًا من قوله: (وكأنما صنعوه من غسلين) إذ لم ير أحد الغسلين، أو يذقه – أعاذني الله وإياك من النار وما فيها قارئي الكريم – تمامًا كما لم ير أحد أنياب الأغوال، التي شبّه بها امرؤ القيس سنّ حربته:

أيقتلني والمشرفي مُضاجعي ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوالِ!

وانظر ظرفه في الألفاظ التي استخدمها في الأبيات مثل (تزيّن بالحصى/ التعيين/ رؤية صحنها/ قلة التموين!).

وكالة أبشروا!

ولن تخطئ عينك قارئي الحبيب وأنت تتجول في سيرة حياة القرضاوي ومسيرته أن تجد خفة الدم، ومتعة المحاورة، وسلاسة التعبير، عبر مواقف ضاحكة باكية، جادة ومازحة، فاصلة وعابرة، يرويها ليرسم في النهاية على شفتيك ابتسامة خفيفة، أو يجعلك تقهقه، تمامًا كما يفعل حين يشافهك، ويسرد عليك من أخباره وأفكاره ولطائفه؛ فخذ هذه الابتسامة:

حكى لنا الشيخ أبو الروس – والكلام لمولانا القرضاوي، من مذكراته –: أنه تزوج مبكرًا، وكان له أبناء يدْرسون، وكان هو طالبًا آنذاك يدرس أيضًا، فكلهم طلبة – الأب والأبناء – يقول الشيخ: فقد تكون النتيجة في بعض الأحيان أن أرسب أنا وينجح الأولاد، وأحيانًا يعرف زملاؤهم ذلك، فيقولون معيّرين لهم: يا أولاد الساقط!

والقرضاوي – كما قرأته وعرفته، والله حسيبه – رجل مستنير، متفائل، مبشر، يرى في الناس دائمًا الجانب الإيجابي، والإنساني، ويحاول أن يركز دائمًا على البشريات، وأن يغرس الأمل، وهذا واضح في منهجه في الفتوى والحركة والكتابة والخطابة والإعلام والشعر، ويبدو أن هذا المنهج قد انغرس فيه منذ مقتبل أيامه، حتى في الأيام الشديدة التي مرت به في مطالع شبابه، وهو في السجن مع أصحابه، حتى إنهم كونوا ما أسموه "وكالة أبشروا" حين كانوا يتأولون كل شيء، وكل إشارة – مهما بدت مزعجة – على أنها باب نصر، ومشكاة أمل، وانفراجة على النور والحرية!

يقول في مذكراته، بتصرف مني واختصار:

من المعروف أن السجون من قديم مظنة لكثرة الرؤى والأحلام من نزلاء السجن، كما أنهم يهتمون بالحديث عنها، وبتعبيرها، ومعرفة ما تؤول إليه من خير أو شر، ولهذا لا نعجب إذا وجدنا من نزلاء السجن الحربي فئة مشغولة أبدًا بالأحلام والرؤى، وفي كل صباح عند النزول إلى دورات المياه، يسأل بعضهم بعضًا عما رأوا في تلك الليلة، وقد سماهم الأستاذ عبد العزيز كامل – الوزير الأسبق، وكان مسجونًا معهم – جماعة القِسْم الليلي، لأن كل عملهم في الليل.

ومن المعلوم شرعًا أن بعض ما يراه الإنسان في نومه هو حديث نفس، كما قيل: (الجَعان بيحلم إنه في سوق العيش)، وبعضها رؤى صادقة، وبعضها من الشيطان.

المهم أن هؤلاء كانوا يرصدون في كل صباح الرؤى التي يراها بعضهم، ويؤولونها على ما يحبون دائمًا، تأويلاً يبشر بالنصر، ويؤذن بالفرج القريب، وبهلاك الظالمين، وذهاب سلطانهم:

فإذا رأى أحدهم في المنام شمسًا تبزغ وتشرق، كان تأويلها أن شمس الإسلام قادمة، وستملأ الدنيا نورًا وخيرًا وحرية..

وإذا رأى أحدهم في منامه شمسًا تغرب، قالوا: هذه شمس الأعداء، يوشك أن تغرب وتغيب.

وإذا رأوا أرضًا خضراء نضرة قالوا: أبشروا، هذه أرضنا!

وإذا رأوا أرضًا أصبح نباتها هشيمًا تذروه الرياح، قالوا: أبشروا هذه أرض الظالم وجماعته.

ولهذا أطلق الإخوان على هؤلاء: وكالة "أبشروا" فإذا كانت وكالات الأنباء تذيع الأخبار، فهذه الوكالة تذيع الأحلام المبشرات.

لجنة الفرفشة:

وإذا كانت مهمة جماعة "أبشروا" نشر الأمل عن طريق الرؤى والمنامات، فقد وجدت جماعةٌ بين الإخوان تشيع الرضا وسكينة النفس، عن طريق نشر النكت، والفكاهات، والمداعبات، حتى لا يغلب جو الكآبة على السجن. وقد دارت بينهم آنذاك نكات وطرائف عديدة، منها:

أن شرطيًّا ضبط شخصًا يقول: الله يخرب بيتك يا عبد الجبار، فقبض عليه! ولما قدمه إلى الضابط سأله: إيه تهمته يا عسكري؟ قال:

يا حضرة الظابط، دا غلط في اسم السيد الرئيس!

ومنها أن شرطيًّا ضبط شخصًا يدعو من قلبه على الحكومة الظالمة، وصرخ فيه: انت بتشتم الحكومة يا مجرم؟!

فقال الرجل: أنا قصدي حكومة المجر يا بيه،

فرد الشرطي: إنت مفكّر إنك ها تضحك علينا؟ هُوّا فيه حكومة ظالمة إلا حكومتنا؟!

ومنها أن الحكومة – لسبب ما – كانت تقبض على الجِمال، فوجد الناس حمارًا يعدو ويشتد، ليختبئ من رجال الأمن الذين يبحثون عن الجِمال، فسألهم أحدهم: لماذا تختبئ، وإنما تأخذ الحكومة صنف الجمال: خايف من إيه وانت البعيد حمار مش جمل؟

فقال: حِلِّني، علشان أثبت لهم اني حمار مش جمل، هايكون ضاع نصف عمري!

يقول شيخنا القرضاوي – الله يحفظه – كانت إشاعة هذه النكات وأمثالها من عمل مجموعة من معتقلي الإخوان كنت منهم، سميناها: "جماعة الفرفشة".

وكان قد ظهرت شائعة بين المعتقلين، وهي أن ما نزل بالإخوان من أهوال ومحن شداد، قد أثر على فحولتهم، وأفقدهم القدرة على الإنجاب، وأنهم لن يقدروا على متطلبات الزواج إذا عادوا إلى زوجاتهم، وأن عُزّابهم إذا تزوجوا فلن يقدروا على إنجاب الأولاد، فاتخذت جماعة الفرفشة شعارات لها هي:

تشجيع العزاب على الزواج، والمتزوجين على كثرة الإنتاج، والفرفشة حتى الإفراج.

ومن الطرائف التي حكاها الأستاذ عصام تليمة سكرتير الشيخ السابق في كتاب له أنه حدث أن دعا الدكتور الأديب العالم عصام الدين البشير وزير الأوقاف السوداني الشيخ وآخرين لوليمة، فلما دخل الشيخ ووجد المائدة قد امتلأت بما لذ وطاب من الطعام، قال مازحًا:

يبدو أن الأخ عصام فاهم لدعوته كويس!

الشيخ القرضاوي والبسابس!

هل سمعت عن البسابس قارئي الكريم؟

إنهم العصافير، أو الدبابيس، أو الخوازيـــــق، أو الـــــوِدان، أو البصاصون أو العسس.

مـافهمتش حاجـة سـيادتك؟

إذن فاقرأ هذه الفقرة من مذكرات الشيخ الأديب الظريف، عن حكايات العكننة والبسابس في المعتقل، كي أعود وأزيدك إيضاحًا:

كان هناك أفراد قليلون لم يصبروا على المعتقل، ولم يرضوا به، ولم يكيفوا أنفسهم وفقًا للحياة الجديدة، والناس تتفاوت طاقاتهم في الاحتمال؛ فمنهم من يقارع الأهوال ولا يبالي، ويواجه الأحداث كالطود الأشم، ومنهم المتوسط الاحتمال، ومنهم من لا يحتمل أي مكروه يصيبه.

وكان من الذين قلّ احتمالهم، وعز عليهم فراق أهليهم، أخونا وصديقنا الداعية الطنطاوي الأستاذ حسني الزمزمي، الذي وصل معنا إلى معتقل الطور، ولكنه لم يُخف تبرمه، وضجره منه، وانضم إليه نفر قليل على شاكلته، سماهم الإخوان "لجنة العكننة" ورئيسها الأستاذ الزمزمي.

والحق أن لجنة العكننة كانت مصدر ترويح وفرفشة للمعتقلين؛ فقد كان الأستاذ

الزمزمي رجلاً فَكِهًا خفيف الروح – بطبيعته وبطريقته – وكان إذا ناداه أحد: يا أستاذ زمزمي، يرد عليه: إن شاء الله خرَّاب يتعِمي، وخرّاب هذا لقب عبد الرحمن عمار، وكيل وزارة الداخلية المصرية آنذاك، الذي كتب المذكرة المسمومة لحل الإخوان، فسماه الزمزمي خرّابًا بدلاً من عمّار.

وكان له أرجوزة نظمها في الضابط سعد الدين السنباطي الذي اعتقله في طنطا ومطلعها:

يا رب أخزِ الظالمَ السنباطي واجعلْهُ في كلِّ المسائلِ واطي
يا رب واجعل كيدَه في نحرهِ ورد سمَّ سهمِهِ لصدرهِ

وكان الإخوة – ولا سيما أهل العلم والأدب منهم – كلما سمعوا أرجوزته، أضاف إليها كل منهم بيتًا من عنده.

إلا أن العكننة الحقيقية كانت تتمثل في وجود عدد من العملاء والجواسيس، زرعتهم الحكومة وجهات الأمن زرعًا في أوساط الإخوان، فسميناهم البسابس – جمع بِسبِس – مهمتهم أن يتجسسوا، وينقلوا أخبار المساجين أولاً بأول إلى الحكومة، ولم يطق هؤلاء البسابس الحياة الروحية للإخوان، واستيقاظهم لصلاة الفجر، وحرصهم على الصلوات، ولهذا سُرعان ما انكشفوا؛ فالإخوان ينهضون للصلاة وهم نائمون!

وفي يوم كان الإخوان يصلون وهم يهتفون "عاش جلالة الملك"؛ وهو ما أثار حفيظة الأخ الشهم "إبراهيم كروم" فتوة القاهرة المعروف، الذي جمع عددًا من الشباب الأقوياء، وانهالوا على هؤلاء البسابس ضربًا حتى أصابوهم بجراح، وعملت قضية للحاج كروم، وعلمت أنه حُكم عليه فيها بعد خروجه من المعتقل بستة أشهر.

واسمحوا لي أن أبتدع نظرية بسبسية جديدة، هي أنه ليس كل البسابس وِحشين، وأن البسبسة قد تكون أحيانًا مطلوبة ولطيفة، فليغفر لي شيخي القرضاوي أني جعلت من الصديق أكرم عبد الستار بسبسًا، ينقل إلى قرائي

الكرام من خلال مشاهداته وسماعه بعض طرائف الشيخ، وهي على كل حال بسبسة حميدة، يؤجر عليها، وإذا امتنع هاخليها عكننة، وهو حر، ما هي يا عكننة، يا بسبسة؛ واللا إيه؟!

ومما سرّبَه لي الشيخ أكرم أنه كان ذات مرة يسعل والشيخ منه قريب، فقال له: إيه يا شيخ أكرم؟ انت هاتكح معايا؟ أنا ما حدش يكحّ معايا!

وحين مدح الشيخ كتاب الشيخ أكرم الذي كتبه عن الشيخ – وهو دراسة نفيسة جامعة موثقة من محب بصير – قال له، أنا مبسوط آخر بسطة يا مولانا؛ لأن حضرتك أثنيت على الكتاب، قال له:

زادك الله بسطةً وجاتوهًا (والبسطة هي حلوى من المعجنات، تشتهر في مصر باسم الجلاش).

وأثناء مرض أستاذنا الدكتور عبد العظيم الديب متع الله به، اتصل الشيخ مطمئنًا على صحته، وحين سمعه بادره ممازحًا:

ما شاء الله، إيه الحلاوة دي؟ صوتك ولا صوت أم كلثوم.

وفي مؤتمر صحفي في البحرين سأله أحدهم: يا أستاذنا: بعض الصحفيون يقول.. فقال الشيخ: سيبويه كدا هايزعل منك.. قل: بعض الصحفيين.

ومن التعليقات الطريفة أيضًا تعليق سمعته غير مرة من الشيخ على أنه لا كهنوت في الإسلام، وليس عندنا رجال دين، بل علماء دين، فكان يقول: احنا لا عندنا "بابا " ولا عندنا "ماما"!

ومما يرويه الشيخ أكرم في كتابه الجميل الوافي عن العلامة القرضاوي: أذكر أنني شاركت مع عدد من الشباب في نقل مكتبة الشيخ من بيته القديم إلى بيته الجديد، ولما حضر وقت الطعام دخل علينا الشيخ بابتسامة تعلو وجهه وهو يقول:

هيا إلى الطعام، إذا حضر الهرس بطل الدرس!

ويروى عن الدكتور صلاح الراشد أن شابًّا عربيًّا كان يسكر في حانة من حانات الخمر في إحدى الدول الأوربية، وكانت المرأة التي تسقي الخمر نصرانية، فكان الشاب يسألها وهو في قمة السكر: أنت مسلمة؟ فتقول: لا، فيقول لها: يبقى

هاتروحي جهنم.. وينفجر ضحكًا، وكان كل يوم يقول لها هذا..

ويشاء الرحمن الرحيم أن يشدّها هذا التساؤل المتكرر، فبدأت تبحث عن الإسلام، وتقرأ فيه، حتى عرفت الحق فاقتنعت فأسلمت!

يقول الدكتور صلاح: عندما رويت القصة كان معنا الشيخ القرضاوي، الذي ضحك الشيخ وقال: حتى سكارى أمة محمد دعاااااة!

ومن شعره الساخر الظريف أنه لما قتل النقراشي رئيس وزراء مصر في عام 1948م فرح الشباب بمقتله، وكان القرضاوي الشاب وقتها قد قرض قصيدة جاء فيها:

عبد المجيد تحية وسلامُ أبشر فإنك للشباب إمامُ

سممتَ كلبًا جاء كلبٌ بعده ولكل كلبٍ عندنا سمامُ

وقد سئل الشيخ عن مكان صلاة العيد فقال في نادي السد، فقيل له:

غيرت المكان وتركت نادي قطر؛ فقال: اللي سبأ أكل النبق.

ويقول في مذكراته: عن طريق الدمرداش تعرفت على إخوة وأصدقاء آخرين من بلدياته، من مركز زفتى؛ فقد كان هو من قرية السملاوية مركز زفتى (التي في خاطري وفي فمي). ومن هؤلاء الصديق العزيز والأخ الكريم عبد العظيم محمود الديب – من كفر ابْرِي مركز زفتى – وقد كان طالبًا بالمرحلة الابتدائية حينئذٍ، ولكنه كان متألقًا، تلوح عليه مخايل النبل، والتفوق. وكثيرًا ما كان يدعونا إلى مسكنه، يطعمنا بما أتحفته به والدته مما لذَّ وطاب. وقد تعودنا – نحن طلبة الإخوان – إذا دعانا أحد زملائنا، وأكرم وفادتنا، وأطعمنا حتى نشبع، نقول فيما بيننا – مازحين –: هذا الأخ فاهم للدعوة. أما إذا لم يقدم ما يقنع ويشبع، نقول: إنه لا يزال في بداية الطريق، لم يحسن فهم الدعوة بعد .

وكنا نقول لمن يضيفنا: "أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلَّتْ عليكم الملائكة"، فيستدرك أحدنا، ويقول: "إلا جبريل؛ فإنه لا يصلي على المضيِّف حتى يقدم الشاي"!

وأحسب أننا كنا المبتكرين لهذا المُلْحة، ثم عمت بعد ذلك وانتشرت!

عبقرية الجنود الأميين:

ويروي الشيخ عن جهل وأمية الجنود الذي كانوا يعتقلونهم ويعذبونهم، فيقول: معظم هؤلاء العساكر أميُّون لا يعرفون شيئًا، وليست عندهم أي ثقافة تمنعهم من تصديق ما يقال لهم عن الإخوان!

ولا عجب أن سمعت أحد الجنود يقول لأحد الإخوان: يا مختلس الوطن!

ومعنى هذا أنهم أفهموه أن تهمة هؤلاء ليست اختلاس خزينة أو متجر، بل اختلاس الوطن كله!

ومما يدل على جهل هؤلاء: تعليقاتهم الغريبة على بعض الوقائع، فأخونا الدكتور عبد الله رشوان سألوه: بتشتغل إيه؟ قال لهم: أنا محام، قالوا:

يعني بتشتغل شغلتين في وقت واحد: دكتور ومحام! (شوف النباهة!).

يقول: وأخونا الشيخ محمد مصطفى الأعظمي من علماء الهند، كان يدرس في الأزهر العالمية مع إجازة التدريس، وأخذوه مع الإخوان، وكان يلبس زي إخواننا الهنود من البالطو الأسود، والقلنسوة السوداء، واللحية السوداء، فحينما رأوه حسبوه قسيسًا! فقالوا:

يا ولاد الـ ... حتى القُسَسة دخلوا فيكم!

ومن دلائل الجهل المطبق عند هؤلاء العساكر: أن أحدهم ممن كان يشرف على الإخوان في دورة المياه، وجد تسعة منهم يدخلون المراحيض، والباقين ينتظرونهم حتى يخرجوا، فقال لهم:

يا بهايم، بدل وقوفكم بلا عمل، منتظرين اللي في المراحيض، استغلوا الوقت في الوضوء، ولما ييجي عليكم الدور في الدخول، تكونوا كسبتم الوضوء، بدل انتظاركم من غير لازمة! (شوف النباهة برضه!)

وقد سمعت هذه الواقعة ذاتها أوائل التسعينيات، من الدكتور الشاعر الجميل حسان حتحوت، عليه رحمات الله، في مجلس الشيخ العماري في الدوحة، في محضر

عدد من كبار الدعاة!

وعن رحلته لتركيا يحكي طرفة في مذكراته عن النكتة التي قالها أحد الظرفاء: كان أحدهم في لندن، وهو لا يعرف غير العربية، ويريد أحدًا يعرف العربية، ليسأله عن شيء، فوقف أمام إحدى السينمات، والناس خارجون، يقول لكل من يواجهه: إنت راجل حمار! إنت راجل حمار! والناس يمرون عليه، ويسمعون هذه الكلمة ولا يعيرونه التفاتًا، إلى أن مر عليه أحدهم، فقال له: إنت راجل حمار! فقال: أنت ستين حمار! فهناك أمسك به، وقال له: إياك أريد. فأنا ما قصدت شتمك، إنما أردت اكتشافك.

ويؤسفني أن أحدًا لم يهتم من قبل في الجانب الظريف في حياة الشيخ – وهو لصيق بالأدب والشعر والدعوة – وأتمنى أن يتجرد لها أحد، ليوسع هذه المحاولة الأولية.

القرضاوي ساخرًا

تحدثت فيما مر حول القرضاوي ظريفًا، وأتحدث هنا عنه ساخرًا.. وقد يخفى الفرق بين الظرف والسخرية، وتتداخل بينهما النسب، فلعل من الأفضل إذن أن نحدد الفرق بينهما، لنحدث مزيدًا من التأمل للحالة الشعرية عند القرضاوي:

في كتابه المسرح ومفارقاته كتب الدكتور حسن يوسفي عن المسرح والضحك يقول: إن المهتمين بالمظاهر الأدبية للضحك يصرون على إقامة التمييز بين أربعة أنماط كبرى، تركت آثارها واضحة في تاريخ الضحك عبر العصور، وهي: السخرية، والفكاهة، والمحاكاة الساخرة، والهجاء.

وحظيت السخرية باهتمام الفلاسفة والبلاغيين والمحللين النفسانيين واللسانيين وعلماء المسرح؛ حيث وقف كل من زاويته عند مظهر من مظاهرها.

إلا أن هذه الاهتمامات – رغم تنوعها تجمع على أن السخرية تقتضي بالأساس قول عكس ما نفكر فيه. وهذا ما يعبر عنه باتريس بافيس من خلال تعريفه للسخرية في معجمه المسرحي قائلاً: « يكون ملفوظٌ ما ساخرًا، منذ الوهلة الأولى التي يُظْهِرُ فيها معنىً عميقًا مختلفًا، بل ومعاكسًا؛ علاوة على معناه البديهي والأولي ».

والسخرية بهذا المعنى، تعد جزءًا من الحياة اليومية للإنسان، مثلما تعد إحدى أهم الوسائل التعبيرية المستعملة في مختلف الفنون. وتتميز بكونها هازئة، عدوانية، تستهدف شخصية ضحية، وناقدة.

وتتميز الفكاهة عن السخرية، فإذا كانت هذه الأخيرة تشكل «سلاحًا هجوميًّا، فإن الفكاهة تستعمل كدرع للوقاية» كما أن السخرية تستهدف شخصية – ضحية بالضرورة، بينما نجد الفكاهة «لا تتردد في الاستهزاء من الذات، والسخرية من الساخر نفسه» ما يجعلها تعبر عن نشوة خاصة ولذة متميزة.

واللذة المرتبطة بالفكاهة لا تجعل منها ضحكًا مجانيًّا بالضرورة لأن لها أهدافًا أخرى ومقاصد نبيلة تصل إليها بطرق غير جارحة، وهذا ما أكده أحد الباحثين في الأدب الفكاهي قائلاً «الغرض من الفكاهة ليس هو الإضحاك والضحك فحسب، وإنما هو التقويم والتهذيب والإصلاح بنقد أنواع من النقص أو القبح أو الخروج على المألوف، ويشترط في هذا النقد ألا يجرح كما يجرح الهجاء» فالفكاهة – من هذا المنظور – لا تخلو من نية مغرضة، إلا أن طابعها المغرض هذا يغلف بقناع غير هجومي أو غير عدواني. أ.هـ

السخرية موقف فلسفي:

وأظن أن هناك علاقة قوية بين السخرية والذكاء، وبين الظرف والذكاء، كما أن هناك علاقة قوية بين الشعر والظرف.

وكثيرًا ما يستخدم الشاعر السخرية للتعبير عن حجم مرارته، واستهانته بمن يسخر منه، وللهروب من الرقيب والناقد المتربص، وللتعبير الذي ينفس عن الغضب، ويخفف التوتر الذي يعاني منه الشاعر أو الكاتب..

وهو – عندي – أصعب من الشعر العادي الواضح، ولا يقدر عليه كل شاعر، كما لا يقدر كل أديب على الكتابة الساخرة؛ إذ إن الشاعر لا بد أن يكون شاعرًا، ثم يكون ساخرًا، بامتلاكه قدرًا إضافيًّا من اللماحية العقلية، وتوظيف اللفظ والعبارة ليؤديا المعنى ونقيضه، حتى تحدث المفارقة، وتؤتي السخرية أكلها!

تقول الكاتبة مي ملكاوي عن الشعر الساخر – مستأنسة بأقوال عدد من المفكرين والشعراء –:

الشعر الساخر، والقصة الساخرة، والخاطرة، والمقالة الصحفية الساخرة، كلها طرائق متعددة لقول ما يشغل بال الكاتب في الحياة من حوله، ليتناول التناقضات في المجتمع، الممارسات السلبية، الأحداث والشخصيات السياسية، المشاكل الاجتماعية وحتى النفسية والمادية، وغيرها من المواضيع التي لا تنتهي....

إن السخرية ليست تنكيتًا ساذجًا على مظاهر الأشياء، ولكنها تشبه نوعًا خاصًّا من التحليل العميق؛ فالأدب الساخر يحصن الروح الإنسانية عن صمتها وخوفها وترددها في التعبير والتصريح وإثارة الأسئلة، حتى لكأنه آخر ملاذات الكائن من اغتيال كينونته، بل نافذته على قهقهة مديدة، مغمسة بالألم، تُسخر لتهجو الطغاة، والجلادين، وكتبة التقارير، وقتلة الحب، والجمال، وضحكات الأمل.. ولا بد فيها من وجود حس للأشياء، وقدرة على التمرد والتجديد واندهاش دائم وحس نقدي وثقافة كبيرة ومتنوعة.

وأعتقد أن هذا – وأكثر منه – مما صادف القرضاوي في مسيرته المليئة بالنجاحات والإحباطات، والآلام والآمال، فلم يكن له بد من أن يستخدم السخرية للتعبيرة عما في نفسه:

بين زنزانتين:

انظر إلى القرضاوي وروح السخرية والتحدي، وفلسفة تحويل المحنة إلى منحة، في وصفه لزنزانته التي سكنها عام 1954 أول اعتقاله، أيام كانت الأمور هادئة.. وتذكر أن الزنزانة مكان كئيب بارد مظلم، غاصّ بالوحدة والإحساس بالأسر والضعف، ثم انظر كيف صارت بسخريته قصرًا منيفًا، ومكانًا للاستجمام والراحة والتريض، يخدمه فيها المدير والجند، ولا يدفع لها إيجارًا، ولا يلقى فيها ثقلاء:

دارٌ حَلَلْتُ بها أُزار وأُخدمُ ونزلتها ضيفًا أُعَزُّ وأُكْرَمُ
يسعى إليّ بها المدير وجنده ويزورني فيها الطبيب يسلّم
دار السلام، فليس فيها آلة تدمي، وأنى؟ والمقص محرم!
هي لي ولي وحدي فليس منازعي فيها لئيمٌ أو أخ لي مسلم
مَلِك بها أنا، لا يرد رغائبي ومنايَ، إلا هاشم أو مكرم
حُجبت عن الدنيا فلا خبر ولا أثر، وحتى لست ممن يحلم!
أنا في حماها راهبٌ في خلوة مع من يرى ما في الضمير ويعلم

منها أصعّد للسماء ضوارعًا حرّى تهز العرش وهو الأعظم

هي علمتني الزهد في مُتع الورى والمرء حتى موته يتعلم

إن قيل: موحشةٌ، فأُنْسي مصحف أتلوه، يهدي للتي هي أقوم

أو قيل: معتمةٌ، فليس بمعتم عندي سوى قلب يعيثُ ويجرم

أو قيل: مغلقةٌ، فذا كيلا أرى وجهًا عبوسًا أو لسانًا يشتم

أو قيل: ضيقةٌ.. فكلّ حوائجي في الرّكن، والباقي فضاءٌ يعظم!

هي حجرتي فيها نهاريَ مجلسي هي غرفتي للنوم حين نُنَوّم

هي مكتب حينًا، وحينًا مطعم إن جاء ميعاد الطعام فأطْعَموا

هي ساحة لرياضتي أعدو بها في موضعي، إن الضرورة تحكم

هي (دورتي) في الليل إنْ طال المدى أو في النهار إذا أبوا وتحكموا

هذا وليس عليَّ أوّل شهرها أجرٌ لسكناها به أتقدّم!

حييت يا زنزانتي، فلأنت لي قفصٌ، وإني في حديدِك ضيغمُ!

فلما اختلف الحال، وبدأ عهد التعذيب، والقتل، والترويع، وإهانة الآدمي كتب ثانية عن الزنزانة في نونيته بلغة لا تخلو من السخرية، والتكرار في المعاني؛ لكن بطرح جديد مشحون بالألم، والكوميديا أو السخرية السوداء (التراجيكوميدي) يمزج بين الهزل والجد، وبين الضحك والحزن، وبين الملهاة والمأساة كما في مسرحيتي غربة، وضيعة تشرين لدريد لحام، وكما في فيلم الحدود وغيره من الأعمال:

أعرفتَ ما قاسيتُ في زنزانة كانت هي القبر الذي يؤويني؟!

لا بل ظلمتُ القبر، فهو لذي التُّقى روضٌ، وتلك جحيمُ أهل الدِّين

هي في الشتاء وبرده (ثلاجةٌ) هي في هجير الصيف مثلُ أتون

نُلقى ثمانيةً بها أو سبعةً متداخلين كعُلْبةِ (السردين)

هي منتدانا وهي غرفةُ نومنا وهي (البوفيه) وحجرة (الصالون)

هي مسجد لصلاتنا ودعائنا هي ساحةٌ للَّعْبِ والتمرين

وهي (الكنيف) وللضرورة حكمها ما الذنبُ إلا ذنبُ من سجنوني

هي كلُّ الأرض عندي: أرضها أما السماء فسقفها يعلوني

الأرض كل ما لي في الحياة فلم يعد في الكون ما أرجوه أو يرجوني

فيها انقطَعْتُ عن الوجود فلم أعد أعنيه في شيء ولا يعنيني

تأمل سخريته – في الجزء الأول، حين كانت الزنزانة مجرد مكان أمين للإقامة – من كل شيء، وهو يرى نفسه ضيفًا، بل ملِكًا كريمًا يتسابق لخدمته جنود وضباط وأطباء، وكيف تعلّم فيها الزهد والأنس بالله تعالى، ولم تكن بالنسبة له معتمة ولا ضيقة، ولا موحشة ولا مغلقة، وكيف حوّلها بمهارته إلى قصر منيف، فهي غرفة معيشة، وغرفة نوم، وغرفة طعام، واستقبال، وملعب، و(دورة) كما أنها مريحة مجانية؛ لا يدفع لها إيجارًا، ولا يتربص به أحد أول الشهر مطالبًا!

ثم انظر إليه في النونية – بعد أن تغير الحال، وأضحى التعذيب نصيبًا مفروضًا، وقسمة يومية ينالها مع إخوانه – وكيف وصف الزنزانة ساخرًا سخرية مرة سوداء، بأنها أسوأ من القبر الذي هو روضة للصالحين، وبأنها ثلاجة حينًا، وأتون حينًا آخر، وبأنها علبة سردين – من الزحام – وبأنها كالأخرى في تقسيماتها (البوفيه والكنيف والصالون والمنتدى والمسجد والملعب، بل هي الكون كله أرضًا وسماءً!) ولن تخفى على فطنتك اللهجة الساخرة المرة؛ فتأمل!

وليس حديث السخرية قاصرًا على الزنزانة، بل إنه ليلمس أشياء أخرى عديدة، فانظر إليه، وهو يقول في النونية:

قل للعواذل إن رميتم مصرنا بتخلف التصنيع والتعدين

مصر الحديثة قد علت وتقدمت في صنعة التعذيب والتقرين

وتفننت كيلا يمل معذب في العرض والإخراج والتلوين

وسل العروسة قبحت من عاهرٍ كم من جريحٍ عندها وطعين

كم فتية زفوا إليها عنوة سقطوا من التعذيب والتوهين
قالوا: محاكمة، فقلت: رواية أعطوا لمخرجها وسام فنون
هي شر مهزلة ومأساة معًا قد أضحكتني مثلما تبكيني
يا سوء حظ فتى رأوا بسجله شرف الجهاد لعصبة الصهيون
أو كان حافظ آل عمرانٍ فقد ظفروا ببرهان عليه مبين
هذي الجرائم عند محكمة الردى هي غرة تزهو بأي جبين
أنا إن نسيت فلست أنسى ليلة في ساحة الحربي ذات شجون
عدنا المساء من المحاكمة التي كانت فصول فكاهة ومجون
ما كاد يعرونا الكرى حتى دعا داعي الردى وكفاك صوت أمين
و إذا بقائدنا المظفر حمزة في عسكر شاكي السلاح حصين
حشد الجنود وصفّها بمهارة وكأنه عمرو بأجنادين
لم يكف حمزة كل ما نؤنا به من فرط إعياء ومن توهين
فأتي يوزع بالمفرق دفعة بالسوط من عشرين للخمسين
كل ينال نصيبه بنزاهة في العد والإتقان والتحسين
يا فارس الوادي وقائد سجنه أبنو الكنانة أم بنو صهيون؟
هلا ذهبت إلى الحدود حميتها وأريتنا أفكار نابليون؟
اذهب لغزة يا همام وأنسنا بجهادك الدامي صلاح الدين
أفعندنا كبش النطاح نعجة في الحرب جماء بغير قرون؟

فانظر إليه متحدثًا عن تفوق مصر في التعذيب، وسبقنا الأمم كلها، وحرص الجلادين على ألا يمل المعذبون، وعن الذي ثبت إجرامه بالدليل القاطع لأنه يحفظ آل عمران، وعن الشاب الذي يزف إلى (العروسة) في السجن، وعن تهجد الجنود الليل كله بالتعذيب، وعن الجلاد حمزة البسيوني الذي يبدو في ترتيب الجنود الجلادين ولا عمرو بأجنادين، وعدالته العظيمة في توزيع السياط على المساجين المعذبين، وتسميته بفارس الوادي، وكبش النطاح، وغير ذلك من التعابير التي أدعها لفطنة القارئ الكريم.

وفي قصيدته غنَّى فأشجى يسخر من المحتل الإنجليزي، فغناؤه غير مشجٍ، ووجوده غير مُرضٍ، وسلوكه غير مقبول، وهو منذ المطلع يسخر يقول:

غنَّى فأشجى السامعين وهاموا ليت المغنِّي نائح لطّام

وفيها أبيات تخاطب الإنجليز ساخرة:

يأيها الأضياف! لا أهلا ولا سهلا، ولا ترحيب لا إكرام

الضيف إن تمرر عليه صبائح يثقلْ، وقد مرت لكم أعوام

غصت مساكننا بجندكمو، كما غصت قطارات وغص ترام

وغذت بطونَكمو غلالُ بلادنا وبنو البلاد من الطوى قد صاموا

وغدت مصانعنا تحوك للبسكم والعري فينا قاعد قوّام

إن القِرى إن لم يكن بسماحة فالسمن سم، والحَمام حِمَام

أصوليون، وسلام السراب:

ومن أشد قصائده سخرية قصيدتاه: أصوليون، وسلام السراب!

وفي الأولى يسخر من أظفار السلطات المستبدة، فالقصيدة كما كتب (أرجوزة على لسان العلمانيين، وأجهزة الاستخبارات)، ويلخص فيها حيثيات الاتهامات، والذرائع التي يتذرع بها أولاء لقطع ألسنة الناس، وهي ذرائع مدهشة، ومحيرة، وغبية؛ إذ لا يمكن أن يدان بها عاقل، لكنها – للأسف الشديد – شائعة واسعة الاستعمال، ولن أتدخل بشيء في قراءتك لهذه القصيدة، فإنها من بساطة اللغة، وعمق السخرية، والقدرة على إبراز التناقض بمكان، فتدرج معه منذ البدء وهو يقول:

بلاغ للسلطات:

أبلغ رجال الأمن حتى يزحفوا فها هنا جماعة تطرفوا
من الأصوليين أعداء الوطن أخطر من جميع عباد الوثن
قد نأمن الهندوس واليهودا وقد نقيم معهم العهودا
إلا أولاء فأذاهم يحذر فهم علينا من يهود أخطر

علائم التطرف والإرهاب:

عرفتهم باللحن والسمات ومجمل الأعمال والصفات
إذا دعا الداعي إلى الصلاة هبوا لها في خفة القطاة
حتى صلاة الفجر بالمساجد والناس بين راقد وراكد
غايتهم بها رئاء الناس فمن يطيق ذا السلوك القاسي
أعفوا لحاهم زعموها سنة يدينهم اتباعها للجنة
ومنهم الحليق كيلا يعرفا للأمن فهو خصمهم مهما صفا
لكنهم مهما اختفوا وضللوا عليهمُ ألف دليل يوصل
أعمالهم تكشفهم وتفضح ما في الوعا على الوعاء ينضح
حياتهم أساسها التزمتُ وفكرهم قوامه التعنت
تشددوا في الدين وهو يسر وكل فرد في السلوك حر

دعواهمُ في نصره عريضة لكن قلوبهم هي المريضة

كم رغبوا في نهجه ورهّبوا تعصبًا وبئس ما تعصبوا

إذا دعوا لحفل لهو راقص أبوا بلا ذوق إباء ناكص

فما لهم في الفن من خلاقِ إذ حرموا الحلو من المذاق

والرقص عندهم حرام منكر كذا قضى الجمود والتحجر

وحرموا ما ساد عرف الناس من عهد شيخنا أبي نواس

المجدد والتجديد الرسمي:

وأنكروا فوائد البنوك كأننا في الزمن المملوكي

ناسين ما حتمه التغير والدين – مثل غيره – يطور

وخالفوا مفتينا الطنطاوي مجدد الزمان في الفتاوي

الشرع في يديه كالعجينة لا كالألي عقولهم سجينة

لم يلتفت للشكل بل للجوهر ولم يضيق مثل شيخ الأزهر

وما علينا من مخالفيه وقوفنا بجنبه يكفيه

وكلما رد عليه العلما زادوه شهرة كنجم السينما

فهو بنا شيخ شيوخ العصر من مثله من نجباء مصر

حظ أهل الحظ:

وشددوا على ذوي المزاج ورفقة الأنس بليل داج

وقاوموا نفوذ أهل الكيف فحق أن يؤدبوا بالسيف

حتى الدخان عندهم ممنوع فما لهم بطيب ولوع

همهم الدعوة والدراسة دوما ومزج الدين بالسياسة

يؤذنون في أماكن العمل من غير خوف أو حياء أو خجل

والناس فيهم تاركو الصلاة فكيف يؤذنون مدى الأوقات

قرائن وأدلة التلبس والإدانة:

بيوتهم تحفل بالدلائل على انتمائهم بدون حائل

ستجد السواك والمصاحفا والكتب فيها تالدًا وطارفا

من البخاري وشرح مسلم إلى ابن تيمية وابن القيم
وأدوات قوة الأبدان بزعم قوة الإيمان
وكم لديهم من كتب مضلة والاعتراف سيد الأدلة
أشد فتكاً من البارود رسائل البناء والمودودي
وكتب القطبين كالظلال والقرضاوي بعدُ والغزالي
ومثلها رسائل ابن باز وعلماء الشام والحجاز
وقد ترى من كتب الغنوشي وتلك كالهيروين والحشيش
كما ترى شعبهم المشاغبة إحدى قواهم في النزال الضاربة
نساؤهم يزهين بالحجاب والبعض يصررن على النقاب
أشكالهن ترعب الصغارا و تقلق اليهود والنصارى
فكيف يخفون على المباحث وكل شيء ظاهر للباحث

وأدلة من التاريخ إضافية:

تاريخهم أسود كالقطران حسبهم الجهاد في الأفغان
كم قاتلوا السوفييت في الجبال ليظهروا في صورة الأبطال
وقبلهم إخوان سوء جاهدوا فوق فلسطين وفيها استشهدوا
وهيؤوا الشباب للقتال وحفّظوهم سورة الأنفال
وشاركوا بالدم في القناة تغطية منهم لفصل آت
فكل فعل منهمو مردود مهما يكن ظاهره المحمود

عملاء للخارج!

واليوم للبوسنة قد تحمسوا كأنهم للمسلمين حرس
وذاك شانهم على الإطلاق إن شيك مسلم بواق الواق
وذاك والله هو الجنون وللجنون عندهم فنون
فهم مع الجهاد في كشمير وفي الفلبين بلا نكير
أما فلسطين فهم رجالها وإن تنادى بالسلام أهلها
قد أيدوا الفتية من حماس دون مبالاة ولا احتراس

وأخرجوا الوفود في المفاوضة ووقفوا في جهة المعارضة
واتهموا مسيرة السلام بأنها ليست سوى استسلام
وأعلنوا الجهاد والكفاحا وما اقتنوا غير الحصى سلاحا
وسحروا بالكلم الشبابا يخيلونها لهم حرابا
وخدروهم بصلاح الدين وإنهم غدًا إلى حطين
وهيجوهم بالفتاوى الصاعقة بطرد إسرائيل تلك السارقة
لا بد من تحرير كل الأرض فرض علينا يا له من فرض
من فرط اليوم ببعض أرضه ضحى غدًا بدينه وعرضه
تلك فتاويهم لتأليب القوى لكي يحاربوا طواحين الهوا
كأنهم إذا سفينا اضطرب أرشدُ من جميع حكام العرب
وهم مع الجياع في الصومال أو المشردين في البنغال

الدين الرسمي الحق:

هذا هو الدين لدى الأصولي من يجفُه يحرم من الوصول
قد عسّروا في شرحه ونفروا والدين قال يسروا وبشروا
ما الدين في الإحراج للحكام أن يطلبوا الحل من الإسلام
ما الدين بالصوم ولا بالصلاة الدين خذ في خفة وهات
الدين أن تبدو ظريفًا مرنا وإن عبدت عنزة أو وثنا
فطهر القلب من التعصب وإن جحدت بالكتاب والنبي
الدين ما يراه حاكم البلد وقوله المفتى به والمعتمد
دع عنك ما يقوله الشيوخ فما لهم في علمهم رسوخ
الصحفيون هم الثقات وثلة الحكم هم الأثبات
لا للغزالي وللشعراوي نعم لسعدة وللعشماوي

الحل والعلاج لمواجهة ذوي اللجاج:

لا بد من حل ومن علاج من غير تطويل ولا لجاج
والحل أن يحاربوا مثل الجرب إن شئت سل بدرًا وسل شيخ العرب

كلاهما أعلن في صراحة وفي صراحة الوزير راحة
ليس لهم عندي من خلاص إلا الكلام من فم الرصاص
لا رفق لا سماح لا هوادة فحقهم منا هو الإبادة
أما انتظار منطق القضاء فشأن أهل العجز لا المضاء
نحن هنا القانون في القانون فتوى الإمام حمزة البسيوني
وليقل القضاء ما يشاء فما قضيناه هو القضاء

كل شيء بالقانوووون!

لكن إذا ما جد فينا الجد ولم يكن من القضاء بد
فحصننا الفذ القضاء العسكري قضاؤنا المعروف غير المنكر
فكم لدينا فيه من عباقرة إن كان في بغداد أم في القاهرة
محاكمي عودة والهضيبي وقطب المفكر الأديب
من ذا الذي ينسى جمال سالم قاضي القضاة العبقري العالم
من أقرأ القرآن بالمقلوب وكشف النيات في القلوب
وكم لدينا بعده من نابغة فنعم الله علينا سابغة
من يعلم الجاني بلا مكالمة ويعرف الحكم بلا محاكمة
أحكامه لديه قبل بينة وما له من حاجة لبينة
شعاره السخاء بالأحكام لا سيما ما كان بالإعدام

المساواة في الظلم عدل:

واحذر من التمييز والتصنيف ما بين داعي الرفق والعنيف
فكل هؤلاء في الهوى سوا من لم يمارس عنفه فقد نوى
لكن أهل الاعتدال أخطر لأنهم على الطريق أصبر
هم يربحون جولة فجولة وبعد ذاك يبلعون الدولة
يستخدمون العلم والحاسوبا سل سلسبيل تعرف المطلوبا
وطوروا الخطاب للصغار باللحن والنشيد والحوار

فاعجب لقوم طاردوا الأصولي وكرموا المنافق الوصولي

فقل على داركم العفاء إن لم تدارك أرضها السماء

وهكذا تبرع السخرية السوداء التي يسوقها القرضاوي في الفضح والمواجهة، وإبراز غباء الظلم والاستبداد الذي لا يحترم قانونًا ولا رأيًا ولا فكرًا، ولا يستطيع – حتى أن يستر عورته – أو يقنع أحدًا بأنه على حق أو صواب، ويكشف شيوخ السلاطين، وأساليب المخبرين، وحجج المبطلين، حتى تحولت القصيدة إلى بلاغ للرأي العام العالمي يفضح غياب العدل والقانون، ووثيقة تاريخية ربما يأتي من يقرؤها قراءة منصفة، ليبرئ ساحة المسلمين من الإرهاب والعنف، ويكشف حقائق القمع وطبائع الاستبداد.

سخرية وجيعة من سلام أوسلو:

في 13 سبتمبر من عام 1993 عقدت اتفاقية أوسلو بين الصهاينة ومنظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن، برعاية الولايات الأمريكية المتحدة، لتمكين الصهاينة من عنق الفلسطينيين أكثر وأكثر، بمعاونة بعض الذيول من الداخل، بعد إعطائهم سلطة وهمية، توسع في الواقع من حركة الدولة العبرية ومناوراتها!

وعنه هذه الاتفاقية تأتي قصيدة القرضاوي (سلام السراب) أو (سراب السلام) دفقة أخرى ساحرة سخرية سوداء مريرة، يشرح فيها وجهة نظره بعد أوسلو، وكسْب الصهاينة جولة جديدة تنتهي – وفق مخططاتهم لا قدر الله – باستسلام الأمة بالكامل، والاستيلاء على الأقصى، وإقامة الهيكل على أنقاضه:

علام الفرح؟!

على العينين والرأس سلام الحبر والطرس

سلام الضجة الكبرى كأن القوم في عرس

وقالوا صفقة للسلم نطرحها بلا بخس

مقايضة عجبت لها بسوق الغبن والمكس

سلام يُشترى بالأرض لا بالسنت ولا البنس

ولا حق له في الأرض من خمس ولا سدس
ويقبض سلمه ثمنًا ليحيا سالم الرأس

من نحس إلى نحس!

سلام من بني صهيون عفوا يا بني جنسي!
أيرجى السلم من ذئب أيرجى الدَّر من تيس
وقالوا أبشروا بالسلم يا عرب امرئ القيس
بدت في الأفق طلعة شمسه صفراء كالورس
تولى عهد شامير شبيه الأسود العنسي
وأقبل بعد رابين أخو عنترة العبسي
ورابين كشامير فمن نحس إلى نحس
فلا أسوأ من هذا سوى هذا وبالعكس
أفاعٍ كلها سم وإن نعمت لدى اللمس

من هذا الأبله!؟

فيا عجباً لمن يجري وراء سرابه النفسي
يظن له به ريًّا ويرجع فارغ الكأس
يفرط في دم الشهدا ء يا للعار والبؤس
يبيع الأرض والتاريخ بالأرخص من فلس
بحكم في حمى صهيون يا للثمن البخس
فلا دولته قامت ولا أبقى على النفس

جهاد ثم إضاعة!

وضاع جهاد قرن كامل دفنوه في الرمس
جهود كلها ذهبت "كأن لم تغن بالأمس"!
فما معنى فلسطين بلا أقصى ولا قدس؟!
فلسطين بلا قدس كجثمان بلا رأس!

وحسبي هذه الإضاءة التنويرية للجانب الساخر في شعر القرضاوي.

الشيخ حفظه الله بعد أن حضر مسرحيتي: الأعظم على مسرح قطر الوطني

أغراض شعر القرضاوي:

أقنعة عدة وغرض واحد:

اختار القرضاوي غرضًا واحدًا رئيسًا، جعله قضيته المطلقة، وإن ألبسه أقنعة مختلفة، هو الدفاع عن الإسلام..

فقد كتب عن القرآن، وفي المناسبات الإسلامية، والمناجاة، والتأمل، والوطنيات، وكتب في الشخصيات التي تأثر بها، وفي الجهاد ضد الروس، وضد اليهود، وضد الطغيان، وضد التعذيب، وبشر بفكر الإخوان، وبما يسميه الوسطية، وسخِر، ومزح، وبكى وأبكى، وشكا، وأشكى، وتأمل وتفلسف...

لكن ذلك كله كان في النهاية يدور في فلك واحد، هو خدمة قضيته الكبرى: الإسلام، والحق، والحرية، ومواجهة البغي بصوره كلها..

وهو ليس بدعًا من الشعراء حين ينحو هذا المنحى، فثم شعراء كثر، قصروا إبداعهم على غرض واحد لم يعدوه:

أوَلا نذكر هنا الشاعر الضخم نزار قباني، الذي وقف شعره كله – تقريبًا – على المرأة من وجهة نظره، حتى لا يكاد الدارس أن يجد له إلا شوارد وطنية، لا تعد شيئًا في جملة شعره النسائي المستبيح؟

ألا يذكرنا بأحمد مطر، الشاعر الشيعي الشهير، الذي وقف شعره على الهجاء السياسي، فلا يُعرف إلا به، والذي يعري المخبرين والدكتاتوريين، ويرفض عسكرة المجتمعات، وتحويلها إلى (قشلاق) بحجم الوطن!؟

أليس الشعراء الإسلاميون – في الجملة – مركِّزين على هذا القصد؟

ألا يراوح في مداره الشعراء إبراهيم عزت، وعبد الحكيم عابدين، وجمال فوزي، وسيد قطب، والأميري، والصديق، والعشماوي، والأمراني، والنحوي، والتهامي، وأمينة المريني، وغيرهم؟!

ألم يركزوا جميعًا على غرض واحد هو نصرة الإسلام وإن تعددت أشكال النصرة هذه؟

خصيصة تتجلى في ذكرى المولد:

لكن اللافت للنظر في شعر القرضاوي أنه يبدأ في موضوع محدد يسمي به القصيدة، كليلة القدر أو المولد، فلا يكاد يمسه إلا مسًّا رقيقًا، ثم تراه يقفز إلى هموم الأمة الكبرى، وجراحات الإسلام، ومواجع المسلمين..

وهذه القصيدة (في ذكرى المولد النبوي الشريف): مثال على ذلك جلي، فتأمل معي، كيف يبدأ، وكيف ينتقل، وكيف ينتهي:

اعتاد المصريون الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في شهر ربيع الأول، وأراد الإخوان أن يقيموا حفلاً كبيرًا بميدان السيدة أيضًا، يتحدث فيه خطباؤهم وشعراؤهم، وقد طلبوا من الشيخ – كما حدثنا في مذكراته – إنشاء قصيدة بهذه المناسبة.

فهي إذن محددة المناسبة، تقليدية الموضوع، فكيف تعامل الشيخ معها؟

إنه لم يكد – في ستة وستين بيتًا – يتحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وشرفه ومنزلته، حتى انطلق يتحدث عن الجيل وأحواله، مسقطًا على الواقع، لافتًا النظر إلى التشابه الشديد بين الحالين: حال المسلمين آنئذٍ، وحال العالم الإسلامي في خمسينيات القرن الفائت، ويقارن بين الروم والفرس، والروس والأمريكان، والتظالم والتغابن اللذين سادا آنذاك وآنئذٍ، وإن ألمّ أحيانًا بصاحب المناسبة صلى الله عليه وسلم، فاقرأ معي وتأمل:

هو الرسول فكن في الشعر حسانا	وصغ من القلب في ذكراه ألحانا
ذكرى النبي الذي أحيا الهدى وكسا	بالعلم والنور شعبًا كان عريانا

حال العالم زمن النبي صلى الله عليه وسلم:

أطلَّ فجر هداه والدجى عممٌ	بات الأنام.. وظلوا فيه عميانا

هذا يصور تمثالاً ويعبده	وذاك يعبد أحبارًا وكهَّانا
الكون بحرٌ عميقٌ لا منار به	لم يدرِ فيه بنو الإنسان شطآنا
ويل الصغير وقد صار الورى سمكًا	يسطو الكبير عليه غير خشيانا
فدولة الروم حوتٌ فاغرٌ فمه	يطغى على تلكُم الأسماك طغيانا
ودولة الفرس حوتٌ مثله كشرت	أنيابه للورى بغيًا وعدوانا
وحشيةٌ عمَّت الدنيا أظافرها	جهالةٌ أصلت الأكوان نيرانا!
الليل طال ألا فجر يبدده؟!	ربَّاه أرسل لنا فلكًا وربانا!

البعثة الشريفة:

هناك لاح سنا المختار مؤتلقًا	يهدي إلى الله أعجامًا وعربانا
يتلو كتاب هدًى كان الإخاء له	بدءًا وكان له التوحيد عنوانا
لا كبر؛ فالناس إخوان سواسية	لا ذلَّ إلا لمن سوَّاك إنسانا
يقود دعوته في اليمِّ باخرةٌ	تقل مَن أمَّها شيبًا وشبانا
السلم رايتها.. والله غايتها	لم تبغ إلا هدًى منه ورضوانا
جرت بركبانها .. لا الريح زلزلها	ولا يد الموج مهما ثار بركانا
وكم أراد العِدا إضلالها عبثًا	وحاولت خرقها بالعنف أزمانا
واهًا! أتُخرق والرحمن صانعها؟	والله حارسها من كل من خانا؟
أم هل تضل سفين (بيت إبرته)	وحي من الله يهدي كل حيرانا
أم كيف لا تصل الشطآن باخرةٌ	ربانها خير خلق الله إنسانا؟

عالم الخمسينيات:

تلك الرواية والَهْفِي ممثلةٌ	في العالم اليوم.. في بلدانه الآنا
إن يختلف الاسم فالموضوع متَّحِدٌ	مهما تلوَّنت الأشخاص ألوانا
فالناس قد تخذوا الأهواء آلهةً	إن كان قد تخذ الماضون أوثانا
الشعب يعبد قوادًا تضلله	كما يضلل ذو الإفلاس صبيانا
والحاكمون غدا الكرسيُّ ربهمُ	يقدمون له الأوطان قربانا
إن ماتت الفرس فالروسيا تمثلها	أما ستالين فهو اليوم كِسرانا
وإن تزل دولة الرومان فالتمسوا	في الإنجليز وفي الأمريك رومانا
وإن يمت قيصر فانظر لصورته	في شخص آتلي ومولاه ترومانا
سياسة الكل أن يبقى الورى سمكًا	وأن يكونوا همُ في البحر حيتانا

الصحابة:

يا خير من ربت الأبطال بعثته	ومن بنى بهم للحق أركانا
خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم	تضوع بين الورى رَوحًا وريحانا
كانت فتوحهمُ برًّا ومرحمة	كانت سياستهم عدلاً وإحسانا
لم يعرفوا الدين أورادًا ومسبحةً	بل أشربوا الدين محرابًا وميدانا

الدين والسياسة:

فقل لمن ظن أن الدين منفصل	عن السياسة : خذ يا غرُّ برهانا

هل كان أحمد يومًا حلس صومعة	أو كان أصحابه في الدير رهبانا؟
هل كان غير كتاب الله مرجعهم	أو كان غير رسول الله سلطانا؟
لا، بل مضى الدين دستورًا لدولتهم	وأصبح الدين للأشخاص ميزانا
يرضى النبي أبا بكر لدينهمُ	فيعلن الجمع : نرضاه لدنيانا

الصحابة والأئمة/ الإخوان:

يا سيد الرسل طب نفسًا بطائفة	باعوا إلى الله أرواحًا وأبدانا
قادوا السفين فما ضلوا ولا وقفوا	وكيف لا وقد اختاروك ربَّانا؟
أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم	والناس تزعم نصر الدين مجانا
أعطوا ضريبتهم صبرًا على محن	صاغت بلالاً وعمارًا وسلمانا
عاشوا على الحب أفواهًا وأفئدةً	باتوا على البؤس والنعماء إخوانا
الله يعرفهم أنصار دعوته	والناس تعرفهم للخير أعوانا
والليل يعرفهم عُبَّاد هجعته	والحرب تعرفهم في الروع فرسانا
دستورهم لا فرنسا قننته ولا	روما، ولكن قد اختاروه قرآنا
زعيمهم خير خلق الله لا بشر	إن يهد حينًا يضل القصد أحيانا!
(الله أكبر) ما زالت هتافهمُ	لا يسقطون ولا يحيون إنسانا

أحزاب العمالة والتضليل:

نشكو إلى الله أحزابًا مضللةً	كم أوسعونا إشاعات وبهتانا
ما زال فينا ألوف من أبي لهب	يؤذون أهل الهدى بغيًا ونكرانا

ما زال لابن سلول شيعةٌ كثروا	أضحى النفاق لهم وَسْمًا وعنوانا
يا رب إنا ظُلمنا فانتصر، وأنر	طريقنا، واحبنا بالحق سلطانا

الحكومات:

نشكو إليك حكومات تكيد لنا	كيدًا وتفتح للسكسون أحضانا
تبيح للهو حانات وأندية	تؤوي ذوي العهر شُرَّابًا ومُجَّانا
فما لدور الهدى تبقى مُغلَّقةً؟	يمسي فتاها غريب الدار حيرانا
يا رب نصرك، فالطاغوت أشعلها	حربًا على الدين إلحادًا وكفرانا

الإخوان والمنفى:

يا قوم قد أيد التاريخ حجتنا	وحصحص الحق للمستبصر الآنا
إنا أقمنا على إخلاص دعوتنا	وصدقها ألف برهان وبرهانا
لقد نفونا فقلنا : الماء أين جرى	يحيي المَوات ويروي كل ظمآنا
قالوا إلى السجن قلنا شعبةٌ فُتِحت	ليجمعونا بها في الله إخوانا
قالوا :إلى الطور، قلنا :ذاك مؤتمرٌ	فيه نقرِّر ما يخشاه أعدانا!
فهو المصلَّى نزكِّي فيه أنفسنا	وهو المصيف نقوي فيه أبدانا
معسكر صاغنا جندًا لمعركة	ومعهد زادنا للحق تبيانا
من حرَّموا الجمع منا فوقَ أربعةٍ	ضموا الألوف بغاب الطور أُسدانا!
راموه منفىً وتضييقًا، فكان لنا	بنعمة الحب والإيمان بستانا!
هذا هو الطور شاؤوا أن نذوب به	وشاء ربك أن نزداد إيمانا

مناجاة في ليلة القدر:

ومن قصائد المناسبات التي كتبها الشيخ في صدر حياته قصيدته في ليلة القدر وعددها ثمانية وعشرون بيتًا، ويكرر فيها المنهج نفسه، فهو يتحدث – عابرًا – عن ليلة القدر، ليقفز إلى رجال النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، وحال الناس، ثم الصحوة وما تعانيه، ولغة القمع والمصادرة والانتهاك التي تمارس ضدها، فانظر في هذا التقسيم:

ليلة القدر:	
عشقتها فاسترقت قلبي العاني	فقمت أعزف فيها عذب ألحاني
سموه شعرًا وإني لا أراه سوى	آهات قلبي وإحساسات وجداني
يا ليلة زانها ربي وشرفها	تنزيله في دجاها نور قرآن
رجال حول المصطفى صلى الله عليه وسلم:	
دستور حق وتشريع وتربية	يبقى وإن زال هذا العالم الفاني
ربى رجالاً مغاوير اهتدوا وغزوا	إن الرجولة من نور ونيران
أمسى بلال به من ذلةٍ ملكا	وصار سلمان شيئًا غير سلمان
لله فتيان حق لو رأيت فتى	منهم ترى ملكًا في زي إنسان
فمن يداني أبا حفص وصاحبه	ومن يداني عليًّا وابن عفان
المصحف وظالموه:	
هذا الكتاب غدا في الشرق وأسفا	شمسًا تضيء.. ولكن بين عميان
يحاط بالطفل حرزًا من أذىً وردًى	وفيه حرز الورى من كل خسران
يتلى على ميت في جوف مقبرة	وليس يحكم في حي بديوان
فكيف نرقى ومعراج الرقي لنا	أمسى يجر عليه ذيل نيان
نقلة إلى السياسة والواقع الأليم:	
يا ليلة السلم والإسلام معذرة	السلم في مصر والإسلام لفظان
أين السلام أروني؟ أين موضعه؟	قد ضاع ضيعة يتم بين خُوّان

أين الدساتير؟ فانظرها معلقة	مثل التمائم في أحضان صبيان
أين الحقوق ولم نلمح لها صورًا	إلا سياطًا كأذنابٍ لثيران؟
الإخوان المسلمون:	
نحن النجوم تزين الكون طلعتنا	ويهتدي بسنانا كل حيران
نحن النجوم فلا تعجب إذا انطلقت	منا رجوم أخافت كل شيطان
قالوا اسجنوا واغمروا الأقسام واعتقلوا	فجمعونا على حب وإيمان
وصادروا مالنا من جهلهم ونسوا	أن يحجروا رزق رزاقٍ ورحمن
وأسرفوا وعلوا في الأرض واضطهدوا	وعُكِّر النيل من هامانه الثاني
وعذبوا كي يذلوا أنفسًا طمحت	وعزت النفس أن تعنو لسلطان
والليث لن تحني الأقفاص هامته	وإن تحكم فيه ألف سجان
مناجاة لدفع الطواغيت، ورفع الكرب:	
يا رب إن الطغاة استكبروا وبغوا	بغي الذئاب على قطعان حملان
يا رب كم يوسف فينا نقي يد	دانوه بالسجن والقاضي هو الجاني
يا رب كم من صبي صفدوا فمضى	يبكي كضفدعة في ناب ثعبان
يا رب كم أسرة باتت مشردة	تشكو تجبر فرعون وهامان
يا رب رحماك أنجز ما وعدت به	وانصر فنصرك من أهل الهدى دان

وهكذا نجد أن الشيخ لم يتكلم عن ليلة القدر إلا في ثلاثة أبيات أو أربعة – من ثمانية وعشرين بيتًا – في حين تدفق في ستة أسباع القصيدة، متحدثًا عن الطغيان والبغي والتعذيب، وفرعون وهامان، وصمود الأبرار، وعن السلام التافه، والدساتير الشكلية، والصحابة والقرآن...

إلى آخر هذه المعاني التي تناسب تمامًا حرقته على الإسلام، وعدم تقيده بشكل الاحتفال وموضوعه المباشر!

حلقات الولاء عند القرضاوي:

ونلمح أن الولاء عند القرضاوي يشكل حلقات أو دوائر، تبدأ أضيقها من صفط تراب، وتتسع نحو مصر، ثم إلى الأمة الإسلامية والناس أجمعين..

فللدائرة الأولى كتب قصيدته المبكرة (بعبد الله أشرقت الروابي) ومنها:

دعوتم مصر بالحسنى فلبّت	نداء الله، لا بشبا الحراب
بسيف الحب والعدل انتصرتم	وليس ببطش ذي ظفر وناب
وأمست مصر للإسلام حصنًا	ودرعًا للسان وللكتاب
وأنقذتم من الرومان شعبا	غدا لهمو كأبقار الحِلاب
وأسلم أهل صفط على يديكم	ودانَوْكم بصهر واقتراب
وعشت بها، ومت بها، هنيئًا	لَها بك من جوار مستطاب
وحق لصفطنا بك أن تسمى	بصفط التبر لا صفط التراب

كما كتب نثرًا كثيرًا في مذكراته عن صفط تراب وأهلها، معبرًا عن حبه له.

وفي الدائرة الثانية نثر في أثناء قصائده الكثير عن حبه لمصر، واعتزازه بالانتماء إليها، وعصبيته لها:

وجئت لمصر تحمل خير دين	مع ابن العاص في شرخ الشباب
ورحب شعب مصر بكم، وأصغى	لدعوتكم، وفتَّح كل باب
دعوتم مصر بالحسنى فلبّت	نداء الله، لا بشبا الحراب
بسيف الحب والعدل انتصرتم	وليس ببطش ذي ظفر وناب
وأمست مصر للإسلام حصنًا	ودرعًا للسان وللكتاب
وأنقذتم من الرومان شعبا	غدا لهمُ كأبقار الحِلاب

ويرفض أن تكون مصر محتلة، نهيبة بيد أعدائها، فيخاطب الإنجليز المحتلين منددًا:

يأيها الأضياف! لا أهلاً ولا	سهلاً، ولا ترحيب لا إكرامُ
الضيف إن تمرر عليه صبائح	يثقلْ، وقد مرت لكم أعوام
غصت مساكننا بجندكمُ، كما	غصت قطارات وغص ترام
وغذت بطونَكمُ غلال بلادنا	وبنو البلاد من الطوى قد صاموا
وغدت مصانعنا تحوك للبسكم	والعري فينا قاعد قوّام
إن القِرى إن لم يكن بسماحة	فالسمن سم، والحَمام حِمَام

ولا يبكي على مصر فقط بسبب ظلم المحتل، بل – كذلك – بظلم بعض أبنائها العققة، الذين حولوها لمعتقل كبير، وجحيم لا كرامة فيه لحر ولا شريف:

صوّرت فيها ما استطعت بريشتي	وتركت للأيام ما يعييني
ما همت فيها بالخيال، فإن لي	بغرائب الأحداث ما يغنيني
أحداث عهد عصابة حكموا بني	مصرٍ، بلا خلق ولا قانون
أنست مظالمهم مظالم من خلَوْا	حتى ترحمنا على نيرون!

ثم ينتقل إلى الحلقة الأوسع والأشمل والأهم وهي الأمة كله، فيشخص أمراضها، وينفخ في عزمتها، ويهيب بها أن تنهض من رقدتها القتالة..

ومن أهم ما كتب في هذا المعنى نشيد مسلمون – من أوائل ما كتب – ويا أمتي وجب الكفاح، من أواخر ما أنتج، وبينهما كثير.

فهو – في نشيده: مسلمون – يخاطب المسلمين في كل مكان، حتى غني النشيد حيث لا يتوقع..

يا أخي في الهند أو في المغرب أنا منك أنت مني أنت بي
لا تسل عن عنصري عن نسبي إنه الإسلام أمي وأبي

إخوة نحن به مؤتلفون

يا أخا الإسلام في كل مكان قم نفك القيد قد آن الأوان

واصعد الربوة واهتف بالأذان وارفع المصحف دستور الزمان

واملأ الآفاق :إنا مسلمون

يا أمتي وجب الكفاح:

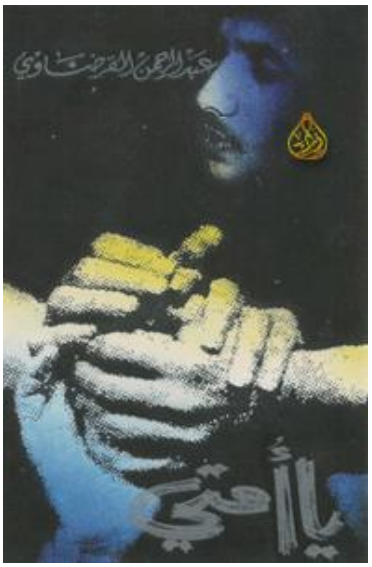

وفي: يا أمتي وجب الكفاح – وهي من أروع ما كتب الشيخ، ومن أبدع ما أُنشد – في إطار النشيد الإسلامي، في العشرين سنة الأخيرة – يخاطب الأمة الكبرى.. أمة الإسلام الثخينة، رافضًا حالها المتردي، فيهيب بها أن تترك لغة الشجب والادعاء، بعد أن ارتفعت لغة أخرى لا يصلح معها الصياح والتشدق! ويطالبها بأن تثب من كبوتها، وتنهض من عثرتها!

ولقد كنت محظوظًا حين قرأتها مخطوطة بيد الشيخ قبل أن يقرأها أحد، أثناء عملي بمجلة الأمة نحو عام 1986 وتفاعلت معها قبل أن يتفاعل معها أحد غير الشاعر نفسه!

يقول هو عن القصيدة (حركت الأحداث خواطري، وأنا على فراش المرض، أسمع وأرى وأقرأ ما يجرى على الساحة في ديارنا: صليبيون ولا صلاح الدين، وتتار ولا قطز، ومرتدون ولا أبا بكر،، فكانت من هذه المشاعر والخواطر هذه القصيدة):

يا أمتي وجب الكفاح فدعي التشدق والصياح

ودعي التقاعس ليس ينصر من تقاعس واستراح

ودعي الرياء فقد تكلمت المذابح والجراح

كذب الدعاة إلى السلا م فلا سلام ولا سماح

ما عاد يجدينا البكا ء على الطلول ولا النواح

لغة الكلام تعطلت إلا التكلم بالرماح
إنّا نتوق لألسنٍ بكم على أيد فصاح

وينبه الأمة إلى لزوم الانتباه للعبة المصطلحات والتزييف المدروس الذي يغرر بعقلها، ليورطها فيما لا تحب:

يا قوم.. إن الأمر جدٌّ قد مضى زمن المزاح
سموا الحقائق باسمها فالقوم أمرهمُ صراح
سقط القناع عن الوجوه وفعلهم بالسر.. باح

ويحذر من حرب صليبية جديدة تريد أن تقضي على الأمة وتستأصل شأفتها، بشكل لا موارية فيه ولا استخفاء؛ يقودها الغرب بعنجهيته واستكباره، يعاونه منافقو الأمة، الذين مارسوا خيانتها عبر تاريخها:

عاد الصليبيون ثانيــةً وجالوا في البطاح
عاثوا فساداً في الديــار كأنها كلأ مباح
عادوا يريقون الدماء، ولا حياء من افتضاح
والباطنية مثلوا الد ور المقرر في نجاح
دور الخيانة وهو معلـوم الختام والافتتاح

ويتحدث عن فظائع الاحتلال، وما يمارس في أفغانستان، وفلسطين، وبقاع أخرى من جسد الأمة، من مذابح وتقتيل لا إنسانية فيه، بل ينضح بالحقد، ويفضح طباع الضباع التي تعبث بالضحية وتمزقها في خسة، في ظل غياب قائد كالصديق، أو صلاح الدين، أو المعتصم، أو سيف الدين قطز؛ رحمهم الله تعالى، وتحت حماية صمت دولي فاضح، سماه مظفر النواب في قصيدته النواحية عن القدس: (تَعريص الطرق السلمية)!

عادوا وما في الشرق نور الدين يحكم أو صلاح
كنا نسينا ما مضى لكنهم نكؤوا الجراح
لم يخجلوا من ذبح شيخ لو مشى في الريح طاح
أو صبية كالزهر لم ينبت لهم ريش الجناح

لم يشف حقدهمُ دم سفحوه في صلف وقاح
عبثوا بأجساد الضحايا في انتشاء وانشراح
وعدَوا على الأعراض لم يخشوا قصاصًا أو جُناح
ما ثم (معتصم) يغيث من استغاث به وصاح

ثم يقدم بعض البراهين لمن لا يبصرون الحقائق:

أرأيت كيف يكاد للإسلام في وضح الصباح؟
أرأيت أرض الأنبياء وما تعاني من جراح؟
أرأيت كيف بغى اليهود وكيف أحسنا الصياح؟
غصبوا فلسطينًا، وقالوا: ما لنا عنها براح
لم يعبؤوا بقرار (أمن) دانهم أو باقتراح
عاد التتار يقودهم جنكيز ذو الوجه الوقاح
عادت جيوشهمُ تهدد بالخراب والاجتياح
عادوا ولا (قطزٌ) ينادي المسلمين إلى الكفاح
لولا صلابة فتيةٍ.. غرٍّ.. بدينهمُ شحاح
بذلوا الدماء وما على من يبذل الدم من جناح

ثم يرصد أسباب الهزيمة، ومبررات استخذاء الأمة واستسلامها لعدوها، وكيف اشترت بأموالها، واستدعت بإرادتها أسباب هلاكها، وكيف يقودها الفسوق والنفاق والكذب والفساد والعمالة:

عاد المروق مجاهرًا ما عاد يخشى الافتضاح
نفقت هنا سوق النفاق تروِّج الزور الصراح
فيها يباع الفسق تحت اسم الفنون والانفتاح
وترى الفساد يصول جهرًا في الغدو وفي الرواح
من كل أكذب من مسيلمةٍ وأفجرَ من سجاح
وجد الحصون بغير حراس لها، فغدا وراح
ومضى يعربد لا يبالي في حمانا المستباح

وتعالت الأصوات تدعو للفجور وللسفاح
مسعورة إن رحت تزجرها تمادت في النباح
ما من (أبي بكر) يؤدبهم ويكبح من جماح
ويعيدهم لحظيرة الإيمان قد خفضوا الجناح

ويرسل نصيحة النذير العريان للأمة: فيطالبها بالاتحاد، وجمع الشمل، ونبذ الفرق: لمواجهة اتحاد الآخرين، ويحذر من حالة الغثائية التي تعيشها الأمة، ويطالبها ألا تغش نفسها، بل أن تستعين بالرجال الحقيقيين، الذين يمكنهم أن يقودوا سفينتها، في البحر المضطرم اللجي، حتى يرسوها على بر الإيمان الآمن المسعد:

يا أمة الاسلام هبوا واعملوا، فالوقت راح
الكفر جمع شمله فلم النزاع والانتطاح؟
فتجمعوا وتجهزوا بالمستطاع وبالمتاح
يا ألف مليون وأين همُ إذا دعت الجراح؟
هاتوا من المليار مليونًا صحاحًا من صحاح

مواصفات جيل التغيير:

ويضع الشيخ مواصفات واضحة لجيل التغيير الذي يمكنه أن يحول حال الأمة، وينقلها من التخاذل والانكسار، إلى العزة والتمكين، على ألا يكون هؤلاء المغيرون من أهل النفاق ولا الفسق ولا المروق، ولا التواطئ مع أعداء الأمة، بل يريد:

من كل ألف واحدًا.. أغزو بهم في كل ساح
من كل صافي الروح يوشك أن يطير بلا جناح
ممن يخف إلى صلاة الليل باديَ الارتياح
ممن يعف عن الحرام، وليس يسرف في المباح
ممن زكا بالصالحات، وذكره كالمسك فاح
ممن يهيم بجنة الفردوس لا الغيد الملاح
من همه نصح العباد.. وليس يأبى الانتصاح
يرجو رضا مولاه، لم يعبأ بمن عنه أشاح

مرٌّ على أعدائه.. ولقومه ماء قراح

إن ضاقت الدنيا به وسعته (سورة الانشراح)

هؤلاء هم الرجال حقًّا.. لا الذين قارن بهم – في الأبيات التالية – ممن أردَوا الأمة، وقتلوا حاضرها ومستقبلها!

ولا يكتفي الشيخ بذلك بل يدل الأمة على السبيل القويم لصنع هؤلاء الرجال الذين يمكن أن يقودوها، فليسوا هم رواد البارات، ولا محترفي المزيدات، ولا الراقصين على الحبال، أو المزايدين بالشعارات!

لا بد من صنع الرجال، ومثله صنع السلاح

وصناعة الأبطال علم في التراث له اتضاح

لا يصنع الأبطال إلا في مساجدنا الفساح

في روضة القرآن في ظل الأحاديث الصحاح

في صحبة الأبرار ممن في رحاب الله ساح

من يرشدون بحالهم قبل الأقاويل الفصاح

وغراسهم بالحق موصول، فلا يمحوه ماح

هؤلاء أو لا:

من لم يعش لله عاش وقلبه ظمآن ضاح

يحيا سجين الطين، لم يطلق له يومًا سراح

ويدور حول هواه يلهث ما استراح ولا أراح

لا يستوي في منطق الإيمان سكران وصاح

من همه التقوى وآخر همه كأس وراح

شعب بغير عقيدة ورق تذريه الرياح

من خان حي على الصلاة يخون حي على الكفاح

ولا ينسى القرضاوي – كعادته – أن يبث في الأمة الأمل، ويبشرها بالفجر القادم الوشيك، فهو لا يقنط، ولا يقنِّط، بل يثق في نصر الله وعونه:

يا أمتى، صبرًا، فليلك كاد يسفر عن صباح

لا بد للكابوس أن ينزاح عنا أو يزاح

والليل إن تشتد ظلمته نقول: الفجر لاح

امتزاج الداعية بالشاعر في الخطاب:

ولا يستطيع القرضاوي أن ينفك عن دور الداعية، فكثيرًا ما يمتزج في أدائه الداعية بالشاعر، بالفقيه، باللغوي؛ في مزيج يتورط فيه العلماء الشعراء في كثير من الأحيان، فهو يخاطب ابن الإسلام/ وابنة الإسلام/ والأمة/ وجيل الصحوة/ والباحثين عن السعادة، وغيرهم، في خطاب دعوي مباشر، ربما يسطو على رونق الشعر، ويطغى على جماله وألقه.

ولعل باعث هذا أن القرضاوي يرى أن رسالته أوسع من أن تنحصر في أسلوب واحد: شعر أو نثر/ دعوة مكتوبة أو إلكترونية/ مواجهة للجمهور أم خطاب من بعيد/ أمسية شعرية أم محاضرة أو مناظرة/ لقاء أكاديمي نخبوي أو جمع شعبي..

فإنها كلها عنده دعوة، وإن اتخذت أحيانًا شكل الشعر:

فانظر إليه محدثًا ابن الإسلام حديث أب وداعية ومرب موجه:

يا مسلمًا بعرى إسلامه ارتبطا	هلا وفيت بما مولاك قد شرطا؟
أبِالمعاصي ترى الفردوس دانية	من يزرع الشوك لم يحصد به الحنطا
أم تشتري الخلد بالمغشوش من عمل	وسلعة الله لا تشرى بما خلطا
وتخطب الحور لم تهد الصداق لها	ولم تقدم لها عقدًا ولا قُرُطا
أم تنشد النصر لم تدفع له ثمنًا	ولم تُعد له الأسباب والخططا

ثم يقدم لابن الإسلام بعض حقائق الحياة وسنن الله تبارك وتعالى، حتى لا يظن أن النصر يأتي للقاعدين المقصرين، ويجيب عن بعض تساؤلاته التي قد تمر بباله:

للنصر قانونه والله فصّله	لا تحسب النصر يأتي الناس مُعتبطا
من ينصر الله ينصره فلا أمل	في النصر إلا لمن وفّى بما اشترطا
تقول ما لبني الإسلام قد هزموا	ولم يسيروا إلى العلياء غير خُطا؟
كأنما تجعل الإسلام متهمًا	والحق أبلجُ لا يحتاج كشف غطا

ويوضح دون تردد أن اللوم يقع على الأمة لا على غيرها، وأن التفريط الذي وقع منا هو الذي انتهى بنا هذه النهاية:

الذنب ذنب بني الإسلام؛ مذ بعدوا	عن منهج الله أضحى أمرهم فرطا
قد خاصموا الله؛ إذ خانوا شريعته	وقل إنتاجهم إذ أكثروا اللَّغَطا
تفرقوا شيعًا شتى وأنظمة	إذ لم يعد حبلهم بالله مرتبطا
عقد الخلافة قبلاً كان ينظمهم	واليوم عقدهمُ قد بات منفرطا
واستوردوا من ديار الغرب فلسفة	أشقت بنيه وحلّت كل ما ربطا

وينعي على دعاة التجديد، والمستغربين الذين يأخذون الغرب – بخيره وشره، حلوه ومره – ولا يبقون على شيء من الثوابت التي يستحيل أن تتغير؛ حتى لو أرادوا ذلك، ويرى أن من العمى أن نأخذ الهداية من عميان، وأن نتسول الخير من المعدمين:

يا ناشدًا للهدى في الغرب معذرة	إن الهدى حيث وحي الله قد هبطا
لم التسول والإسلام ثروتنا	يغنيك عن مد كف أو سؤال عطا؟
ونهجه بيِّن كالصبح لا غبش	أقام فوق الحروف الشكل والنقطا
قالوا: قديم فقلنا الشمس قد قدمت	فغيروها بأخرى أيها البسطا
وغيروا الكعبة البيت العتيق فلم	تعد ملائمة شكلاً ولا نمطا
نِعم القديم قديم يستضاء به	بئس الجديد إذا ما ورّث السقطا

هذا هو الغرب:

قل للذي سار خلف الغرب إمعة	يَقْفو خطاهم صوابًا كان أم غلطا
الغرب أعلن عزل الله من زمن	عن ملكه ومضى لا دين.. لا رُبُطا
وبات معبوده مالاً يصول به	في الخمر والجنس والآثام مختبطا
مات الملايين جوعًا في مشارقنا	والغرب يغذو الكلاب اللحم والقططا
والغرب في شرقنا ذكراه مظلمة	من يغرس الظلم يجن البغض والسخطا

عمى البصيرة يحرم الغرب من تمام الخير:

بالعلم رد لذي الأسقام عافية	فقام يحيا سعيدًا بعدما قنطا
لكنه عاش دون الله فافتقدت	حياته الطهر مهما ازدان وامتشطا
من ارتقى ذروة (التكنيك) مقتدرًا	بالعلم في عالم الأخلاق قد هبطا

فاعجب له صاعدًا يغزو الفضاء به	وأْسَف له هابطًا في الطين قد سقطا
رأى الحياة بلا معنى ولا هدف	فغاص في وحل اللذات وانخرطا
فليته إذ علا الأفلاك منتصرًا	قد هذب الجيل فوق الأرض فانضبطا

ابن الإنسان الشقي:

يا شقوة المرء لم يسعد بحاضره	وما له من غد يرجى إذا غُمطا
تراه من عالم الأشياء في رغد	وإن يكن في معاني الروح قد قحطا
يعيش في قلق حيران منقبضًا	وإن تخله هنيء العيش منبسطا
أعيته أسئلة لم يُلْفِ أجوبة	لها لدى قومه ممن علا وَسَطا
من نحن من أنا ما معنى الحياة وما	عقبى الممات لمن وفّى ومن قسطا
فمن خطا خطوة في الخير يجز به	ما دام لله صدقًا قد سعى وخطا

ما يستوي الظلمات والنور:

لولا هدى الله لاحتارت بصائرنا	وأصبح الحق بالبهتان مختلطا
من عاش في كنف الإيمان كان له	أمنًا وعاش رضي النفس مغتبطا

بينات:

بين المغالاة والتقصير منزلة	هي التي جعلتنا أمة وسطا
فاثبت على منهج الإسلام في ثقة	مستعليا يتحدى ضغط من ضغطا
والزم طريق رسول الله في بصر	وفي اعتدال وجانب خلط من خلطا
واحذر غزاة لنا في عصرنا جددًا	يَبدون في صورة الأصحاب والخُلَطا
وأخطر الغزو غزو لا يُريق دما	إلا التسلل للأفكار مُخْتَرطا
يغزو فؤادك في صمت فتتبعه	طوعا ولا سيفَ ولا أجنادَ لا شُرطا
واجعل رضا الله كل القصد تنج فما	يغني رضا الخلق والخلاق قد سخطا
هل يبسطون لما القهار قابضه؟	أو يقبضون إذا الرحمن قد بسطا
ولا تبال بقول الناس فيك أذى	فكم على الله قالوا الزور والشططا
فما أصابك من ضراء فارض وقل:	رب احتسبها لنا ذخرًا، لنا فَرَطا

جيل الصحوة:

وبإحساس الأب الروحي، وحادي المسيرة، وإمام الدعوة في مطلع الخامس عشر الهجري جاءت قصيدة جيل الصحوة الطويلة – سبعة وسبعين بيتًا – التي يقول فيها:

حيٌّ جيلاً بالمكرمات تناجى أثلج الصدر صحوةُ إثلاجا
حيهم مؤمنين أو مؤمناتٍ حيٌّ فيهم للصالحات انتهاجا
حيٌّ جيلاً صحا فقرّت عيون انتشى الدين فرحةً وابتهاجًا
وتغنت به أناشيد مجدٍ أزعجت أعدا الهدى إزعاجا

مواصفات جيل الصحوة النبيل كما يراها القرضاوي:

حيٌّ جيلاً في طهره مثل ماء المزن ينساب دافقًا ثجّاجا
حي من صام يوم قيظ وحر اتقاء لحر يوم إذا جا
حي من أحيا سنة لرسول الله ماتت واليوم تلقى رواجا
رفع الصوت بالأمانة جهرًا لم يخف فيه لومة أو إحراجا
عامَلَ الناس مثل عذب فرات إن يكن من سواه ملحًا أجاجا
عرف الدرب فاستقام عليه صلب عودٍ أبت قناه اعوجاجا
نفسه بالإيمان باتت حديدًا إذ نفوس أخرى استحالت زجاجا

الله وحده وما يرضاه!

جعل الله وحده نصب عينيه فطوبى لمن دعاه وناجى
بالرضا واليقين نال مناه حين نال الملوك عرشًا وتاجا
في صلاة تعلو بهم في خشوع لا صلاة عرجاء تبدو خداجا
في زكاة تطهر النفس والما ل وتغني الفقير والمحتاجا
في صيام إن جاعت البطن فيه شبع القلب باليقين ابتهاجا
في كتاب يتلونه ليناجوا ربهم فيه وهو نعم المناجى
في دعاء لله يرقى إلى العر ش يهز السماء و الأبراجا
في جهاد بالنفس والمال لله.. لا غُنْم يرتجى أو خراجا
لا تلمهم إن هم تفانوا وذابوا هم شموع تغني تضيء الفجاجا

إنه جيل صحوة!

إنه جيل صحوة يتحدى كل بغي مهما أثار العَجاجا
لا يبالي بالتِّبْر ينشره الكفـر ولا السيفِ يقطع الأوداجا
علموا الشعب أن يعيش كريما لا يولى زمامه الحجاجا
وإذا استيأس العباد وضاقوا فارج فتحًا لأمرهم وانفراجا

يا للجامعات!

جامعات عن الجوامع تبت وانثنت إلى الغرب تبغي اندماجا
خرّجَت أجيالاً مشوشة الأفكـا ر تشكو الفصام أو الازدواجا
عربًا مسلمين أصلاً وشكلاً ومع الغرب فكرة ومزاجا
كيف نرجو من السقيم دواء وهو يشكو الضنى ويبغي العلاجا
كيف نرجو من السجين معينًا وهو في القيد ينشد الإخراجا

الغرب المنحاز:

سبل الغرب كلها جُحر ضب وسبيل الإسلام كانت فجاجا
أيّد الذبح في فلسطين وفي لبنـان واهًا هل يذبحون دجاجا
أوقِفوا الفجر إن قدرتم وصـدوا الشمس أن ترسل السنا الوهاجا
وامنعوا الزهر أن يفوح شذاه وامنعوا البحر يقذف الأمواجا

نصيحة مباشرة:

لست أخشى عليكمُ من عداة يملكون الفانتوم والميراجا
أنا أخشى عليكم منكم إذا ما زرعوا الخلف بينكم والشجاجا
واختلفتم على فروع من الديـن أرى فيها فسحة وانفراجا
وسمحتم لكيدهم بينكم يسعـى لتغدوا طوائفًا تتهاجى
فافقهوا الدين رحمةً واعتدالا ليس عنفًا أو غلظةً أو هياجا
افقهوه فكرًا وعلمًا ونورًا ليس جهلاً وظلمةً ولجاجا
افقهوه دنيا ودينًا معا كالجسـم والروح وَحدة وامتزاجا
واعلموا أن الزيف لا بد مكشـوف وإن زوقوه يومًا وراجا

نصرة دعوة الإخوان غرض رئيس عند القرضاوي:

لاحظت في مسيرتي الدعوية أن كل داعية ينشر فكره الذي تربى عليه، ويحمَى له ويغار، فابن باز رحمة الله عليه كان ينافح عن السلفية، والغزالي وأبو إسماعيل رحمة الله عليهما عاشا لفكر الإخوان، ومشتهري رحمة الله عليه عاش للجمعية الشرعية، والفقي وصفوت نور الدين رحمة الله عليهما لأنصار السنة... وهكذا!

ولا أعلم أحدًا شذ عن هذه السنة في دروسه ومحاضراته وتفسيراته غير الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى، الذي محَّض تفسيره للقرآن؛ بعيدًا عن شوائب انتمائه الصوفي؛ وهذه من مناقبه العظيمة في رأيي رحمه الله تعالى..

ولا أشك أن شيخنا القرضاوي متع الله به – وإن حاول أن يمثل الإسلام كله في أخريات حياته – فهو، – ومنذ بدأ يكتب الشعر وحتى الآن – يرى أن جماعة الإخوان هي الأقدر والأجدر بأن تقود سفينة العمل الإسلامي في القرن الفائت، وهذا القرن..

وجل قصائده يشي بهذا ويؤكده، وتصريحاته، ومحاضراته، وأماسيه كلها تؤكد..

ومن شواهدي على ذلك ما كتبه عن الشيخ العظيم حسن البنا رحمه الله، وعن الجماعة، منثورًا في أثناء قصائده..

اقرأ له مثلاً في دعوة الإخوان والتعلق بمرشدها رحمه الله كتب قصائد عدة، منها:

يا مرشدًا قاد بالإسلام إخوانًا	وهزَّ بالدعوة الغراء أوطانا
يا مرشدًا قد سرت في الشرق صيحته	فقام بعد منام طال يقظانا
فكان للعُرب والإسلام فجرَ هدًى	وكان للغرب زلزالاً وبركانا

ثم يقول عن الشيخ البنا رحمه الله وعن الإخوان:

ربيت جيلاً من الفولاذ معدنه	يزيده العسف إسلامًا وإيمانا
أردت تجديد صرح الدين إذ عبثت	به السنون فهدت منه جدرانا
ترسي الأساس على التوحيد في ثقةٍ	وترفع الصرح بالأخلاق مزدانا
ومن تكن برسول الله أسوته	كانت خلائقه روحًا وريحانا

كما نظَّم قصيدةً أخرى صدَّر بها ديوانه الثاني، وجعلها الإهداءَ إلى إمامه، قال فيها:

لك يا إمامي يا أعزَّ معلم	يا حامل المصباح في الزمن العمي!
يا مرشد الدنيا لنهج محمد	يا نفحةً من جيل دار الأرقم
شيَّدت للإسلام صرحًا لم تكن	لبناته غير الشباب المسلم
وكتبت للدنيا وثيقةَ صحوةٍ	وأبيت إلا أن توقِّع بالدم
سيظل حبك في القلوب مسطَّرًا	وسناك في الألباب واسمك في الفم

من أغراضه: التأمل، والتفلسف، وسبر الحقائق:

وهذا هدف اهتم به القرضاوي من وقت مبكر، وإن لم ينعطف إليه استقلالاً فيما بعد.. فمن أهم القصائد الضائعة التي أسف الشيخ عليها: قصيدة تأملية أنشأها مبكرًا؛ ليعكس نزعة فلسفية جاشت به نفسه (وكنت في السنة الأولى الثانوية، وعنوانها مناجاة القبر، لا أذكر إلا بيتين منها) هما:

حنانيك ماذا في حناياك يا قبرُ ... بربك خبِّر قبل أن يفدح الخُبْرُ
ألا ليت شعري ما تكنُّ ليوسفٍ ... أرَوحٌ وريحانٌ أم النار والجمر؟

وإن تعجب فعجب أن يتكلم شاب في مقتبل عمره عن القبر وما وراءه؛ مع توقده وامتلائه بالحيوية والعطاء والتفاعل، فلم تكن تحيط به ضغوط من النوع الذي يبعث على اليأس كتلك التي جابهت شاعر النيل، بل كان القرضاوي آنذاك يملأ الدنيا صخبًا، وشعرًا، وثورة!

فكيف خطر بباله هذا؟

السعادة وطالبوها:

ومن أشهر قصائده، وأعمقها في التأمل هذه القصيدة التي نظمها عام 1956م في السجن الحربي – وكان ابن ثلاثين سنة – وقد قامت بنشرها عدة مجلات منها مجلة حضارة الإسلام الدمشقية، ومجلة منبر الإسلام القاهرية، ومجلة التربية الإسلامية العراقية، وتم نشرها أيضًا في كتاب (شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث) وتبلغ أبياتها مائة وأربعة وسبعين بيتًا. وفيها يحادث الباحثين عن السعادة، ويناقش أطروحاتهم، مفندًا إياها، ليصل بهم في الختام إلى السر الحقيقي للسعادة المطلقة التي انتهى إليها الشاعر من قبله في قفزة سريعة غير متعمقة:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقيّ هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا وعند الله للأتقى مزيدُ

أما القرضاوي فأخذ يتأمل ويناقش، ويطيل، حتى قدم إكسير السعادة في ختام قصيدته:

أمل إليه هفتْ قلوب الناس في الزمن التليد
أمل.. له غور القديم كما له سحر الجديد
أمل.. إليه سعى الملوك كما إليه رنا العبيد
وتزاحموا كالهيم يدفعها الصدى عند الورود
وتساءلوا عنه.. ولكن من يجيب؟ ومن يفيد؟
فمشرِّقٌ.. ومغرِّب وكلاهما يرجو البعيد
عادوا وكل سؤالهم أين السعادة والسعيد؟
وتخالفوا، ولكل قوم وجهة، ولهم عميد

وبدأ يفكر في أوضح أسبابها أو أشهر ما يراه الناس سببًا لها، وهو المال والجدة، وإن كانت المعاني غير جديدة، فقد مرت كثيرًا على ألسنة الشعراء السابقين، ومنها الأبيات الشهيرة:

إن الدراهم في المواقف كلها تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا
وترى الغني إذا تحدث كاذباً قالوا صدقت وما نطقت محالا
وترى الفقير إذا تحدث صادقاً قالوا كذبت وأبطلوا ما قالا

وكذا ما قال الشاعر:

إن الغني من الرجال مكرم وتراه يُرجى ما لديه ويرهبُ
ويبش بالترحيب عند قدومه ويقام عند سلامه ويقرّب
والفقر شين للرجال فإنه يزرى به الشهم الأديب الأنسب

إلا أن هؤلاء السابقين وقفوا على عتبة مدح المال أو بيان بعض مزاياه، أما القرضاوي فقد تناول بعض هذه المعاني، ثم قفز إلى ما وراءها مناقشًا، متأملاً، لينقض ما قاله هؤلاء، فماذا قال شيخنا في هذه القصيدة القديمة الجديدة؟

قالوا: السعادة في الغنى فأخو الثراء هو السعيد
الأصفرُ الرنانُ في كفيه يلوي كل جيد
يرمي به شركًا يصيد من الرغائب ما يصيد
وبه يدين له العَصيّ وقد يلين له الحديد
فإذا أراد.. فكل ما في هذه الدنيا يريد
وإذا تمنى الشيء جاء كما تمنى.. أو يزيد
والناس خلف ركابه يمشون في حضر وبيد
يعنو له رب القنا وتهيم ربات القدود

هذا هو الطرح الذي سبقه به الشعراء الذين سقت كلامهم؛ فبم سبقهم هو، وما الإضافة التي أضافها هنا؛ ليدلل على أن السعادة ليست في المال وحده؟

قلت: الغنى في النفس، وهو لعمرك العيش الرغيد

شقاء الأغنياء:

كم عائلٍ راضٍ.. وكم مُثرٍ على بؤس قعيد
فيقيم في هم الطريف وفي الحفاظ على التليد
ويذوب في أطماعه.. هي ناره وهو الوقود
فهو الشقي بوهمه.. وبحرصه العاني الكدود
وهو الفقير وإن بدا، في مال قارون العديد
يعدو هنا وهناك في شغل، كطواف البريد
يبغي المئات، فإن وفت يبغ الألوف من النقود
جشع به كجهنم يشكو: ألا هل من مزيد؟

التابعون الصيادون:

أما الألى حول الركاب فهم لشهوتهم عبيد
تخذوه صيدًا، والغبي يظن أنهم المصيد!
ويل له ويل إذا عثرت به قدم الجدود
ستراه كالقبر الكئيب وكان كالصرح المشيد
قد عافه الخل الودود.. كأنه نتن ودود
أمسى نذير الشؤم، وهو الأمس كان بشير عيد
أمسى ينقر كالعويل وكان يطرب كالنشيد
أفبعد ذاك تظن أن أخا الثراء هو السعيد؟!

وانظر إلى لطائفه البلاغية في المقابلات بين العويل والنشيد/ نذير شؤم وبشير عيد/ القبر والصرح/ والطريف والتليد/ وعائل ومثرٍ/ وإلى الجناس في الودود، ودود، وإلى التضمين (هل من مزيد) وإلى التكرار في أمسى/ هنا/ ويل/ هو.. إلخ.

فهل تكون السعادة في القوة والسيطرة والنفوذ؟

قالوا: السعادة في النفوذ وسلطة الجاه العتيد
من كالأمير وكالوزير وكالمدير وكالعميد؟

يرنو إلى من دونه.. فيسابقون لما يريد
وإذا رأى رأيًا فذلك وحده الرأي الرشيد
كل يسارع في هواه، وعن رضاه لا يحيد

لكن: ماذا يرى الشاب الشاعر المتأمل؟! إنه يغوص إلى ما تحت القشرة البراقة الخادعة، ليلمس أسباب الشقاء التي يعيشها أصحاب السطوة والنفوذ، من الخوف الدائم من فقدان مناصبهم، ونفوذهم، فهم يعيشون بين تملقين: تملق من فوقهم ليرضوا عنهم، وتملق من تحتهم يستديمون بذلك أشكال قوتهم، فهم في حقيقتهم نافذون بقلوب عبيد، وهمم خسيسة:

قلت: اطرحوا هذي المظاهر واسمعوا بيت القصيد
فأخو النفوذ بجاهه يشقى وإن سحب البرود
ما عاش يحرص أن يدوم له النفوذ ويستزيد
متملقًا من فوقه طمع المثوبة والمزيد
ومخافةً أن يسقط الكرسي يومًا أو يميد
مترضيًا من دونه.. بعطائه أو بالوعود
يبغي رضا كل الورى.. ورضاهمُ شيء بعيد
فتراه يبسم للبغيض كأنه الحِب الودود
وتراه يمتدح الغبي كأنه الفطن الرشيد
فاعجب لأزياء الملوك.. وتحتها نفسُ العبيد

وأما المحيطون بهم فهم مجموعة من المرتزقة المنتفعين، الذين يلتفون حولهم ما داموا فوق كراسيهم، فإذا زالوا انفضوا عنهم كأنهم مجذومون أو مطعونون؛ بل إن منهم من يتبرأ من هؤلاء، بعد طيران تيجان السطوة من فوق رؤوسهم، ويلعنهم لعنًا كبيرًا!

لا يخدعنك ثلة حاطوا به مثل الجنود
أبصرهمُ – إن شئت – حين يجيء بالعزل البريد
تجد النفوذ هوى كما تهوي وتنفرط العقود
ذهب البطانة واختفي الزوار، وانفض الحشود

قد كان سوق منىً وكانوا هم كتجار اليهود

وافوه يوم نَفاقه وجفوْه أيام الركود

وإذا رأوه دعوا: ألا بعدًا كما بعدت ثمود

أفَبَعْدَ ذاك تظن أن أخًا النفوذ هو السعيد؟

وانظر إلى التضمين (ألا بعدًا... كما بعدت ثمودُ/ وإلى المقابلات بين النَّفاق والركود/ الملوك والعبيد/ الغبي والفطن/ البغيض والحِب الودود/ وإلى كناياته في سوق المنى، ويوم نفاقه، والنفوذ هوى، ويسقط الكرسي، وسحب البرود، وانظر إلى حسن التقسيم في قوله: من كالأمير وكالوزير وكالمدير وكالعميد؟

فهل تكون السعادة في العشق والغرام والاستغراق في الشهوات والنساء؛ وهو ما تقوم عليه فلسفات غربية لا تخفى؟

هل هي في صحبة ذوات القدود المياسة والخدود الأسيلة، والجيد الماتع، والعين الفاتكة؟ هل هي في السمر الحلو والسهر، والخلوة بالحبيب؟!

لنر ما يقول القرضاوي الشاب المتأمل:

قالوا: السعادة في الغرام الحلو، في خصر وجيد

في نرجس العين الضحوك، وفي الورود على الخدود

في ليلة قمراء ليس بها سوى الشهب الشهود

فيها التناجي يستطاب كأنه وتر وعود

إنه – رغم سنه الذي يدعو إلى الاغتراف من هذا النبع – يرفض، ويناقش، ويثبت أن السعادة في غير هذا الباب أحبولة، وشرك للشيطان، ومجلبة للمواجع والضنى وإضاعة الأعمار، فأصحاب الهمم العالية لا يسقطون في مثل هذا الشرك أو الذي صنعه الوهم العقلي أو الشيطان المريد، وعهدنا أن الساقطين فيه يعيشون حيواتهم في سهد ودمع وضنى وابتئاس:

قلت: الغرام خرافة كبرى وأحلام شرود

هو فكرة بلهاء أو نزعات شيطان مريد

هو شغل قلب فارغ فقد التطلع للصعود

وهو الضنى، وهو الدموع، وشقوة القلب العميد
ما أضيع الأعمار تقضى في الهيام، وفي السهود
في حب غانية لعوب.. في أمانٍ، في وعود

ويكشف عن المعنى الحقيقي للحب كما يراه:

الحب حب الأم والأب والحليلة والوليد
حب المعاني والحقائق.. لا القدود، ولا النهود
حب يدوم مع الزمان فلا خداع ولا كنود
فدع التي تهواك.. حيث تراك كالزهر النضيد
فإذا تغير دهرك الدوار غيّرها الصدود
وإذا رأت مع غيرك الدنيا مشت تحت البنود
أفبعد ذاك تظن عبد الغانيات هو السعيد؟

ويستمر في تفنيد الأسباب التي يراها الواهمون جالبة للسعادة، فينتقد السكون والخمول، اللذين يعتقد بعض ساقطي الهمم أن فيهما راحة بال وسعادة نفس، فهم يعيشون بمنطق (كبّر دماغك/ احنا مش هانصلّح الكون/ اللي يتجوز أمي اقول له يا عمي/ يا بخت من بات غلبان!) ويرفض أن تكون السعادة في التبعية، والإمعية، والتسليم، والتصفيق:

قالوا: السعادة في السكون، وفي الخمول، وفي الخمود
في العيش بين الأهل.. لا عيش المهاجر والطريد
في لقمة تأتي إليك.. بغير ما جهد جهيد
في المشي خلف الركب في دعة.. وفي خطوٍ وئيد
في أن تقول كما يقال، فلا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القطيع.. وأن تقاد ولا تقود
في أن تصيح لكل والٍ: عاش عهدكمُ المجيد
في أن تعيش كما يراد.. ولا تعيش كما تريد

ويأبى الشاعر الشاب هذا المنطق الانهزامي الغبي، مؤكدًا أن الحياة حيوية وتفاعل وعطاء وإيجابية، وهي غرس للخير، واقتلاع للشر، ودعم للحق، ومقاومة للباطل، ورفض للظلم، وانتصار للحرية والعدالة، وتمكين للعقل:

قلت: الحياة هي التحرك لا السكون ولا الهمود
وهي التفاعل والتطور لا التحجر والجمود
وهي الجهاد، وهل يجاهد من تعلق بالقعود!
وهي الشعور بالانتصار.. ولا انتصار بلا جهود
وهي التلذذ بالمتاعب لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحياض، وأي حر لا يذود؟
هي أن تحس بأن كأس الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة في الأرض شأنك أن تسود
هي أن تخط مصير نفسك.. في التهام وفي النجود
وتقول: لا، وبملء فيك لكل جبار عنيد

ويؤكد أن المنطق الذي يقوله هو الذي أثبتت التجارب منذ بدء الخليقة صحته، فأخلق بمن لم يستوعبه أن يكون مع الموتى:

هذي الحياة وشأنها من عهد آدم والجدود
فإذا ركنت إلى السكون فلذ بسكان اللحود
أفبعد ذاك تظن أن أخا الخمول هو السعيد؟

قوة

هذا الرقيق تراه عند الروع في قلب الأسود
متبسمًا والدهر غضبان يزمجر بالوعيد
فإذا رماه بالخطوب رماه بالعزم الجليد
وإذا دعته الواجبات.....فحمّلته بما يؤود
وجدَتْه صلب المنكبين فلا يخرّ ولا يميد

هو كالشعاع المستقيم فلا يضل ولا يحيد
هو ناصعٌ، لا يختفي خلف الستائر والسدود

الرجولة الحقة

فيه ثبات أخي العقيدة.. لا اضطرابَ أُولي الجحود
للناس أرباب ولكن ربه رب وحيد
لا ينحني إلا له، عند الركوع أو السجود
صلد الرجولة، لا يرائي لا يمالئ لا يكيد
لا ينثني عند الوعود ولا يلين لدى الوعيد
لا يلتوي كالأفعوان ولا يطأطىء كالعبيد
وإذا أريد على الدنية قال: إني لا أريد
هو مطمئن لا يبيت من المخاوف في سهود
وهو العزيز وإن يكن بين السلاسل والقيود
وهو الغني وإن يبت صفر اليدين من النقود
أيدين للفقر امرؤ أخلاقه نعم الرصيد؟
أفيشتكي عقم الزمان وقلبه خصب ولود؟
آماله تنمو على الأحداث كالروض المجود
ويمدها إيمانه الدفاق كالدم في الوريد
تجلو له الغد كالعروس بدت تهادى بين غيد
وتسيغ في فمه الجهاد كمنهل عذب الورود
فيقوم من ساح اللقاء إلى لقاء من جديد
ويذوق في كأس العذاب ...عذوبة الصبر الحميد
ويشيم في وجه البلاء مخايل النصر الأكيد
والنصر مثل الغيث يعرف بالصواعق والرعود

هذا لعمري شأن ذي الإيمان أو شأن السعيد
لا حزن لا ندم على أمس فأمس لا يعود
لا خوف من غده فخوف غد ظنون لا تفيد
لا حرص لا طمع فداء الحرص كم يفري الكبود
فلئن يعش لهو السعيد وإن يمت فهو الشهيد

سعادتك فيك

قل للذي نشد السعادة: دونك النبع الفريد
إن السعادة منك، لا تأتيك من خلف الحدود
هي بنت قلبك بنت عقلك ليس تشرى بالنقود
فاسعد بذاتك أو فدع أمر السعادة للسعيد

قلب

هذي العقيدة للسعيد هي الأساس هي العمود
من عاش يحملها ويهتف باسمها فهو السعيد
هو مؤمن راسي اليقين كأنه الجبل الوطيد
غال، فلا يرضى مبيع النفس بالثمن الزهيد
الله منه قد اشتراها وهو أوفى بالعقود
عرف الإله، فلم يعد في الشك يبدئ أو يعيد
عرف المراد من الحياة فلم يعش عيش الشريد
وتفاعلا: هو والحياة يفيدها وله تفيد
المال والجاه الحلال يراه أدنى ما يريد
فإذا استفاد المال فهو لخير أمته رصيد
والجاه عدته لنفع الناس من بيض وسود
فيعيش من معروفه في مثل سلطان الرشيد

ملكاً تحيط به القلوب ولا تحيط به الجنود
ويعيش من إيمانه في عالم نائي الحدود
في عرض ما اتسع الوجود وطول ما امتد الخلود
ويعيش من أخلاقه في عالم الخير المديد
حلو الشمائل في حياء الزهر، في طهر الوليد
في رقة الماء النمير وبهجة الفجر الجديد
يحيا بقلب من حرير لا بقلب من حديد
يحنو على العاني كما يحنو النسيم على الورود
ويذوب للشاكي كما قد ذاب في الشمس الجليد
هو في الرخاء وفي الشدائد للجميع أخ ودود
لا الفقر يذهله ولا الإثراء ينسيه العهود
كالنجم يبدو في النحوس بدوه عند السعود
الحب ملء فؤاده والحب كنز لا يبيد
حب كضوء الشمس يشرق للمسود والمسود
حب السعادة للبرية من قريب أو بعيد
لا شامت بالمبتلين ولا لذي النعمى حسود
لا حامل حقداً، فما أشقى الحياة مع الحقود
يسدي الجميل لكل حي من شكور أو جحود
وإذا صنعت به الجميل فليس بالرجل الكنود

الإيمان

قل للذي يبغي السعادة هل علمت من السعيد؟
إن السعادة أن تعيش لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحيران في وعي رشيد

من أين جئت؟ وأين أذهب؟ لِمْ خُلقت؟ وهل أعود؟

فتشيع في النفس اليقين وتطرد الشك العنيد

وتعلم الفكر السوي وتصنع الخلق الحميد

وترد للنهج المسدد كل ذي عقل شرود

تعطي حياتك قيمة رب الحياة بها يشيد

ليظل طرفك رانيًا في الأفق للهدف البعيد

فتعيش في الدنيا لأخرى لا تزول ولا تبيد

وتمد أرضك بالسماء وبالملائكة الشهود

وتريك وجه الله في مرآة نفسك والوجود

ومن أغراضه الرثاء:

وقد كتب القرضاوي في الرثاء غير مرة، ومنذ أوائل أيامه، والرثاء نمط شعري قديم، نفّس به الشعراء حزنهم المكبوت على موتاهم الأحبة، وعرف عدد منهم – تاريخيّا – بذلك، وكانت أشهرهم الصحابية الجليلة الخنساء تماضر بنت عمرو، التي ناحت في جاهليتها على أخيها ما لم تنح امرأة غيرها، حتى من الله تعالى عليها بالإسلام. وكذا المخضرم أبو ذويب الهذلي الذي رثى ولديه كليهما بعينيته الشهيرة:

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
أودى بنيّ فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي عورا تدمع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ورثى ابن الرومي ولده الأوسط محمدًا بداليته الشهيرة:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي
بنيّ الذي أهدته كفايّ للثرى فيا عزة المهدَى ويا حسرة المهدِي
ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد

بل إن من الشعراء من رثى نفسه، كمالك بن الريب الصحابي:

غداة غدٍ يا لهف نفسي على غد إذا أدلجوا عني وخُلفت ثاويا
وأصبح مالي من طريف وتالد لغيري وكان المال بالأمس ماليا
وبالرّمل مني نسوةٌ لو شهدنني بكين وفدّين الطبيب المداويا
فمنهن أمّي وابنتاها وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا
وما كان عهد الرّمل مني وأهلهِ ذميماً ولا بالرّملِ ودّعت قاليا

ولم يفوت القرضاوي هذا الغرض – وإن عمق فيه إسلامية المنهج والرؤية، وحرص على وضع معرفته وعلمه فيه شعرًا – فكتب عدة قصائد، منها ما كتب في رثاء (الأخ الصادق مرعي) في 4/ 2/ 1948:

قتلوك شلت كفُّ من قتلوكا يا صادقًا لهمُ وهم كذبوكا
يا من حملت اسمًا كريمًا صادقًا فصدقت عهد الله حين لقوكا
وهتفت باسم الله والدم سائل الله أكبر لم تزل تحدوكا

وتحت عنوان: دمعة وفاء كتب الشيخ في المباحث القضائية (22/ 8/ 1950) راثيًا أخاه في الإسلام والانتماء زكي الدين أبو طه، وهو في رثائه لا يسيء، ولا يقع في قضايا عقيدية، كالتسخط على القدر، أو ذم الموت، أو نوح الجاهلية، بل كان في إطار تعداد مناقب الفقيد، وذكر محاسنه:

أبكي وهل يشفي البكاء غليلا وقد انتوى عنا الحبيب رحيلا
أبكي وليس من البكا بد وإن كان المصاب على القلوب جليلا
أبكي على غصن نما في روضة للحق أذبله المنون ذبولا
أبكي على نجم أنار ضياؤه دهرًا وأسرع للمغيب أفولا
أبكي فتًى فوق الثريا نفسُه يلقى الممات ولا يعيش ذليلا
أبكي فتًى صلبًا تكاد تخاله عمرًا يخيف ولا يخاف قبيلا
أبكي فتًى إن ثار للحق انتضى عزمًا يفل الصارم المسلولا
أبكي فتًى كان الجميع يعده رجلاً وإن كان الرجال قليلا
أعزز علينا أن نرى بدرًا هوى ونرى التراب على سناه مهيلا
أعزز علينا أن يباعد بيننا هذا التراب فلا نراه طويلا
أعزز بأن نجد الذي حمل الهدى أمسى على أعناقنا محمولا
يا من ضربت لنا المثال مضحيًا وأريتنا صور الجهاد الأولى
فحييت في ظل العقيدة ثابتًا وأبيت إلا أن تموت أصيلا
قد كان آخر مانطقت بذكره الله أكبر.. رتلت ترتيلا
ألقوك في ظلَم السجون وظلمها فأضأت في ظلماتها قنديلا
وصبرت صبر الأنبياء كأنما تلقى ثباتك من يدى جبريلا
يا مؤمنًا كانت حياتك قدوة ستظل روحك في الطريق دليلا
نم يا زكي الدين إنك خالد ماكان ذكرك يا أخي ليزولا

رثائيته الأكثر إيجاعًا:

وأطول ما كتب في الرثاء فيما أظن: قصيدته في صديق عمره ودعوته المرحوم محمد الدمرداش مراد (من بلدي زفتى، التي في خاطري وفي فمي) الذي أوجع موته شاعرنا الوفي أيما إيجاع، كما قال هو نفسه:

كانت وفاة أخي محمد الدمرداش صدمة هائلة لي، وكان فقده من أشد المصائب قسوة على نفسي. وقد فقدت أمي وعمي وابن عمي وكثيرًا من الأقارب فلم أحزن عليهم كما حزنت على الدمرداش. بل أشهد أني جزعت عليه أكثر مما ينبغي من مثلي، ممن يعلّم الناس أن الموت حق، وأنه قدر الله الذي لا يقابل بغير الرضا والتسليم، وأن الجزع لا يرد فائتًا، ولا يحيي ميتًا، وأن الصبر عند الصدمة الأولى، وأن الموت ليس نهاية المطاف، بل هو بداية سفر جديد إلى دار أخرى هي خير وأبقى للمؤمنين.

.... كان أكثر الأصدقاء قربًا مني، ورضًا عني، واعتزازًا بي، وحبًّا لي، وتوقًا إليّ، ورجاءً فيّ، وكان يعرف مدخلي ومخرجي، وظاهري وباطني، وسري وعلانيتي، وأفضي إليه بما لا أفضي إلى غيره من الإخوة والأصدقاء، وقد اقترب كلانا من صاحبه حتى أوشكنا أن نكون شخصًا واحدًا.

وقد رثيته بقصيدة كتبتها، وأنا رهين محبس المخابرات المصرية في حي سراي القبة بعد وفاته، والعجيب أن هذه القصيدة تاهت مني مع قصائد وأوراق أخرى، ثم عثرت عليها مصادفة بعد ثمانية وثلاثين عامًا، ومما جاء فيها:

وصف الحال:

كان يومًا مقطب الجبين أسود يوم قالوا مات الحبيب محمد

غرق الوجه بالدموع، وكاد القلب من فرط ما به يتجمد

وتهاويت مثخنًا مثل طير هاض منه الجناح سهم مسدد

غلبت روعة المصيبة صبري ويقيني، ما استطعت أن أتجلد

كيف لا والحبيب قد ودعْتُه اليوم وداعًا لا يعرف العود أحمد

فرق الموت بيننا، يا أسى قلـب لطول الفراق لم يتعود

يا لحظي أأفقد الأم والوالـد حتى أخو شبابي يفقد!

يا لحظي أخي الذي كان درعي في خطوبي وكان سيفي المهند

الإيمان بالله تعالى وأقداره:

رب عفوًا ما منك أشكو ولكن غلب الصدرَ حزنُه فتنهد

حكمة الله فوق أوهام عقلي ولسان السماء والأرض يشهد

رب آمنت بالقضاء فهب لي من لدنك الرضا لأقوى وأصمد

حاش لي أسخط القضاء ولكن ما خلقتَ الذي بصدري جلمد

أنت عوضتني به عن أخ الد م فكان الأخ الشقيق وأزيد

لهذا أحببت الدمرداش:

كان مستودعًا لسري من آلا م أمس مضى ومن حلم الغد

إنها لم تكن صداقة أعوا م ولكنه إخاء تجسد

ما رآني يومًا سعيدًا فيأسى أو رآني يومًا حزينًا فيسعد

يبسم الدهر لي، فيطرب كالبلبل فوق الأغصان غنى وغرد

ويصيب الزمان قلبي بسهم فكأن الرامي إليه تعمد

كنت منه وكان مني كشخص قد تسمى بيوسف ومحمد

فهو يبدو في صورتين وباسمين وخلف الرسمين روح مفرد

وهناك المزيد:

لهف نفسي على فتًى عاش للـه وللدين صارمًا ليس يغمد

عاش للخير ساعيًا غير وانٍ عاش للحق جمرة ليس تخمد

عاش للمجد والمعالي طموحًا ودّ لو يمتطي السحاب فيصعد

عاش في ساحة الفضيلة جنديًّا وفي حلبة الشهامة أوحد

خُلق القرية الأصيلة فيه قبل غزو القرى بما ليس يحمد

يالقسوة المرض:

يا عضالاً حار الأطباء فيه أرقد الفارس الفتى شر مرقد

ليس فيه من الحياة سوى قلب بصدرِ أنفاسه تتردد

وفم قبل كان يهدر بالفصحى تراه ما عاد يرغي ويزبد

ثم عين فيها بريق، ولكن قبل كانت شرارة تتوقد

أين باقي الفتى، لقد مات منه بدن هامد، وحس تبلد

لحظة تأمل:

قدر الله أعجز الطب فارتد حسيرًا يقول : ما لي من يد

قل لذاك المغرور بالعلم ماذا يفعل العلم والردى لك مرصد

فجِّر الذَّر شامخًا ثم طأطئ عند سر الحياة هذا المعقد

القرضاوي يبكي على المنبر

ومن أغراضه: الابتهال والمناجاة:

وبديهي أن مثل الشاعر القرضاوي، الذي تعلق بأبي حامد الغزالي وبعض أهل التصوف، وتبنى دعوتهم لتزكية النفس وتطهير الروح، لن يسهو عن الكتابة الإيمانية، التي يعكس بها ما في نفسه الشفيفة من حب لله تعالى – نحسبه والله حسيبه، ولا نزكي على الله تعالى أحدًا – إما في شكل قصائد مستقلة، أو في أثناء قصائده؛ على اختلاف أغراضها، فهذا قاسم مشترك أعلى وأعظم من القواسم كلها.

ومن أروع وأبدع وأهم وأقوى وأشهر ما كتب الشيخ في الإيمانيات، قصيدته العينية، بعنوان ابتهال، التي تنفح نفسًا واضحًا من النونية الشهيرة التي تنسب حينًا لسيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وحينًا لأبي العتاهية:

إلهي لا تعذبني فإني ** مقر بالذي قد كان مني

فما لي حيلةٌ إلا رجائي ** وعفوك إن عفوت وحسن ظني

وكم من زلة لي في الخطايا ** وأنتَ عليّ ذو فضلٍ ومنِّ

إذا فكرتُ في ندمي عليها ** عضضتُ أناملي وقرعتُ سني

أجنّ بزهرة الدنيا جنونًا ** وأقضي العمرَ فيها بالتمني

ولو أني صدقت الزهدَ فيها ** قلبتُ لأهلها ظهرَ المِجنّ

وبينَ يديّ مُحتبسٌ طويلٌ ** كأني قد دُعيتُ له، كأني

يظنُ الناسُ بي خيرًا وإني ** لشرُ الناسِ، إن لم تعفُ عني

ولا أكتمك قارئي الكريم أن قصيدته هذه قد أطربتني كثيرًا، بعد أن أدرت في ذهني بردة البوصيري، والنهج لشوقي، وبعض الزهديات، ووجدت فيها من الصدق، وروعة الأداء، وحسن انتقاء اللفظ، ونبل المقصد، ما يهز وجداني، ويجعلني أقول غير متردد إنها – رغم شيوع معانيها، ودورانها في قصائد كثير من الشعراء – من أروع ما كتب الشيخ – إن لم تكن الأروع – فانظر ماذا يقول الشيخ الشاعر، الذي أطال في مناجاة ربه، والإقرار بذنبه، والاعتراف بتقصيره، وشدة تقريع ضميره، أطول مما ذكر أبو العتاهية وأكثر إطنابًا:

اعتراف وانكسار:

يا من له تعنو الوجوه وتخشعُ * ولأمره كل الخلائق تخضعُ

أعنو إليك بجبهة لم أحنها * إلا لوجهك ساجدًا أتضرع

وإليك أبسط كف ذل لم تكن * يومًا لغير سؤال فضلك ترفع

أنا من علمتَ المذنب العاصي الذي * عظمت خطاياه فجاءك يهرع

كم ساعةٍ فرطت فيها مسرفًا * وأضعتها في زائل لا ينفع

كم بت ليلي كله متثاقلاً * وذوو التقى حولي قيامٌ ركع

كم بال في أذنيّ شيطان الكرى * فإذا الصباح على نؤوم يَطلع

كم زينت لي النفس سوء فعالها * فأطعتها ضعفًا.. وبئس الطيِّع

كم وسوس الخناس في صدري فلم * يجد الذي يعلو قفاه ويصفع

كم أقرأ الآيات لو نزلت على * شم الجبال رأيتها تتصدع

مالي أردد وعدها ووعيدها * ما رق قلبي أو جرى لي مدمع

كم من نفوس بالهدى ذكّرتها * فمضت كما يمضي الجواد المسرع

أيقظتها للخير حين تركتني * في غفلة الدنيا أتيه وأرتع

ياحسرتا أعظ الأنام فليتني * نفسي وَعظت فَوَعْظُ نفسي أنفع

توحيد وتنزيه:

يا رب حكمتك اقتضتني مذنبًا * لأجيءَ بابك أستجير وأضرع

فترى عُبيدك تائبًا مستغفرًا * وأراك غفارًا لذنب يفظع

أنا إن عصيت فذاك من نقصي ومَن * غير الإله له الكمال الأرفع

يا رب أنت خلقتني من طينة * ومن الذي لأصوله لا يَنْزِع

لولا هداك ونفخة علوية * أودعتَها روحي لكان المصرع

فبها أَصول على التراب ترفعًا * وبها أحلِّق حين تصفو الأضلع

الطين يجذبها إليه بشدة * والروح تُصعدني إليك وترفع

فإذا ارتقيت إلى رضاك فغايتي * وإذا هبطت فدائمًا أتطلع

استجارة:

النار بالشهوات حفت فتنة * فليمرح الفجار.. وليتمتعوا
أما الجنان فإنها محفوفة * بمكاره تدمي الفؤاد وتوجع
الزاد قُلٌّ.. والديار بعيدة * والظهر نِضو والرفيق مضيع
وهناك قطاع الطريق طوائفًا * شتى تضل عن المراد وتقطع
إبليس يغوي والهوى شَرَكٌ له * والعيش يغري والأماني تخدع
وهناك قطاع عتاة أعلنوا * حربًا تخيف السائرين.. وتفزع
جرئوا عليك وأنت تحلم عنهمُ * ولكل شيء عند ربي مرجع
هذي الطريق وإنها لمخوفة * رب اهدني وأعن عسى ألا أقطع

هو بالباب واقف:

يا رب عبدك عند بابك واقف * يدعوك دعوة من يخاف ويطمع
فإذا خشيت فقد عصيتك جاهلا * وإذا رجوت فإن عفوك أوسع
بين الجوانح خافق يهوى التقى * ويضيق كرهًا بالذنوب ويجزع
ويحب ذكرك والقلوب إذا خلت * من ذكر ربي فهي بورٌ بَلْقع
ولكم ذكرتك خاليًا فوجدتني * والقلب في وجل والعين تدمع

أمل ورجاء:

هل لي رجاء؟! إنني ممن دعَوا * يومًا إليك وقال: توبوا وارجعوا
وحملت مصباح الهداية مرشدًا * أهناك كالقرآن نور يسطع؟
ومشيت في ركب الهداية وإن أكن * أبطأت في طلب الكمال وأسرعوا
حسبي أحبهمُ وأقفو خطوهم * ولكم أرى حب الأكابر يشفع
يا رب ما لي غير بابك مفزعٌ * آوي إليه إذا يعز المفزع
ما لي سوى دمعي إليك وسيلة * وضراعتي.. ولمن سواك سأضرع؟
إن لم أقف بالباب راجيَ رحمة * فلأي باب غير بابك أقرع
أين الغفور؟ وأين رحمته التي * وسعت جميع الخلق؟ أين المُوسع؟
هذا أوان العفو فاعف تفضلاً * يا من له تعنو الوجوه وتخشع

الله الله.. ما أحلاها وأرقاها..

ومن الابتهال إلى الـ (مناجاة) مع الإحساس بالزمن، وثقل وطأة الأيام، والنذير الذي يرسله الله تعالى لابن آدم يدق له أجراس التنبيه، يحاول القرضاوي دق الباب، والسعي والاقتراب، ويعزم التوبة، ويرجو حسن الأوبة، فيقول:

تشخيص الواقع:

يا رب ها جسمي يشيخ ويمرض * والوهن وافاني سريعًا يوفِض
ولَّت سِنُو عمري كرؤيا نائمٍ * ومضى شبابي مثل برق يومض
ودنا الرحيل ولم أهيئ زاده * وخيام أيامي تكاد تُقوَّض
كل النفائس قد تعوض إن تضع * والعمر إن ضَيعتَ ليس يُعوّض
ما بعد نضج الزرع غير حصاده * هي سنةٌ لله ليست تُنقض
وإذا أتى الأجل المقدر وقته * لم يغن عنك مطببٌ وممرض

اعترافات:

مالي وقد فرطت في أمري سوى * رب إلى نفحاته أتعرض
ماكان من عذر لتقصيري سوى * نفس تقاد إلى الجنان فتُعرض
كسلَى عن الخيرات جد ثقيلة * وهي الجواد إلى البطالة يَركض
نامت وأهل الجد قُوام.. ولم * تنفض غبار النوم فيما يُنْفض

شكر المقر:

يا رب في الأولى سترت نقائصي * فأتمَّ سترك يوم عندك أعرض
مالي سواك إذا الخطوب تفاقمت * أمري إليك على الداوم مفوض
لو كان لي رب سواك رجوته * فلمن أمد يدي ومن أستقرض؟
رباه إن رضاك غاية مطلبي * ما ضرني سَخِط البرية أم رضوا

أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي:

وارفع مكاني رب عندك بالتقى * من ترفعِ اللهم من ذا يخفض!؟
وابسط عليّ عطاء رب باسط * بَرٍّ، فإن تبسط فمن ذا يقبض؟!
آتيتني القرآن فانفعني به * وأقم به لي حجة لا تدحض

بيض به وجهي بيوم قادم * فيه الوجوه مسوَّدٌ ومبيض

يا خير من أعطى وأكرم من عفا * وإذا دعاه مذنب لا يعرض

رب اسمك الغفار فاعف تكرمًا * يدعوك مكسور الجناح مهيّض

أنت الذي أكرمتني منذ الصبا * ورعيتني.. والخير منك مُقيّض

وغرستني في الدين منذ حداثتي * ووهبتني فضلاً يطول ويعرض

وغمرتني بالفضل من قرني إلى * قدمي يراه محدِّق أو مغمض

فأتم بالغفران فضلك والرضا * من ذاق حلوك لم يطق ما يحمُض

واحشرنِ في ركب الحبيب المصطفي * ومع الذين لوجه دينك بيضوا

واجعل من العلم الذي علمتني * نورًا يضيء وروح بعث يُنهض

وارزقني الإخلاص حتى لاأُرى * إلا وكلي في رضاك ممحض

وامنن علي بنفحة علوية * أشفى بها من كل داء يمرض

لأظل لاسمك ذاكرًا ومسبحًا * كي أُرتضى فيمن لديك قد ارتُضُوا

وأعيش يا ربي لدينك داعيًا * ما دام بي نفس.. وعرق ينبض

اللهم آمين يا رب العالمين.. لي ولك يا مولانا ولوالدينا وذرارينا وسائر المسلمين..

صورة مع الشيخ عمرها سبع وعشرون سنة

غرض الأغراض: مواجهة الظلم والظالمين:

النونية نموذجًا

ومن أغراضه في شعره: مواجهة الظلم والظالمين، وهذا مبثوث في مقالاته وخطبه، وكتابه، ومحاضراته، وبرامجه، كما أنه مبثوث في أثناء قصائده كلها، ولن أكلف نفسي بتأمل الأعمال الكاملة، لاتساع هذا الغرض وانتشاره، بل سأتوقف فقط أمام أطول قصائد القرضاوي وأشهرها وهي (القصيدة النونية) التي وصفها الدكتور عماد الدين خليل في دراسته (القرضاوي: الأديب الشاعر) بأنها تتميز بقدرتها التسجيلية الفائقة على متابعة الدقائق والتفاصيل، وتوثيق حشود الوقائع والأعلام والمفردات التي تشكلت في السجون المصرية في الخمسينيات؟

ولا يكون المرء مبالغًا – والكلام لا يزال لخليل – إذا ما حكم عليها المرء بأنها تمثل إضافة بالغة القيمة لديوان الشعر الإسلامي المعاصر، وأنها تنطوي على قدر كبير من الصدق الفني.

ويكفي القرضاوي هنا – مع بعض التحفظ الفني من جهة التقريرية والسرد المباشر أحيانًا – أنه استطاع أن يسجل بريشة الشعر، ويوثق بآلياته الفنية تفاصيل ومفردات صفحة في تاريخنا المعاصر سيكون نسيانها خطأ فادحًا،؛ بل إن القرضاوي يمضي لما هو أبعد من ذلك، فيتجاوز الحزن إلى نقيضه تمامًا: السخرية، ويعرف كيف يوظفها في سياق ملحمته، فيما يجعلها في نهاية الأمر تنطق بالمأساة!

أدب السجون والمعتقلات:

والنونية قصيدة من قصائد أدب السجون، الذي أبدع فيه شعراء قدامى ومحدثون، وشعراء فصحى وعامية، من المشهورين والمغمورين، ومن أوائلهم وأهمهم الصحابي الجليل خبيب بن عدي بن عامر الأنصاري رضي الله عنه، الذي قتلته قريش بعد أحد؛ بمن قُتل منهم، وكان نبيلاً في مواجهته للموت عظيمًا، استقبل أقدار الله بركعتين، صارتا سنة عنه، وهو الذي قال رضي الله عنه:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا	قبائلهم.. واستجمعوا كل مجمع
وقد قرّبوا أبناءهم ونساءهم	وقُربت من جذعٍ طويلٍ ممنّعِ
وكلهم يُبدي العداوة جاهدًا	عليّ لأني في وثاقٍ بمضيعِ
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي	وما جمّع الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرّني على ما أصابني	فقد بضّعوا لحمي وقد ضلّ مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع
وقد عرّضوا الكفر والموت دونه	وقد ذرفت عيناي من غير مدمع
وما بي حذار الموت إني لميت	ولكنْ حذاري حرّ نارٍ تلفّع
فلست بمبدٍ للعدوّ تخشعًا	ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي
ولست أبالي حين أقتلُ مسلمًا	على أيّ جنب كان في الله مصرعي

ومنهم أبو فراس الحمداني الذي كتب كثيرًا من قصائده في سجنه عند الروم ومنها: (أبِيتُ كَأني لِلصَّبَابَةِ صَاحِبُ/ أقول وقد ناحت بقربي حمامة/ دَعَوْتُكَ للجَفْنِ القَرِيحِ المُسَهّدِ/ زماني كلهُ غضبٌ وعتبُ)..

ومن أشهرها وأهمها قصيدته: (أراك عصي الدمع) التي تعد من عيون الشعر العربي، ومن آيات الاعتزاز والنبل وعلو الهمة.. يقول فيها:

يَقولونَ لي: بِعْتَ السَّلامَةَ بالرَّدى	فقُلْتُ: أما و اللهِ، ما نالني خُسْرُ
وهلْ يَتَجافى عَنّيَ المَوْتُ ساعَةً	إذا ما تَجافى عَنّيَ الأسْرُ والضُّرُّ؟
هو المَوتُ، فاخْتَرْ ما عَلا لكَ ذِكْرُهُ	فلم يَمُتِ الإنسانُ ما حَيِيَ الذِّكْرُ
يَمُنُّونَ أن خَلُّوا ثِيابي، وإنّما	عليَّ ثِيابٌ من دِمائِهِمُ حُمْرُ

وقائِمُ سَيْفٍ فيهِمُ انْدَقَّ نَصْلُهُ	وأعْقابُ رُمْحٍ فيهُمُ حُطِّمَ الصَّدْرُ
سَيَذْكُرُني قومي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ	وفي اللّيلةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
فإنْ عِشْتُ فالطِّعْنُ الذي يَعْرِفونَهُ	وتِلْكَ القَنا والبيضُ والضُّمَّرُ الشُّقْرُ
وإنْ مُتُّ فالإنْسانُ لا بُدَّ مَيِّتٌ	وإنْ طالَتِ الأيامُ وانْفَسَحَ العُمْرُ
ولو سَدَّ غيري ما سَدَدْتُ اكْتَفوا بهِ	وما كان يَغْلو التِّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ
ونَحْنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عندنا	لنا الصَّدْرُ دونَ العالمينَ أو القَبْرُ
تَهونُ علينا في المعالي نُفوسُنا	ومن خَطَبَ الحَسْناءَ لم يُغْلِها المَهْرُ
أعَزُّ بَني الدُّنيا وأعْلى ذَوي العُلا	وأكْرَمُ مَنْ فَوقَ التُّرابِ ولا فَخْرُ

ومن شعراء العامية الذي كتبوا عن السجون أحمد فؤاد نجم بكثير من التميز والإبداع في طرحه، ومما كتب: تذكرة مسجون/ شيِّد قصورك/ ورقة من ملف القضية/ الطنبورة/ شقع بقع/ وغيرها..

وممن كتب كذلك بشكل متميز الشاعر الشيعي أحمد مطر الذي تناول في عدد من قصائده الإساءات البالغة للإنسان العربي في المخافر، وما يلقى في المخفر العربي الكبير من إذلال. ومن قصائده في ذلك: مكتوب/ أمير المخبرين/ الحصان/ كلب الوالي/ عملاء/ قلة أدب/ وسائل النجاة.. وغيرها كثير.

كما كتب عدد من الإسلاميين قصائد شديدة التأثير، مشحونة بالعاطفة، كانت وقودًا دافعًا للصحوة في السبعينيات، ومنها رائعتا الشيخ إبراهيم عزت رحمه الله تعالى: ملحمة الدعوة، واليوم عيد، وقصائد أخرى له كثيرة..

ورائعتا الشهيد هاشم الرفاعي المشهورة: رسالة في ليلة التنفيذ، وأرملة الشهيد تهدهد طفلها..

ولا يجب أن ننسى هنا رائعتي الشهيد سيد قطب: أخي أنت حر، و: هبل التي يقول فيها:

هبلْ.. هبل/

رَمزُ السخافةِ والعمالةِ والدَّجلْ

صيغَتْ له الأمجادُ زائفةً فصدَّقها الغَبيّْ

واستنكرَ الكذبَ الصراحَ وردَّه الحُرُّ الأبيّْ

لكنَّما الأحرارَ في هذا الزّمانِ هُمُ القليلْ

فلْيدخلوا السجنَ الرهيبْ

وليصبروا الصبرَ الجميلْ

ولْيشهدوا أقسى روايةْ

فلكلِّ طاغِيَةٍ نِهايةْ

ولكلِّ مخلوقٍ أَجَلْ!

وشعراء كثيرون آخرون.

النونية في مسيرتها الطويلة:

وفي الإطار نفسه جاءت قصيدة القرضاوي النونية في إطار أدب السجون، ورفض الظلم ومقاومته، لكنها تميزت عن غيرها في نقاط؛ منها:

- طولها الواضح، فإنها – في حدود معرفتي – أطول قصيدة كتبت في هذا السياق في القديم والحديث على الإطلاق؛ إذ جاوزت في أصلها ثلاثمائة بيت.
- الروح الوصفية والتوثيقية والتأريخية التي غالبت الروح الشعرية أحيانًا.
- احتواء القصيدة على بعض المصطلحات السائرة في السجون آنذاك، كطابور التكدير، والتعيين، والتأمين، والعروسة، والكرباج، والعصا، والألفاظ الخارجة كسبّ الدين، وأشكال التعذيب: كاستخدام الكلاب، والنفخ، وضغط الرأس بالطوق، والجلد بالكرباج، والدهن بالفازلين، والتعذيب العشوائي وغيرها.
- الروح الساخرة التي انبثت في أثنائها؛ رغم اشتداد الوطأة.
- التنقيح الذي حصل لها بعد أن تناثرت في ذواكر أناس كثيرين؛ ممن حفظوها في المعتقل، وبعض التعديلات الطفيفة التي أحدثها آخرون غير الشيخ حفظه الله.
- الأثر الكبير التي أحدثته النونية بعد أن جمعت أول مرة، ووزعت بين الحجيج، كما ذكر الشيخ حفظه الله، وبعد أن نشرت في كتب ودواوين ومواقع إلكترونية.
- إنشاد مقطوعات منها، سارت على الألسنة، ومحاكاة بعض الشعراء لها.

وللدخول إلى عالم النونية اقرأ هذه الفقرة من مذكراته (سيرة ومسيرة) لتأخذ صورة أولية عن العمل، ثم جس خلال القصيدة، التي حرصت على أن أجمع منها ما استطعت، فإنها لا تزال متناثرة، وبعضها لم ينشر في نفحات ولفحات.. يقول الشيخ حفظه الله تعالى:

أنشأت هذه القصيدة في أواخر سنة **1955**م، وللأسف لم أكتبها، وكنت معتمدًا على الذاكرة في حفظها، لأني كنت أخشى أن أكتبها، فتهاجم المباحث منزلي لسبب أو لآخر، وتفتشه، فتجد القصيدة، وقد ذكرت فيما مضى أني استُدعيت إلى المباحث ليسألوني عن هذه القصيدة خاصة.

وكان عليَّ بعد أن ذهبت إلى قطر أن أكتبها، ولكن شغلتني شواغل العمل الجديد، والبلد الجديد، والشعور بالأمن، فلم أفكر في هذه القصيدة، ولم يطلب مني أحد أن أكتبها، أو أنشدها؛ فنسيت الكثير منها، ولم يعد ما أحفظه منها مترابطًا، بل هناك فجوات بين بعض القصيدة وبعض، وقديمًا قالوا: حياة العلم مذاكرته. وقد قال شوقي:

اختلاف النهار والليل ينسي

وهنا كان عليّ أن أبحث عن الإخوة الذين كانوا يحفظون القصيدة؛ ممن كانوا معي في السجن الحربي، ومنهم أخوان كريمان من إخوان طنطا، وهما: سعد زين العابدين سلامة، أصغر طالب كان في السجن الحربي، وكان في الشهادة الثانوية، وزميله فؤاد قنديل، وكان في السنة الأولى في كلية الصيدلة، وكان مشهورًا بقوة الذاكرة، وسرعة الحفظ، حتى إنه حفظ القرآن كله – وهو في السجن الحربي – في أقل من سنة!

وقد علمت أن كلاً منهما – سعدًا وفؤادًا – قد غادرا مصر منذ سنوات إلى ألمانيا، واستقرا فيها، وأكملا دراستهما بها، وتزوجا من ألمانيتين، بعد أن صمما ألا يعودا إلى مصر، بعد تجربة السجن الحربي، إلا أن تتغير الأوضاع فيها، وتهب على الناس رياح الحرية، التي ينعمون بها في بلاد الإفرنج، وقد طعموا فيها من جوع، وأمنوا من خوف.

وبالسؤال والبحث عرفت عنوان الأخ سعد، وطلبت إليه أن يرسل إليَّ كل ما يحفظه من النونية، ويستعين بالأخ فؤاد، وبكل من يعرف من نزلاء السجن الحربي.

وكان سعد – حفظه الله – عند العهد به، فراسل إخوانه، وهاتفهم هنا وهناك، وبعث إليَّ بنحو مائة وتسعين بيتًا من القصيدة، وهي أكثر من ثلاثمائة في الأصل، وبإضافتها إلى ما أحفظه – مما لم يرسلوه إليَّ – أمكن إعادة بناء القصيدة أو الملحمة، ولكن بقيت فيها فجوات، اجتهدت أن أملأها (بما يفيض به الخاطر)،

وإن لم يكن – غالبًا – في قوة الأصل الذي ظهر في السجن متدفقًا كالسيل، سلسًا عذبًا كالماء الزلال.

واكتملت القصيدة في نحو ثلاثمائة بيت، وقدمت لها، وعلقت عليها بما يفي بالمقصود من نشرها؛ وإن تبين لي بعد ذلك أن بعض الإخوة من زملائنا في السجن الحربي، يحفظ منها أبياتًا، لم تودع في القصيدة!

وأذكر أني كنت ليلة في الإسكندرية، وقام أحد الإخوة الدعاة – الأستاذ محمد عبد المنعم – وألقى كلمة ضمنها أبياتًا كثيرة من النونية، مما لم يوجد فيما نشرته منها. وفي هذا الصيف (صيف 2003) كنت مدعوًّا على غداء مع عدد من الإخوة، ففوجئت بالأستاذ أحمد أبو شادي، وقد كان زميلاً لنا في السجن الحربي، ومن رواة القصيدة، ينشد أبياتًا مهمة من النونية، معظمها مما لم ينشر.

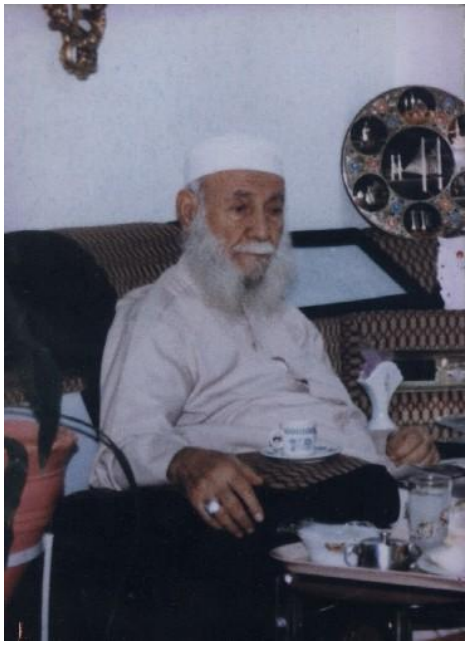

وقد أرسلتها إلى الإخوة في المملكة، وراجعها عدد من الإخوان الشعراء، مثل الأستاذ محمد المجذوب الأديب السوري الشاعر الداعية، وقد حوروا أشياء قليلة منها، فقد كان آخر القصيدة يشتمل على دعوات أناجي فيها الله جل ثناؤه، وأسأله كشف الغمة، وتفريج الكربة التي نحن فيها، وكان منها:

يا رب خلصنا من ابنَيْ سالم	ومن ابن عبد الناصر المفتون
يا رب إن السيل قد بلغ الزبى	والأمر في كافٍ لديك ونون
باسم الفراخ الزغب هيض جناحها	فقدوا الأب الحاني بغير منون
بدموع زوج غاب عنها زوجها	وبكل دمع في العيون سخين

فرأى الإخوة تغيير البيت الأول من هذه المناجاة، لما يشتمل عليه من أسماء أشخاص، وعدلوه إلى هذه الصيغة العامة:

يا رب خلص مصر من أعدائها وأعن على طاغوتها الملعون

وأحسب أن هذا من صنع الأستاذ المجذوب رحمه الله.

نشرت القصيدة ضمن كتاب اختار له الإخوة عنوانًا وهو (نافذة على الجحيم) يقصدون جحيم السجن الحربي، وما احتوى من عذاب وأهوال جسام، ونشروا القصيدة تحت عنوان: (مشاهد من الجحيم).

أزعجت هذه الحملة الإعلامية المكثفة السلطات المصرية، لما قدمته من حقائق ووثائق، وشهادات عدول، بأسلوب قوي مؤثر، وقد وُزِّع منها عشرات الآلاف، على مختلف الحجيج من أنحاء العالم، وقد كان عبد الناصر حريصًا على تحسين صورته في العالم، ويبذل إعلامه جهودًا جبارة في ذلك، وتنفق عليه الملايين بسخاء. ولكن هذه الحملة أبطلت سحر إعلامه، وألغت أثره.

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

ولقد قال أحد الحكماء: تستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت!

ماذا في النونية؟

فماذا في القصيدة النونية، أو الملحمة كما يحلو لبعض الناس أن يصفوها؟

وبأي الطرائق لجأ الشاعر القرضاوي لمواجهة الظلم، وتعريته، وفضحه، في قصيدة كتبها مطالع شبابه، ومر عليها أكثر من نصف قرن، لكنها لم تزل ناجحة في إبقاء صورة السجن، والجلاد، والتعذيب، والزنزانة، وكاشفة بشاعة تغوّل الظلم، وجهل العسكر وجاهليتهم، وجهاد الصادقين وثباتهم؟

هذا ما سأضعه في تعليقات موجزة تضيء ما أمكن من محتوى هذه القصيدة، مع اجتنابي التكرار، أو التقريرية؛ ما أمكنني ذلك:

نبوءة تحققت:

كأنما كان القرضاوي الشاب في أواخر عقده الثالث يتوقع أن نونيته الماراثونية ستبقى وتدوم لتقرأها الأجيال، فهو يتجاوب مع طلب من حوله أن يكتب شعرًا، يخلد فيه من الذكريات وجيعها، ويحرك به في القلوب شجونها، بعد أن ثار الشعر في صدره، واحتاج أن ينفس عما يجيش فيه:

ثار القريض بخاطري فدعوني	أفضي لكم بفجائعي وشجوني
فالشعر دمعي حين يعصرني الأسى	والشعر عودي يوم عزف لحوني
كم قال صحبي أين غر قصائد	تشجي القلوب بلحنها المحزون
وتخلّد الذكرى الأليمة للورى	تتلى على الأجيال بعد قرون

ملاك الشعر:

لم أسمع – للحق – بمصطلح ملاك الشعر قبل أن أقرأه عند الشيخ حفظه الله، فقد جرت عادة الشعراء أن يجعلوا للشعر شيطانًا يوحي لهم إبداعهم – لا ملاكًا – كالشيطان المشهور الذي كان يهز وجدان عَبيد بن الأبرص، والذي قالت العرب فيه: (ومَن عبيد لولا هبيد!؟)، حتى قال الشاعر:

تُخيِّرني الجنَّ أشعارها فما شئت من شعرهن اصطفيت

وينسبون لسيدنا حسان رضي الله تعالى عنه قوله:

وَلي صاحِبٌ مِن بَني الشَيصَبانِ فَطَورًا أَقولُ وَطَورًا هُوَه

لكنني مع هذا لن أنساق وراء تهويمات الشعر والشاعر، وأجعل له شيطانًا أو ملاكًا، فهذا نتاج عقل الشاعر وحده، اللهم إلا إذا كان ذلك الذي لا يأمر إلا بخير، وشعر من هذا النوع هو من الخير ولا شك..

وشاعرنا الواثق من اقتداره الشعري، وتمكنه من ناصيته، يخبرنا أنه لا يتكلف قول الشعر، بل إنه ليأتيه إلهامًا صادقًا يخرج من قلبه، ويخبرنا أنه عاشق للنون؛ قافيةً تحلو في فمه، حتى إنه جعلها رويًّا لأكثر من سبع عشرة من قصائده – غير المقطّعات – لكنه أيضًا ليس أسير النون؛ بل قديرًا على التمادي مع القوافي الصعبة، والمفردات الحرون:

ما حيلتي والشعر فيض خواطري	ما دمت أبغيه ولا يبغيني؟
واليوم عاودني الملاك فهزني	طربًا إلى الإنشاد والتلحين
أُلهمتها عصماء تنبع من دمي	ويمدها قلبي وماء عيوني
نونية والنون تحلو في فمي	أبدًا فكدت يقال لي ذو النونِ
صورت فيها ما استطعت بريشتي	وتركت للأيام ما يعييني
ما همت فيها بالخيال فإن لي	بغرائب الأحداث ما يغنيني

العصابة:

لست أدري لماذا يعول كثير من المفكرين والعلماء على ذاكرة التاريخ الراصدة، وينسبون إليه الإنصاف؛ إذا تمكن من الظلم الظالمون، واستقر أمر الطغاة، وعلا الجبارون، وماتت شعوب، وانقهرت أمم، وسيم برآء الخسف والمهانة، والقمع، وسوء العذاب، فجاء التاريخ وقال إن هؤلاء ظلموا وأولئك ظلموا؟!

ما الفائدة من ذلك كله؟ وماذا جنى المقموعون والمعذبون والمنتَهكون؟!

وما ضر نيرون أو فرعون أو هتلر أو شارون أو حمزة البسيوني – أو جلادي الأرض مجتمعين – أن يقول الناس عن أحدهم إنه ظالم، إذا قال آخرون – ممن فرعنوهم وأمْلَوا لهم وأعانوهم – إنه أعدل العادلين، وأنبل الحاكمين؟!

إن الأوْلى أن نعتمد هنا – فقط – عقيدة المؤمن في عدالة الخالق المقتدر، الذي

لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، سبحانه وتعالى:

وكفي بربك للخليقة محصيًا في لوحه وكتابه المكنون

هذا هو مقياسي، وهذه هي قناعتي بعد أن رأيت التاريخ يعطي جوائز نوبل عددًا من أمثال بيجن ورابين وشارون، ويعتبر قتلة الشعوب وأساتذة التعذيب والبطش في عداد العظماء، ويصف بالإرهاب أبطالاً كسيد قطب، عبد القادر عودة، والقرضاوي، وأحمد ياسين، والرنتيسي، ومشعل، وهنية، وأشباهم!

على كل حال دعك قارئي العزيز من رأيي هذا، ولا تلتفت له إن شئت، وتأمل ماذا يرصد القرضاوي الشاعر في نونيته، وانتبه لتعابيره مثل: حسبوا الزمان أصم أعمى/ قد نوموه بخطبةٍ/ يراعة التاريخ تسخر/ تقوم بالتسجيل!

وانتبه لاستدعائه التاريخ من خلال نيرون، واستدعائه المعتقَد بذكر اللوح والقلم:

أحداث عهد عصابة حكموا	بني مصر بلا خلقٍ ولا قانون
أنست مظالمهم مظالم من خلوا	حتى ترحمنا على نيرون
حسبوا الزمان أصمّ أعمى عنهمُ	قد نوّموه بخطبةٍ وطنين
ويراعة التاريخ تسخرُ منهمُ	وتقوم بالتسجيل والتدوين
وكفي بربك للخليقة محصيًا	في لوحه وكتابه المكنون

قبل أن تقرأ:

وعلى طريقة الإعلام المعاصر، في التنبيه على بعض اللقطات العنيفة، والقاسية، التي لا يحتمل رؤيتها الصغار وضعاف القلوب، ينبه القرضاوي القارئ، بعبارات بليغة، مثل: أمسك بقلبك/ يطير مفزعًا/ وتول عن دنياك/ تسمو على التصوير.. خطب الشرق المسكين:

يا سائلي عن قصتي اسمع إنها	قصص من الأهوال ذات شجون
أمسك بقلبك أن يطير مفزعًا	وتولّ عن دنياك حتى حين
فالهول عاتٍ والحقائق مرةٌ	تسمو على التصوير والتبيين
والخطب ليس بخطب مصر وحدها	بل خطب هذا المشرق المسكين

بالتاريخ، والساعة، والحركة:

في ليلة ليلاء من نوفمبرٍ	فُزعت من نومي لصوت رنين
فإذا كلاب الصيد تهجم بغتةً	وتحوطني عن شمألٍ ويمين
فتخطفوني من ذوي وأقبلوا	فرحاً بصيدٍ للطغاة سمين
وعزلت عن بصر الحياة وسمعها	وقذفت في قفص العذاب الهون

في الحربي – هدمه الله وأشباهه – العساكر والكلاب زملاء وأقران:

لأدع قلم الشيخ هنا ينشر ما كان، ثم يصفه شعًرا، لشدة ما حدث، ولتكرره، وتحوله إلى نمط حياة تقليدي، تعيشه الشعوب المنكوبة في أقطار كوكبنا السعيد:

عندما دخلت باب السجن الحربي كان جنود السجن يرقبوننا على أحر من الجمر، ليستقبلونا بالتحية اللازمة لأمثالنا: بالكرابيج تلهب ظهورنا، وبالشتائم تخرق أسماعنا، وبالمشاهد الرديئة تؤذي أبصارنا.

كان الوطيس لا يزال حاميًا، والرحى الطحون تدور بقوة، لا تطحن الحب، بل تطحن البشر تحت حجريها: التعذيب البدني، والإهانة النفسية؛ إذ المقصود أن يسلخ الناس من آدميتهم، وأن يعاملوا كأنهم مواشٍ في حظائر، لا حرمة لهم ولا كرامة ولا حقوق؛ على أن المواشي في الحظائر يجب الرحمة بها والعناية بها، وإلا احتجت لأجلها جماعات الرفق بالحيوان في العالم؛ أما نحن فلم نر، ولم نسمع، ولم نقرأ أن أحدًا احتج لما نلقاه من عذاب وهوان.

وتأمل قوله: حسبك باسمه/ باعث للرعب/ تحتسبه ظنوني/ في كل شبر للعذاب مناظر/ يندى لها/ العساكر والكلاب معدة/ وزميلها يعدو/ سوطه المسنون:

في ساحة (الحربي) حسبك باسمه	من باعث للرعب قد طرحوني
ما كدت أدخل بابه حتى رأت	عيناي ما لم تحتسبه ظنوني
في كل شبر للعذاب مناظرٌ	يندى لها والله كل جبين
فترى العساكر والكلاب معدة	للنهش طوع القائد المفتون
هذي تعض بنابها.. وزميلها	يعدو عليك بسوطه المسنون

اندهاش ومفاجأة:

أرجو أن تتأمل هنا قوله: كأنها.. بضع سنين/ ما دهان!؟/ برزت كواسرها جياع بطون/... شقي رحى جبارة/ للمؤمنينِ طحون/ أم تلك دار خيالة/ عين يقيني/ مقدمة الكتاب/ الفصول السود... إلخ:

ومضت علي دقائق وكأنها	مما لقيت بهن بضع سنين
يا ليت شعري ما دهانِ؟ وما جرى؟	لا زلت حيًّا أم لقيت منوني؟
عجباً أسجن ذاك أم هو غابةٌ	برزت كواسرها جياع بطون؟
أأرى بناء أم أرى شقي رحى	جبارة للمؤمنين طحونِ؟
واهًا أفي حلم أنا أم يقظةٍ	أم تلك دار خيالة وفتون؟
لا لا أشك هي الحقيقة حية	أأشك في ذاتي وعين يقيني؟
هذي مقدمة الكتاب فكيف ما	تحوي الفصول السود من مضمون؟

مواصفات الجلاد وقادته، وهيئة حفل الاستقبال:

لا شك أن الجلادين الذين يتفننون في تعذيب البشر وانتزاع الصرخات من حلوقهم قوم قد أعدوا إعدادًا خاصًّا، وأُهلوا فيه تأهيلاً يلغون من خلاله عقولهم وآدميتهم وعواطفهم، كما دربوا بشكل أعمى على طاعة الأوامر؛ مهما بدت شاذة وغريبة وغير إنسانية.. ويتمادى بهم الأمر حتى يصيروا ضباعًا في غرائزهم وخستهم، فربما عذب أحدهم ابنه أو أخاه أو أباه أو أخلص خلصائه، دون أن يطرف له جفن، أو تسري في خلاياه قشعريرة آدمية.. وقصص هؤلاء لا تخفى، وحكاياتهم متواترة سائرة.

وكان أساتذة التعذيب القدامى يتعلمون من معتقلات أوربا الشرقية والكتلة الشيوعية، حتى انتقل الأمر للدول المدافعة عن حقوق الإنسان، لتحمل راية قيادة فنون التعذيب، وصناعة أدواته، وإهدائها بلا ثمن لمعاقل الدكتاتوريات، ومواطن انتهاك آدمية الإنسان حول العالم!

وقد نشر عن ذلك كتب شديد الأهمية، بعنوان: الدولة المارقة، من تأليف وليام

بلوم، تحدث فيه في أحد فصوله عن الدولة (الحرة، راعية حقوق الإنسان) التي تنتج أدوات التعذيب، وتقدمها للدكتاتوريين حول العالم، وتوفر لهم دروسًا منظمة في أساليب التعذيب وفنونه، وفي قطع الألسنة، وتحطيم العظام، والتذويب في الحمض، وسلخ الجلد، والتفنن في إطالة الألم ساعات! قاتلهم الله ورفع عن البشرية شرهم!

فماذا يقول القرضاوي عما رآه وموسر معه من التعذيب في الحربي (ولا يخفى أن في العالم الإسلامي مليون حربي، ومليون أبو غريب، ومليون جوانتانامو بأسماء مختلفة) وتأمل قوله: أعدوا للأذى/ فنه الملعون/ عقولهم بأكفهم/ وأكفهم للشر ذات حنين/ كل أداة:

هذا هو (الحربي) معقل ثورة	تدعو إلى التحرير والتكوين
فيه زبانية أعدوا للأذى	وتخصصوا في فنه الملعون
متبلدون عقولهم بأكفهم	وأكفهم للشر ذات حنين
لا فرق بينهمو وبين سياطهم	كل أداة في يدي مأفون

جرعة تعذيب أولى في حفل الاستقبال:

إن الجلادين ساديون، شواذ، مجردون من الآدمية، يستقبلون المعتقل عنوة للحربي – بغض النظر عن سنه وصحته وقيمته العلمية والاجتماعية – في فرح وانتشاء، ليس بالورود والتحايا، بل (بالرجلِ بالكرباجِ باليدِ بالعصا)، دون تمييز ولا عقل ولا رحمة.. وتأمل قوله: يتلقفون القادمين/ عقل سقراط/ زهد عيسى/ تقى هارون/ وهو محطم/ كالعرجون/ وطئوا عمامته بكل مجون/ لو لم تكن بيضاء/ لحية أغرتهمُ بالسب/ انتفها!

تأمل وقل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

يتلقفون القادمين كأنهم	عثروا على كنزٍ لديك ثمين
بالرجل بالكرباج باليد بالعصا	وبكل أسلوبٍ خسيسٍ دونِ

لا يَقدُرون مفكرًا ولو أنه	في عقل سقراط وأفلاطون
لا يعبؤون بصالحٍ ولو أنه	في زهد عيسى أو تقى هارون
لا يرحمون الشيخ وهو محطمٌ	والظهر منه تراه كالعرجون
لا يشفقون على المريض وطالما	زادوا أذاه بقسوةٍ وجنون
كم عالمٍ ذي هيبة وعمامةٍ	وطئوا عمامته بكل مجون
لو لم تكن بيضاء ما عبثوا بها	لكنها هانت هوان الدين
وكبيرِ قومٍ زينته لحيةٌ	أغرتهمو بالسبِّ والتلعين
قالوا له: انتفها؛ بكل وقاحةٍ	لم يعبؤوا بسنينه الستين
فإذا تقاعس أو أبى يا ويله	مما يلاقي من أذىً وفتون

تصنيف نعذر الشاعر عليه:

ولأن للشعر، والشباب، وملابسة الحدث ضروراتها، فقد استخدم الشاعر ألفاظًا ليست من طبيعة تفكيره ولا سلوكه، لكنها تنبع من فقه الأزمة، وضغط الظروف الشديدة، كما قال مشايخنا، انظر إليه وهو يقول:

أترى أولئك ينتمون لآدمٍ	أم هم ملاعينٌ بنو ملعون؟
تالله أين الآدمية منهمو	من مثل محمودٍ ومن ياسين
من جودة أو من دياب مصطفى	وحمادةٍ وعطية وأمين
لا تحسبوهم مسلمين من اسمهم	لا دين فيهم غير سبّ الدين

حمزة البسيوني:

ويجسد القرضاوي زعيم عصابة الجلادين حمزة البسيوني (ما اعرفوش والله) في صورة وصفية دقيقة، تذكرنا بقطّاع الطرق، والهجامين، والخارجين على القانون، بالتركيز على معالم وجهه الذي يعكس الحقد والقسوة والكبر الجاهل، وذلك الشج في خده، الذي يشبه ما في وجوه البلطجية والسفاحين، فهل يمكن أن تقبل النفس السوية رؤية مثل هذا الوجه؟

وقبل أن تقرأ وصفه شعرًا، اقرأ نثرًا ما قال في مذكراته عن حمزة البسيوني:

الناس كل الناس هنا خانعون خاضعون، لا يملكون أن يقولوا: لم؟ بله أن يقولوا: لا. فقد أعاشوهم في رعب رعيب، أخرس الألسنة، وزلزل القلوب، وشل الأيدي.

هنا واحد فقط هو الحاكم بأمره، الذي لا يحاسب على ما يقول، ولا يجازى على ما يقترف، بل لا يسأل عما يفعل، فله كل سلطة الإله، عز وجل وتعالى!

إنه (الباشا) قائد السجن حمزة البسيوني، الذي يتحدى القانون، ويتحدى النظام، ويتحدى الدين، ويتحدى كل شيء، حتى الله – تعالى – في عرشه، فقد رد على بعض الإخوة حين قالوا: يا رب، يا رب، قال: هاتوا لي ربكم وأنا أحطه في زنزانة!

لعنه الله وأخزاه، وكلما رأيته تذكرت قول الله تعالى: {كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار}.

وفي موضع آخر من المذكرات يقول عنه: لا غرو أن تجد في مصر مثل حمزة البسيوني، الذي جعله عبد الناصر قائدًا للسجن الحربي، وهو رجل يتفجر الشر من جميع جوانبه، فلا يفكر إلا في الشر، ولا ينوي إلا الشر، ولا يتكلم إلا بالشر، ولا يفعل إلا شرًّا!

إنه من نوع قابيل الشرير الذي قتل أخاه بلا ذنب جناه، فهو رجل فارغ الرأس من الفكر والثقافة، فارغ القلب من الإيمان والعاطفة، فارغ النفس من الطموح إلى المعالي، حرم الخشية من الله، والحياء من الناس، فلا يخاف الله، ولا يرحم عباده!

ونظرًا لشعوره بالنقص الكامن في ذاته أراد أن يكمله بادعاء القوة، والظهور بمظهر الجبروت، وعلى من؟ على من لا حول له ولا قوة، على أسراء سجناء لديه، جردوا من كل سلاح، ومن كل قوة. والتجبر على من لا حول له ولا قوة شأن الضعفاء المهازيل الأخسّاء.

ولو أن حمزة هذا خلع بِزته العسكرية، وخرج من دائرة نفوذه، وتعامل مع الناس بشخصه وملكاته، فكم يساوي في الناس؟ إنه لا يساوي صفرًا.

ومن نكد الدنيا على الأحرار الشرفاء أن يتحكم في مصيرهم مثل هذا الأحمق الفاجر، المستكبر في الأرض بغير الحق، بل المتأله، الذي أعطى لنفسه سلطان

الألوهية، حتى قال ما قال نمرود من قبل لإبراهيم حين حاجه في ربه سبحانه: أنا أحيي وأميت!

Alwafd
دراسات
15
غدا ٢٩ عاما على مصرعه فى حادث غامض:
اللواء حمزة البسيونى.. العسكرى الأسود!!
بتكرار أحداث وسائل التعذيب وتفننن
فى قتل ضحايا النظام الناصرى بالسجن الحربى

وممـــا لا يدريـــه كثيـر مـن النـاس أن حمـزة البسـيوني هـو ابن الشيخ البسيوني (رئـــيس المحكمـــة الشرعية العليا) – والعهدة على الشيخ محمد عبد الله السمان – ويدهش القارئ من أن نجلاً لعالم كبير يصبح جلادًا، ويقول للمساجين في سخرية: إن الله "بتاعكم" لو نزل لوضعته معكم في الزنزانة..

فلا ينس القارئ أن ابن نوح، الرسول ومن أولي العزم من الرسل، كان كافرًا ومن الذين التهمهم الطوفان..

وأن موسى عليه السلام الذي تربّى في بيت فرعون مدّعي الألوهية، صار رسولاً ومن أولي العزم من الرسل..

وأن موسى السامريّ الذي خشيت عليه أمه المذبحة الفرعونية، فخبّأته في كهف، وتولّى جبريل رعايته، هذا السامريّ هو الذي منح لبني إسرائيل في غيبة موسى لمناجاة ربه عجلاً جسدًا له خُوار، وأمرهم أن يعبدوه!

ثم أتدري كيف مات حمزة؟!

لقد اصطدمت سيارته، وهو خارج من القاهرة إلى الإسكندرية، بشاحنة تحمل كمية من أسياخ الحديد، التي اخترقت جسمه، من أعلى رأسه إلى أحشائه، وعجز المنقذون أن يخرجوه إلا قطعًا!

هكذا أهلكه الله بالحديد، وهو الذي كان يقول إنه سيضع الله في الحديد، تعالى الله عما يقول الظالمون.

وأرجو هنا أن تتأمل ألفاظ القرضاوي في وصف حمزة: لا دين يردع/ لا ضمير محاسب/ قانوننا هو حمزة/ سوط عذابهم/ قمطرير حاقد/ مستكبر العرنين/ ترى من خلفه نفسًا معقدة/ متعطش للسوء/ في الدم والغ/ في الشر منقوع/ به معجون:

لا دين يردع لا ضمير محاسبٌ	لا خوف شعبٍ لا حمى قانون
من ظن قانونًا هناك فإنما	قانوننا هو حمزة البسيوني
جلاد ثورتهم وسوط عذابهم	سموه زورًا قائدًا لسجون
وجه عبوس قمطرير حاقدُ	مستكبر القسمات والعرنين
في خده شجٌ ترى من خلفه	نفسًا معقدةً وقلب لعين
متعطشٍ للسوءِ في الدم والغِ	في الشرّ منقوعٍ به معجونِ

مصطفى أمين وحمزة البسيوني:

واستطرادًا في المعلومات (الشحيحة) حول الجلاد المجرم حمزة البسيوني، أنقل ما كتبه مصطفى أمين في سنة أولى سنة، قال:

وكان حمزة البسيوني هو المشرف المباشر على علميات التعذيب، والشخصية الثانية الموجودة في السجن الحربي، طاغية ومتجبر. رجل طويل القامة، أبيض اللون، وأبيض الشعر، بشارب كثّ .. يسمونه "الوحش".

لقد انتزع الله من قلبه شيء اسمه الإنسان والرحمة، كان السجن الحربي بمثابة مسلخ لإثبات التهم الملفقة، سوف يستمر التعذيب لكل واحد حتى يعترف بكل التهم الجاهزة له، أو يموت، ثم يُدفن في صحراء السجن الحربي المجاورة، ويُعلن في الصحف أنه هرب. محاولة الصبر والتغلب على ألم التعذيب تنتهي بالموت مُعلقًا من الأقدام، أو العودة من غرفة الاعتراف إلى غرف التعذيب مرة أخرى!

أحمد فؤاد نجم وحمزة البسيوني:

ومما قاله عنه الشاعر الشعبي أحمد فؤاد نجم، حين قابله في السجن الحربي (سجيبًا لا سجانًا/ وأرنبًا لا أسدًا/ وخائفًا لا مخوفًا.. يقول أبو النجوم، بلغته العامة المعتادة، في فقرة بعنوان: حمزة البسيونى بعبع السجن الحربى:

وكان معانا – من فرقة المشير عبد الحكيم عامر – اللواء حمزة البسيوني، مدير

السجن الحربي على أيام صلاح نصر الرهيب!

وما تعرفش بقى دا ترتيب ربنا، ولا ترتيب أمن الدولة إنهم يعتقلوه مع مجموعة من ضحاياه أيام السلطة والجاه والجبروت! فبقى يتعامل فى المعتقل – ومن زمايله المعتقلين – معاملة الكلب الأجرب، يعنى مثلا اتنين من بهوات المعتقلين قاعدين بيلعبوا دور شطرنج، وملموم حواليهم كل من له علاقة بلعبة الشطرنج! ودول ما بيقدروش يحوشوا نفسهم عن الكلام «حرك الطابية» «كلُه بالفيل» «كشِّشُه ملك» وفجأة قال حمزة البسيونى «ضحي بالوزير» وإذا بمحمود بيه اللطيف أو المستشار محمود عبد اللطيف يصرخ في وجه حمزة البسيوني:

– اسكت إنت.

– فيجيب حمزة البسيونى بصوت مهذب ومتهدج: – ليه بس يا محمود بيه؟

فيهب محمود بيه عبداللطيف وينقض على حمزة البسيونى ويصفعه بعنف وهو يقول: – من غير ليه يا ابن الكلب يا مأبون!

والمدهش فى الأمر إن ما فيش صريخ ابن يومين من اللى قاعدين تدخل، وكان بعضهم يضحك في سره!

أنا بقى بالصلاة على حضرة النبي لقطت الخيط، ما سبتوش، كل ما ألاقيه ماشي أو واقف أو قاعد لوحده أستلمه:

– بس أنا يا حمزة بيه شايف إن محمود بيه محمل عليك شويتين زيادة.

– دا راجل جهول وجلنف.

قلت له مندهشًا:

– محمود بيه؟

– قال لي: هو زفت بيه. دا راجل مابيفهمش وعايش لي في الأوهام بتاعة الإقطاعيين «العاطلين بالوراثة» مش عايز يفهم إن الدنيا اتغيرت.

– قلت له بصوت ودود: أيوه يا حمزة بيه هى فعلا الدنيا اتغيرت بس اتغيرت للأحسن ولا للأسوأ؟

حمزة يريد الصلاة!

وكان لقائى الأول بحمزة البسيوني ساعة صبحية/ كنت رايح دورة المياه، لقيت المخبر فتوح واقف بره الدورة، وقال لي:

– حمزة البسيونى جوّا! بيتوضا عشان يخطف ركعتين الصبح، بس إوعى تمد إيدك عليه أحسن أنا اللي أتئذي!

دخلت دورة المياه لقيت حمزة البسيوني مشعلق رجله الشمال، وحاططها في الحوض تحت الميه.. رحت هاجم عليه وماسك رجله اللي في الحوض، ومنزلها على الأرض بقوة وقلت له:

– إنت بتعمل إيه يا ابن الـ.....؟

– قال لي وهو مرعوب مني:

– باتوضا.. إيه ممنوع الوضوء؟

– قلت له: إنت فاهم إن ربنا هيسيبك؟! ده هيوريك أيام سوده دنيا وآخرة.

هو أول ما رجله لطت الأرض، وحمامة خدها جرى لحد ما نزل العنبر التحتاني، ودخل زنزانته وقفلها عليه.. أتاري إدارة المعتقل بتتمنى المعتقلين يقعوا في بعض، ويقول لك: ممكن تسقط معلومة أثناء الشجار، زي ما حسن أبو باشا كان بيقول للمخبرين:

– إذا حسيت إنهم حيستعملوا إديهم مع بعض سيبهم، وقف بعيد، اسمع وشوف واللي تسمعه تيجي تبلغه لي بحذافيره! ومالكش إنت دعوة بالباقي! الباقى علينا إحنا يا كبار!

وكان بعبع السجن الحربى حمزة البسيوني كله على بعضه ييجي بالكتير خمسين كيلو، وكان جلده أحمر زى الأتراك، ومرّة كان داخل في جدل مع اللواء طيار محمد صفوت، وانتهى الجدل بجملة اللواء صفوت لحمزة البسيوني:

– يا راجل اتقندل على منظرك! دا إنت شكل الراجل اللي ع العلبة البحاري.

المحامي ثروت الخرباوي وحمزة البسيوني:

ومما يَتعظ به، ويُطَمئن قلبَه أن للكون ربًّا عادلاً تبارك وتعالى، ما جرى لحمزة البسيوني بعد موته، فهاك هذه النهاية العجيبة التي رواها المحامي ثروت الخرباوي،

هداه الله وأصلحه، أو كفى الناس شره، ونشرها في (المصريون): بتاريخ 21 – 10 – 2009 بعنوان: لنسفعًا بالناصية، وهي نهاية عجيبة صادمة، ينبغي أن يقرأها كل جبار عنيد، فليسمح لي الأستاذ ثورت أن أنقلها كما هي؛ لدلالاتها الكثيرة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد:

(كما تدين تدان) (دخلت امرأة النار في هرة عذبتها) ليست هذه مجرد كلمات نسمعها ونتفاعل معها ونهز رؤوسنا من فرط التأثر بها، ولكنها في الحقيقة.. حقيقة.. قانون.. ناموس من النواميس التي أرادها الله للكون.. وقد يظن بعض اليائسين أو الجاهلين لقوانين الله تعالى في خلقه أن الظالم من الممكن أن يفلت بظلمه.. وقد كنتُ ذات يوم غافلاً عن حتمية هذه القوانين.. أؤمن بها إيمانًا شكليًّا أو هامشيًّا، لم يتغلغل في ضميري أو يخالط العلم المستكن في فؤادي، إلى أن حدث ما أذهلني، وزلزل مشاعري، وأيقظ ضميري، فإذا بي وكأن الحجب تكشفت، وكأنني أرى عيانًا بيانًا مصارع الظالمين!

كانت البداية في أواخر السبعينات وفي أغلب الظن كنا في عام 1978 وكنت وقتها طالبا بكلية الحقوق جامعة عين شمس أسعى في مناكبها وأنشطتها ومدارجها، وقد جمعتني أروقة الجامعة بالعديد من الأصدقاء.. منهم من كان ينكب على مناهج الدراسة وحضور المحاضرات وهؤلاء كنا نطلق عليهم اسم (شلة البؤس)، ومنهم من كان مثلي يتنقل بكل كيانه بين الأنشطة ومجلات الحائط واللجان الطلابية والأسر والمظاهرات. وقد كان الفريق الآخر يطلق علينا اسم (شلة الأنس)!

أما الشلة بفريقيها فقد كانت مشهورة في الجامعة آنذاك باسم (شلة النمس)!

ولا أعرف سببا لهذه التسمية التي جعلت شلتنا ذائعة الصيت، وعندما يدخل الصيف وننتهي من امتحاناتنا كنا نحمل أمتعتنا ونذهب إلى مدينة الإسكندرية نقضي بها أسبوعًا أو أسبوعين، لا نحمل إلا قروشًا قليلة، ولكننا كنا بها نملك الدنيا بأسرها، وليس يهم بعد ذلك أن نتطفل على أحد الأصدقاء من أهل الإسكندرية، فنبيت عنده ليلة، ونقضي عنده يومًا أو بعض يوم، ثم نتطفل على بعض الأقارب يوما أو بعض يوم.. المهم أننا كنا لا نحفل أين ننام؛ فحيث ينتهي بنا المقام يكون نومنا.

وفي هذا الصيف الذي أحدثكم عنه حططنا الرحال عند صديقنا مجدي الاسكندراني، وهو أحد أصدقاء الشلة، كان سكنه الأصلي في منطقة سيدي بشر، عند شارع خالد بن الوليد، في عمارة صغيرة يمتلكها والده رحمه الله.

وكان أثناء العام الدراسي يقطن في منطقة الزيتون بالقاهرة في شقة تمتلكها أسرته حيث كان والده منذ عهد جمال عبد الناصر يشغل وظيفة حساسة بمؤسسة الرئاسة.

وفي شقة صغيرة من شقق العقار المملوك لأسرة صديقنا مجدي بسيدي بشر كانت إقامتنا، وكانت هذه الشقة في الأصل يقيم فيها محيي شقيق مجدي، والذي كان طالبًا وقتها في كلية طب الإسكندرية، وكان قد أعد هذه الشقة ليستذكر فيها دروسه هو وأصدقاؤه من طلبة الطب، وكنا نعلم أنه جعل من إحدى حجرات المنزل مشرحة متكاملة، يستجلب فيها جثامين بشرية، أو بعض أجزاء من جثث لغرض التشريح الطبي والاستذكار عليها.

وفي اليوم الأول لإقامتنا كانت هناك مباراة دولية في كرة القدم في نهائي كاس العالم وجلسنا نشاهد المباراة في الوقت الذي كان فيه محيي شقيق مجدي يصطاد كعادته، بعدة الصيد ولباس الغوص بحسب أنه كان محترفًا في ذلك؛ السمك الذي سيكون طعامنا في الغداء والعشاء!

كانت مباراة الكرة محتدمة وكانت الأنظار معلقة على جهاز التلفزيون، وكان بعضنا شرها في شرب السجائر، وكان لا يني يطفئ سيجارة في عقب سيجارة، ويضع ما يتبقى من أعقاب السجائر في منفضة (مطفأة سجائر) غريبة الشكل والتكوين موضوعة على منضدة جانبية، ولسبب لا أعلمه حانت مني التفاتة لهذه الطفاية، وأخذت أتفرس فيها، ثم قفزت صارخًا وجسدي يرتعش؛ فقد كانت تلك المنفضة (المطفأة) قطعة من جمجمة بشرية!

نظر إليّ الأصدقاء وهم لا يفهمون سببًا لصياحي، فلم يكن أحد في المباراة

قد أحرز هدفًا أو أضاع هدفًا، كما أنهم يعرفون أنني لست من الذين ينفعلون في مباريات الكرة!

وبدون أن أتكلم أشرت لهم نحو مطفأة السجائر وعندما نظروا إليها بإمعان قفز صديق لنا يدعى عز الدين (وهو الآن مستشار بمحكمة النقض) وخرج من الغرفة فزعًا مسرعًا لا يلوي على شيء؛ إلا أن مجدي أعاده مرة أخرى، وقال لنا متعجبًا من فزعنا:

ما الذي أصابكم؟!! هذه مجرد جمجمة من جماجم محيي التي كان يستجلبها لدروس التشريح، وقد قام بتوضيبها، وقسمها قسمين: حيث جعل من هذا القسم مطفأة للسجاير، وأعطى النصف الآخر لصديق له جعلها إناء وضعه في قفص للعصافير!

كان من الطبيعي أن تتعكر أمزجتنا؛ إذ كانت أعوادنا لم تزل طرية، لم نألف الموت ولم نخبره؛ لذلك كان من الطبيعي أن نغلظ لمجدي في القول، وألزمناه أن يحمل تلك الجمجمة، ويضعها في مكان آخر لا تقع عليه عيوننا..

ولم يكن من الغريب أن نُعرض عن السمك الشهي الذي كان محيي قد أحضره وقام بشيه بنفسه، بطريقة اسكندرانية كانت محببة إلى نفوسنا.

وفي المساء انفردت بمحيي، وكان الرفاق يقضون وقتهم في بعض ألعاب التسلية وسألته عن خبر هذه الجمجمة، فقال لي:

سأصدقك القول وسأخبرك بما لا يعرفه أحد من أهل البيت هنا: هذه جمجمة لأحد أكابر المجرمين، الذين كانوا يعذبون الناس في السجون في الخمسينيات والستينيات، وقد مات هذا الرجل منذ فترة ليست بالبعيدة، وتم دفنه في قريته التابعة لإحدى مراكز محافظة الغربية!

وكنت قد اتفقت مع المقاول الذي يقوم بتوريد الجثث لكلية الطب كي يستجلب لي جثة أذاكر عليها أنا وزملائي، فقال لي:

إن لديه جثة بالفعل، وكان قد عرضها على كلية الطب، ولكنهم رفضوها لأنها ممزقة كل ممزق، وتكاد رأسها أن تنفصل عن جسدها؛ فضلاً عن فقدها لبعض الأجزاء، بالإضافة إلى أن الجمجمة نفسها مليئة بالكسور! وعندما سألته عن صاحب هذه الجثة قال إنه أحضرها من أحد رجاله الذين يُحضرون له الجثث من قرية تابعة لأحد المراكز بمحافظة الغربية! وإنه علم أنها لذلك الجبار الذي قصمه الله، ومات في حادثة بشعة تحدثت مصر كلها عنها!

واسترسل محيي قائلاً: بعد أن علمت أن هذه جمجمة هذا الطاغية جعلت من نصفها مطفأة سجائر – كما ترى – أما صديقي فلان، وهو من قيادات الطلاب بجامعة الإسكندرية، فقد جعل من النصف الآخر إناء ماء وضعه في قفص للعصافير؛ إلا أن العصافير للعجب الشديد عزفت عن الشرب منه، وجعلته موضعا تقضي حاجتها فيه بغير توجيه أو تدريب، وسبحان الله، ولله في خلقه شؤون!

مرت سنوات، وتخرجنا من كلية الحقوق، وعمل بعضنا بالنيابة، ثم تدرج في سلك القضاء، وعمل بعضنا بالمحاماة. وكنت قد تمسكت بالمحاماة لا أروم غيرها، ولا أبتغي سواها ثم افتتحت مكتبي للمحاماة، حيث شاركني فيه أحد أخوالي الذين تقلدوا من قبل مناصب عديدة في القضاء، هو المستشار خيري يوسف الذي كان رئيسًا سابقًا لمحكمة الاستئناف!

وذات يوم عُرضت علينا قضية قتل خطأ، وما أن قرأها خالي حتى قال لي: (إن هذه الحادثة تعيد إلى ذاكرتي حادثة بشعة، وقعت على طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي منذ سنوات) واسترسل الخال خيري قائلا:

كانت حادثة مروعة، وكنت وقتها رئيسًا لنيابة إحدى النيابات في محكمة كلية، وخرجنا أنا وزميل لي في مهمة قضائية لمعاينة الحادث ومناظرة الجثة..

دلت المعاينة وشهادة الشهود على أن سائق السيارة القتيل كان يقود سيارته بسرعة غريبة، وكانت أمامه سيارة نقل مُحملة بأسياخ الحديد التي تتدلى من مؤخرة السيارة. ودون أن يتنبه استمر في سرعته حتى اصطدم بالسيارة النقل، وحينها اخترقت أسياخ الحديد ناصية القتيل، ومزقت رقبته، وقسمت جانبه الأيمن حتى انفصل كتفه

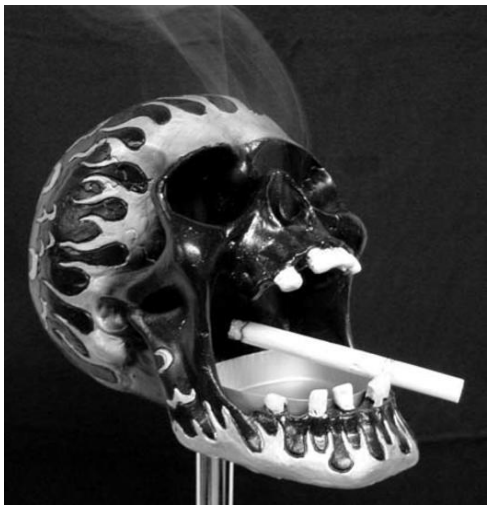

عن باقي جسده!

وبتأثر واضح قال المستشار خيري: لم أستطع مناظرة الجثة؛ فقد وقعت في إغماءة من هول المنظر، وقام زميلي باستكمال مناظرة الجثة...

هل تعلم من كان القتيل؟ لقد كان اللواء فلان، الذي كانت فرائص مصر كلها ترتعد من مجرد ذكر اسمه، وكانوا يلقبونه بملك التعذيب في السجن الحربي!

سرت قشعريرة في جسدي ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة، ولم تخرج من فمي إلا كلمة سبحان الله! وأقسم لكم أنني شعرت وقتها بالمكان كله، وكأنه يشاركني في تسبيحي، وكأنه أيضًا يرتجف فرقًا وخوفًا من الله الذي لا يُظلم عنده أحد.

مر عام على القصة التي رواها لي المستشار خيري، وبعد هذا العام سنحت لي الظروف أن أجلس مع الحاج أحمد أبو شادي؛ وهو رجل – إن لم تكونوا تعرفونه – يشع النور من وجهه.. تجلس معه وكأنما تجلس مع رجل من جيل الصحابة.. فطرته نقية وقلبه ندي.. يحمل على كتفه حكمة السنين..

كان الحاج أحمد أبو شادي من الذين قضوا جزءًا من أعمارهم في السجون أثناء الستينيات، بسبب انتماءه الفكري للإخوان، وكان قد تعرض في السجن لتعذيب بشع رأيت بنفسي آثاره التي ما زالت باقية في جسده لم تبرحه بعد، وكأنها وسام شرف.. وفي داخل السجن حفظ الحاج أحمد القرآن الكريم..

وفي فترة الثمانينيات وجزء من التسعينات ظل إمامًا لنا في عدة مساجد بمدينة نصر في صلاة القيام.. وفي إحدى الجلسات الخاصة التي جمعت بيننا حكي لي الحاج أحمد عن فترة من فتراته في المعتقل فقال:

كان الطاغية مدير السجن الحربي قد نهانا في رمضان أحد الأعوام عن صلاة القيام – وإلا تعرضنا للتعذيب والتنكيل – ولكننا كنا نحتال عليه وعلى السجانين، فكنا نصلي كل مجموعة في زنزانتها بصوت خفيض..

وفي يوم فاض بنا الكيل، وثار بعضنا، وصممنا على أن نصلي جهرة، ونُسمع الحراس صوت صلاتنا. وعندما وصل خبرنا في اليوم التالي للطاغية قام بتكديرنا وتعذيبنا بكل أشكال التعذيب التي يتصورها العقل، والتي لا يتصورها، حتى كدنا أن نهلك.

وهنا صاح أحدنا بصوت جهوري ضمخه الحق: والله يأيها الظالم إن الله سيقتص منك وسيسفعك على ناصيتك! وهنا قال له الطاغية الظالم: ماذا تقصد؟ فقال له الأخ – وقد كان فلاحا من إحدى قرى محافظة الجيزة – ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: (أرأيت الذي ينهى عَبْدًا إِذَا صَلَّى؟ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى) فقد قال الله بعدها: (كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) وسيسفعك الله على ناصيتك!

لم تصدق أذني ما سمعته من الحاج أحمد أبو شادي، ولكن قلبي قفز من مكانه حتى كاد الجالسون معي يسمعون نبضات قلبي..

وهنا أيقن فؤادي أن وعد الله حق، وأن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فقد كانت الجمجمة التي استُخدم نصفها كمطفأة للسجائر والنصف الآخر كإناء لقضاء حاجة العصافير هي نفسها جمجمة الطاغية مدير السجن الحربي، الذي طالما قتل وعذب وقال للمساجين كلمة تكاد السماء تقع من هولها هي (إن الله في زنزانة مجاورة) ! هو ذاته ذلك الجبار المتأله الذي أنبأه الفلاح المعتقل البسيط بوعيد الله تعالى بأن رب العزة سيسفع ناصيته عندما نهاه عن الصلاة، وهو أيضا نفس الرجل الذي مات في حادثة بشعة مروعة، سفع الله فيها ناصيته.. وكما تدين تدان!

اليقين في مصنع الهول:

هذا هو الحربي، درع ثورة زعمت احترام الإنسان، كان من مبادئها: بناء حياة ديمقراطية سليمة، ومن شعاراتها: كلنا سيد في ظل الجمهورية و: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد! فتحول إلى موقع جهنمي الأداء، خصوصًا على من لم يكن ذنبهم إلا الدعوة لله تعالى، وحماية دينه..

وبقي ولا يزال – وإخوة العقرب والقطا وغيرها عارًا على ديمقراطية العسكر، وفساد الطغاة المتجبرين الذين لا دين يزعهم، ولا قانون يردعهم!

وتأمل تعابيره: صورة صغرى استعيرت من لظى/ مصنع للهول/ أهدى لنا/ تذكرنا بيوم الدين/ نفحة من فيض إيمان، وغيرها:

هذا هو الحربي معقل ثورة	تدعو إلى التطوير والتحسين
هو صورة صغرى استعيرت من لظى	في ضيقها وعذابها الملعون
هو مصنع للهول كم أهدى لنا	صوراً تذكرنا بيوم الدين
هو فتنة في الدين لولا نفحةٌ	من فيض إيمانٍ وبرد يقين

الساخر رغم الشدة:

ولا تنسيه مرارة السجن، ولا قسوة الجلادين، ولا شراسة حمزة (وفيه نصيب من اسمه) لا تنسيه السخرية التي تعكس التماسك والاستهانة بما يجد في سبيل ما يعتقد؛ فيؤكد أن مصر الثورة سبقت الأمم وأبدعت أشياء كثيرة، لا تدانيها فيها؛ فأين أين منا الأمم المتقدمة؟ وتتناثر سخريته في أثناء القصيدة فالتقطها حيث تجدها:

قل للعواذل إن رميتم مصرنا	بتخلف التصنيع والتعدينِ
مصر الحديثة قد علت وتقدمت	في صنعة التعذيب والتقرين
وتفننت كي لا يمل معذَّبٌ	في العرض والإخراج والتلوين

فنون التعذيب وأدواته في السجن الحربي، وكرامات مطوية:

وكان من أدوات التعذيب التي استخدمها زبانية السجن الحربي – والكلام للشاعر –: الكلاب المتوحشة، يسلطونها على المعتقل لتنهش من لحمه، وقد دربوها على ذلك، حتى أصبحت مسخرة لهم في مهمتهم؛ بيد أن هذه الكلاب لا ذنب لها فيما تفعل، فهي مسخّرة للإنسان، إنما ذنب الإنسان الذي سلطها على أخيه الإنسان، لتؤذيه، وترهبه بغير حق.

ومع هذا كثيرًا ما رأينا هذه الجوارح من الكلاب تخذل أصحابها ومعلميها فيما أرادوه منها، ولا تستجيب لهم في إنفاذ ما طلبوه منها من شر وإيذاء.

وقد جرى هذا مع أكثر من أخ من الإخوان الذين أغروا بهم الكلاب، فكانت الكلاب خيرًا منهم وأرق وأرقى. منهم الأخ الفاضل الدكتور مصطفى عبد الله، وكان من خير الأطباء، ومن خيرة الناس دينًا وخلقًا وفضلاً، وقد عرفته حين كان طبيبًا في طنطا، وكان رئيسًا لإخوان مديرية الغربية.

جيء بالدكتور مصطفى من القاهرة، وأدخلوه في زنزانة انفرادية، وأدخلوا معه الكلب بعد أن جوعوه، ولكن يبدو أن الكلاب – بفطرتها – تحس بالإنسان الطيب، وتأنس به، وترق له، وبعد مدة فتحوا الزنزانة لينظروا مدى الجراح التي أصيب بها الدكتور، فوجدوا أن الكلب يجلس أمام الدكتور في وداعة وسكون، وينظر إليه في ود وحنان، والدكتور مشغول بالذكر والتسبيح والاستغفار!

أجل، لقد كانت الكلاب أرفق وأحن من هؤلاء الذين ينتسبون إلى بني الإنسان!

وفي النهاية لم يجد البسيوني المتجبر – أو (الباشا) كما يسمونه – أمامه إلا الإفراج عن الدكتور مصطفى من السجن الانفرادي مع الكلب.

واقرأ هذه الأساليب المخضرمة، التي طورت، وزيد عليها أضعافها، وتأمل دقة الوصف السردي لأشكال التعذيب، وما تحمله بعض الألفاظ والصور من دلالات وشحن بلاغية وصورية: (الآهات تخترق الدجى/ ولا ينبيك مثل سجينِ/ اسأل ثرى الحربي/ وسل السياط السود/ كم شربت دمًا/ العروسة قبحت من عاهر/ فتية زُفوا/ زنازين الجليد/ فن العذاب/ صنعة التلقين):

أسمعت بالإنسان يُنفخ بطنه	حتى يُرى في هيئة البالون؟
أسمعت بالإنسان يُضغط رأسُه	بالطوق حتى ينتهي لجنون؟
أسمعت بالإنسان يُشعل جسمُه	نارًا وقد صبغوه بالفزلين؟
أسمعت ما يلقى البريء ويصطلي	حتى يقول: أنا المسيء خذوني
أسمعت بالآهات تخترق الدجى	رباه عدلك.. إنهم قتلوني
إن كنت لم تسمع فسل عمّا جرى	مثلي ولا ينبيك مثل سجين
واسأل ثرى الحربي أو جدرانه	كم من كسير فيه أو مطعون
وسل السياط السود كم شربت دمًا	حتى غدت حمرًا بلا تلوين

وسل (العروسة) قبحت من عاهرٍ	كم من جريحٍ عندها وطعين
كم فتية زفوا إليها عنوة	سقطوا من التعذيب والتوهين
واسأل (زنازين) الجليد تجبك عن	فن العذاب وصنعة التلقين
بالنار أو بالزمهرير؛ فتلك في	حينٍ وهذا الزمهرير بحين
يُلقى الفتى فيها ليالي عاريًا	أو شبه عارٍ في شتا كانون
وهناك يملي الاعتراف كما اشتهوا	أو لا؛ فويل مخالفٍ وحرون

من الحربي، للمقطم، للجنة إن شاء الله:

هذا باب للموت ثوري نذل، اخترعه الجلادون، لا يطلع عليه، ولا يعلم متى يفتح ويغلق إلا رب العالمين، فطالما ابتلعت الصحراء أجسادًا ماتت من التعذيب الوحشي، أو طوتها بطون المقابر في جوف الليل، بحيث لا يرى أحد ولا يسمع، وماذا تنفع شهادة التاريخ هنا؟!

ولا أدري لماذا يرتبط هذا في ذهني بحكاية مؤمن سورة ياسين: (قيل: ادخل الجنة، قال: يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين).

وقد سمعت من فم الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى عن خمسة دفنوا في ليلة واحدة، حين جاءه أحد (التُّربية) يخبره أنه اضطر لدفن خمسة في جوف الليل تحت التهديد الشديد!

على كل أرجو أن تتأمل المعالم البلاغية في: (سل المقطم/ أعدل شاهد/ علقوه كالذبيحة/ السياط عجزن/ الكي خير ضمين/ العذاب مسجَّر/ وتأمل السخرية في: تهجدوا فيه ليالي/ اختيار منون!/.. فأنت مخيرٌ!/ تأمل وقل: حسبي الله!

وسل (المقطم) وهو أعدل شاهدٍ	كم من شهيدٍ في التلال دفين
قتلته طغمة مصر أبشع قتلةٍ	لا بالرصاص ولا القنا المسنون
بل علقوه كالذبيحة هيئت	للقطع والتمزيق بالسكين
وتهجدوا فيه لياليَ كلها	جلدٌ وهم في الجلد أهل فنون
فإذا السياط عجزن عن إنطاقه	فالكي بالنيران خير ضمين
ومضت ليالٍ والعذاب مسجّرٌ	لفتًى بأيدي المجرمين رهين

لم يعبؤوا بجراحه وصديدها	لم يسمعوا لتأوهٍ وحنين
قالوا اعترف أو مت فأنت مخيّرٌ	فأبى الفتى إلا اختيار منون

مشهد الشهيد المعذب: صورة تفصيلية:

وفي لوحة شعرية مؤثرية ودقيقة، يقدم الشاعر وصفًا للحظات الشهادة، وما قاله شهيد القهر والتعذيب والتفرعن، لنفسه ولأمه ولأمته وللتاريخ، فهو يحدثنا عن أسطر خطّها الدم الطاهر المسفوح تحت وطأة الانتهاك الوحشي، بأيدي جلادين من غير جنس البشر، وقد قرأ الشاعر لنا هذه الأسطر، من خلال لغته الخاصة، التي ضمّنها الكثير من الشحَن البلاغية، والعبارات العاطفية، والمعاني الإسلامية، فتأمل قوله: وجرى الدم/ يسطر في الثرى/ لربي ذاهب/ حياة الحر/ درب الهدى/ عند خالقي/ ملائك الرحمن لم يدعوني/ صلاتهمُ بعليين/ جوار المصطفى/ أقفز شاديًا/ جذلان كالعصفور/ ولدانها في خدمتي/ ثمارها في قبضتي/ ونعيمها يدعوني/ ما خنت ديني/ فليسألوا عني القناة، وغيرها، وتأمل ما فيها من صدق ونبضات شعورية مباشرة:

وجرى الدم الدفاق يسطر في الثرى	يا إخوتي استشهدت فاحتسبوني
لا تحزنوا إني لربي ذاهبٌ	أحيا حياة الحر لا المسجونِ
وامضوا على درب الهدى لا تيأسوا	فاليأس أصل الضعف والتهوين
قولوا لأمي: لا تنوحي واصبري	أنا عند خالقيَ الذي يهديني
أنا إن حرمت وداعكم لجنازتي	فملائك الرحمن لم يدعوني
إن لم يصل علي في الأرض امرؤ	حسبي صلاتهمُ بعليين
أنا في جوار المصطفى وصحابه	أحظى بأجر ليس بالممنون
أنا في ربا الفردوس أقفز شاديًا	جذلان كالعصفور بين غصون
ولدانها في خدمتي وثمارها	في قبضتي، ونعيمها يدعوني
وإذا حرمت العرس في الدنيا فلي	ما شئت فيها من حسان عيون
أماه حسبك أن أموت معذبًا	في الله لا في شهوة ومجون
ما خنت ديني أو حماي ولم أكن	يومًا على حرماته بظنين
فليسألوا عني القناة ويسألوا	عني اليهود فطالما خبروني

تأكيد للمشهد:

ويعود الشاعر ليصور المشهد ذاته من زاوية أخرى، فبدلاً من الموت تحت السياط، يأتي ذبح البشر – كما تذبح الماشية – ممارسةً كررها السفاحون مع شبان كانت الأمة تنتظر عطاءهم وجهدهم، ثم تغطية المشهد المجرم تحت ستار الليل – كما يفعل اللصوص عادة – بمواراة الذبيح الثرى، وإخفاء معالم القبر، ظانين أنهم لن يحوروا إلى ربهم السميع البصير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور!

وتأمل قوله: جزارين/ مستهتَرين (بوضعيها اللغوي والعرفي) ذبحوا فتىً/ كأنه ابن لبون/ لفوه في ثوب الدجى/ سارين/ مفاوز وحزون/ سر في الثرى مكنون/ والليل يشهد والكواكب والثرى... إلخ:

سحقًا لجزارين كم ذبحوا فتى	مستهترين كأنه ابن لبون
فإذا قضى ذهبوا بجثته إلى	تل المقطم وهو غير بطين
لفوة في ثوب الدجى وتسللوا	سارين بين مفاوز وحزون
واروه ثم محوا معالم رمسه	فغدا كسرٍّ في الثرى مكنون
أخفوه عن عين الأنام وما دروا	أن الإله يراهمو بعيون
والليل يشهد والكواكب والثرى	وكفى بهم شهداء يوم الدين

القضاء الهازل:

ويصف القرضاوي المحاكمة التي رأس محكمة الثورة التي أصدرت الحكم بالإعدام على عدد من قيادات جماعة الإخوان المسلمين بالمهزلة، وكان القائم عليها الصاغ جمال سالم، صاحب الآراء المتطرفة التي أوردها عدد من زملائه في مجلس قيادة الثورة في مذكراتهم، ومنها اقتراحه بإعدام جميع ضباط المدفعية الذين اعترضوا على بعض

قرارات المجلس في يناير 1953، والذي قال عنه السادات: كان جمال سالم – رحمه الله – حاد المزاج، عصبيًّا إلى حد غير طبيعي، غير متزن في جميع نواحي شخصيته، فلما وجد الناس منصرفة عنه بدأ يثير المعارك هنا وهناك، وفي كل مجال.

وقد اندفع مرة في مجلس الثورة ضد محمد نجيب، وأعلن أنه سيقوم بقتله، وتخليص المجلس منه، وعلى المجلس أن يحاكمه بقتله.

وكان من المنتظر من الرئيس السادات – وقد مكن الله له في الأرض – أن يرد الاعتبار إلى هؤلاء المسجونين الذين حكمت عليهم محكمة يرأسها جمال سالم! لكن لم يحدث هذا الإفراج إلا بعد حرب العاشر من رمضان 1393هـ = 1973/10/6م، وإن كانت معاملتهم قد تحسنت كثيرًا في عصر السادات عن العصر السابق الكئيب الذي اشتهر بظلمه وظلامه. ويبدو أن السادات لم ينس أنه كان عضو اليمين في محكمة جمال سالم! فلماذا هي مهزلة:

قالوا محاكمة فقلت رواية	أعطوا لمخرجها وسام فنون
هي شر مهزلة ومأساة معًا	قد أضحكتني مثل ما تبكيني
أوعت سجلات القضاء قضية	كقضية الإخوان؟ أين؟ أروني؟
الخصم فيها مدعٍ ومحقق	وهو الذي يقضي بلا قانون
إلا هواه وما يدور براسه	من خلط سكير ورأي أفين
أرأيت محكمة ترأسها امرؤ	يدعوه من عرفوه بالمجنون؟!

حيثيات الاتهام:

تطالب القوانين في الدنيا كلها – حتى في دول العالم الثالث المتخلفة – بأن تكون أدلة الإدانة واضحة، لا شك فيها ولا احتمال، ولو كان فيها شك فسرت لصالح المتهم، والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، لكن الواقع المر في العالم الثالث كله يدين المواطنين، ويسجنهم للأبد بمجرد الظن أو التلفيق، بل إن النار تطلق عليهم بمجرد الاشتباه؛ بل من غير اشتباه، ويعذبون وينكل بهم، في ظل الديمقراطيات (!) العربية، التقدمية التنويرية الحضارية!

كما يصفق الإعلام لهذا النوع من الديمقراطية، ويراه حلاً شافيًا في مواجهة شرائح مختلفة: الإسلاميين/ بعض العرقيات/ المعارضين/ المطالبين مجرد المطالبة ببعض حقوقهم.. فانظر إلى الحيثيات التي كان يدان بها بعض الناس في هذه الحقبة:

أرأيت إنسانًا يدان لقوله:	الله ربي.. والحنيفة ديني؟
أو قال: يا قوم ارجعوا لكتابكم	طوق النجاة لكم بكل يقين
يا سوء حظ فتى رأوا بسجله	شرف الجهاد لعصبة الصهيون
أو كان يومًا في كتيبة فتية	شهرت بنادقها على السكسون
أو كان حافظ آل عمران فقد	ظفروا ببرهان عليه مبين
هذي الجرائم عند محكمة الردى	هي غرة تزهو بأي جبين
والويل لامرئ استباح لنفسه	إظهار تعذيب ودفع ظنون
سيعود للحربي يأخذ حظه	وجزاءه الأوفى من البسيوني

حمزة مرة أخرى:

وتأمل في الأبيات التالية كلام الشاعر بنحو: ليلة ذات شجون/ فصول فكاهة/ يعرونا الكرى/ داعي الردى/ فغرت لنا فاها/ كَفِي التنين/ طابور تكدير/ يسوقنا لهب السياط/ شكت من التسخين/ مثل فيض عيون/ خر إغماء/ سوط للعذاب!

وتأمل السخرية في قوله: نعدو كما تعدو الظباء/ قائدنا المظفر/وصفها بمهارة/ وكأنه عمرو/ يوزع بالمفرق/ بنزاهة/:

أنا إن نسيت فلست أنسى ليلة	في ساحة الحربي ذات شجون
عدنا المساء من المحاكمة التي	كانت فصول فكاهة ومجون
ما كاد يعرونا الكرى حتى دعا	داعي الردى، وكفاك صوت أمين
فتجمع الإخوان ممن حوكموا	ذا اليوم.. من طنطا إلى بسيون
أما الألى سيحاكمون فأحضروا	ليروا يقينًا ليس بالمظنون
وإذا بقائدنا المظفر حمزة	في عسكر شاكي السلاح حصين
حشد الجنود.. وصفّها بمهارة	وكأنه عمرو بأجنادين!

وأحاطنا ببنادق ومدافع	فغرت لنا فاها كفي التنين
طابور تكدير ثقيل مرهق	في وقت أحلام وآن سكون
نعدو كما تعدو الظباء يسوقنا	لهب السياط شكت من التسخين
ومضت علينا ساعتان وكلنا	عرق تصبب مثل فيض عيون
من خر إغماءً يفق عجلاً على	ضربات سوط للعذاب مهين
ومن ارتمى في الأرض من شيخوخة	أو علة داسوه دوس الطين
لم يكف حمزة كل ما نؤنا به	من فرط إعياء ومن توهين
فأتى يوزع بالمفرق دفعة	بالسوط من عشرين للخمسين
كل ينال نصيبه بنزاهة	في العد والإتقان والتحسين

أنا ربكم الأعلى!

أغبى كافر عرفه التاريخ هو فرعون الذي قال لقومه: ما علمت لكم من إله غيري! والذي قال لهم: أنا ربكم الأعلى!

ومقصر جدًّا من يظن أن الفراعنة انقرضوا بانتهاء حكمهم، فلا يزالون يتناسلون في أشكال، وبقاع، وأساليب، ووسائل، ومأثورات تؤكد أن التفرعن مذهب بشري حاكم مسيطر، خصوصًا في الدول الجائرة، وعلى الشعوب المستكينة.

المهم أن الشاعر القرضاوي يستمر في مسلسل السخرية من الباشا الجلاد الغبي، فيحكي عن إحدى خطبه التي ألقاها بين المساجين، فصوت خطبته مشجٍ، وهو فارس الوادي، وهو الهمام، وذو الجهاد الدامي، وهو كبش النطاح، وأبو الفوارس!

وانظر كيف يجسد جبروته وغروره؛ فهو: منتفخ/ لم يترك لفرعون ولا قارون/ أعذبهمُ بسجوني/ أمركمُ انتهي، وسلوني/ إني هنا القانون/ أعلى سلطة/ من ذا يحاسب سلطته؟/ وهو المتفرد في الحكم/ وهو الذي يهب الحرية من يشاء، ويذيق العذاب الهون من شاء/ وهو الذي برحمته يسامح وبقدرته يميت (نمرود جديد!):

وإذا نسيت فلست أنسى خطبة	ما زال صوت خطيبها يشجيني
إذ قال حمزة – وهو منتفخ – فلم	يترك لفرعون ولا قارون

أين الألى اصطنعوا البطولة وادعوا	أني أعذبهم هنا بسجوني
أظننتمو هذا يخفف عنكمو؟	كلا، فأمركم انتهى، وسلوني!
أم تحسبون كلام ألف منكمو	عنكم وعن تعذيبكم يثنيني؟
إني هنا القانون، أعلى سلطة	من ذا يحاسب سلطة القانون؟
متفرد في الحكم دون معقب	من ذا يخالفني ومن يعصيني؟
فإذا أردت وهبتكم حرية	أو شئت ذقتم من عذابي الهون
من منكمو سامحته فبرحمتي	وإذا أبيت فذاك طوع يميني
ومن ابتغى موتًا فها عندي له	موت بلا غسل ولا تكفين
يا فارس الوادي، وقائد سجنه	أبنو الكنانة أم بنو صهيون؟
هلا ذهبت إلى الحدود حميتها	وأريتنا أفكار نابليون؟
اذهب لغزة يا همام وأنسنا	بجهادك الدامي صلاح الدين
أفعندنا كبش النطاح ونعجة	في الحرب جماء بغير قرون؟

زنزانة وزنزانة:

وقد مر بنا الحديث عن زنزانتيه، لكن القصيدة ينبغي أن تتصل، ولا بد للمشاهد أن تستمر، لنكون صورة واضحة عن الزمان والمكان والأحداث والشاعر:

أعرفت ما قاسيت في زنزانة ******* كانت هي القبر الذي يؤويني؟
لا بل ظلمت القبر فهو لذي التقى ******* روض وتلك جحيم أهل الدين
هي في الشتاء وبرده ثلاثة ******* هي في هجير الصيف مثل أتون
نُلقى ثمانية بها أو سبعة ******* متداخلين كعلبة السردين
هي منتدانا وهي غرفة نومنا ******* وهي البوفيه وحجرة الصالون
هي مسجد لصلاتنا ودعائنا ******* هي ساحة للعب والتمرين
وهي الكنيف وللضرورة حكمها ******* ما الذنب إلا ذنب من سجنوني
هي كل مالي في الحياة فلم يعد ******* في الكون ما أرجوه أو يرجوني
الأرض كل الأرض عندي أرضها ******* أما السماء فسقفها يعلوني

فيها انقطعت عن الوجود فلم أعد ******* أعنيه في شيء ولا يعنيني
لا أعرف الأنباء عن دنيا الورى ******* إلا من الأحلام لو تأتيني
يبكي الأقارب غيبة حسبوا لها ******* شهرين فامتدت إلى عشرين
ولكم وفيّ زار أهلي سائلاً ******* عني برفق علهم عرفوني
والأهل لا يدرون هل أنا ميت ******* فقدوه أم حي فيرتقبوني
كم شاعر فقد الرجاء بعودتي ******* فأعد فيّ قصيدة التأبين

حصاد الثورة الغراء:

هذا نصيبي يا أخي من ثورة قد كنت أحسبها أتت تحميني
حظي بها زنزانة صخرية سوداء مثل قلوب من أسروني
كم من ليال بتها أشكو الطوى والبرد لكن أين من يشكيني؟
هم كدروني لا طعام أذوقه لا شيء من برد الشتاء يقيني

طعام خمس نجوم:

وانظر إلى مصطلحات التكدير والتعيين والتموين، وهي من أدبيات السجون ولغتها الخاصة، والتكدير العقوبة، والتعيين ما يعين للسجين من طعام، والتموين، طعام السجن بشكل عام:

هم كدروني لا طعام أذوقه	لا شيء من برد الشتاء يقيني
فإذا انقضى التكدير جاء طعامهم	دكنًا كأفكار الأُلى اعتقلوني
ضربٌ من التعذيب إلا أنه	لا بد منه لسد جوع بطون
ففطورنا عدس تزين بالحصى	إن الحصى فرض على التعيين
قد عفته حتى اسمه وحروفه	من عينه أو داله والسين
وغداؤنا فاصولية ضاقت بها	نفسي، فرؤية صحنها تؤذيني
وعشاؤنا شيء يحيرك اسمه	وكأنما صنعوه من غسلين
لا طعم فيه ولا غذاء وإنما	يحلو لنا من قلة التموين
طبق يُكال لسبعة أو نصفه	وعلي أن أرضى وقد ظلموني

عقوبات وحيثيات:

وعقوبات الحربي ليست مسببة إطلاقًا، بل تأتي بلا سبب أو بأسباب واهية ملفقة، كما صور الشيخ في أبياته، فتأمل قوله: وريقة أو إبرة/ استاقوني/ تجمعوا حولي ضواري/ همها نهشي/ توقظني السياط/ الحديث كالأفيون/ تسلينا!/ عيشوا بغير تحرك وسكون.. وغيرها:

لو أن لي في جوفها حرية	لرضيت.. لكن أين ما يرضيني؟
من أجل ضبط وريقة أو إبرة	ولغير شيء.. طالما استاقوني
وتجمعوا حولي ضواري همها	نهشي.. وما لي حيلة تنجيني
إن نمت توقظني السياط سريعةً	فالنوم ليس يباح للمسجون
وإذا تحدثنا لنذهب بالكرى	حظروا الحديث علي كالأفيون
وإذا شغلنا بالقراءة وقتنا	أخذوا جميع الكتب للتخزين
وإذا تلونا في المصاحف حرموا	حمل المصاحف وهي خير قرين
وإذا تسلينا بصنع مسابح	جمعوا المسابح من نوى الزيتون
هذي سياستهم وتلك عقولهم:	عيشوا بغير تحرك وسكون

أدوية ناجعة غير مسبوقة:

وتزيد سخريته المريرة، من صيدلية الحربي، وروشتاته التي يصرفها الجلادون، بحذق ومهارة، وتلذذ واستمتاع: فاقرأ هذه الوصفات، وتأمل معها قوله: مسه لهب الظما/ يسقى المر/ من كل مسعور/ السوط حلال المشاكل/ لم يضق يومًا/ فهو غذاؤه/ من اشتكى الإسهال يجلد عشرة/ هي وصفة الثوار للمبطون/ ومن اشتكى وجع الصداع فمثلها أو ضعفها/ بمكان الاسبيرين/ يجد العليل أعز إنسولين/ اكتشاف الثورة الفذ/ فخرت به مصر! وغيرها:

إياكمُ أن تشتكوا أو تألموا	موتوا بغير توجعٍ وأنين
يا ويل من قد مسه لهب الظما	فدعا بلطف للجنود: اسقوني
فهناك يسقى المر من أيديهمو	من كل مسعور عليك حرون

فالسوط حلال المشاكل، لم يضق	يومًا بطول مآرب وشؤون
من راح يشكو الجوع فهو غذاؤه	ومن ابتغى ريًّا فأي معين
ومن اشتكى الإسهال يجلد عشرة	هي وصفة الثوار للمبطون
ومن اشتكى وجع الصداع فمثلها	أو ضعفها بمكان الاسبيرين
ومن اشتكى من سكرٍ فبنحوها	يجد العليل أعز إنسولين
هذا اكتشاف الثورة الفذ الذي	فخرت به مصر على برلين

دونكمُ.. يا عصبة الباستيل:

ويذكرنا الشاعر بباستيل فرنسا، وما كان يجري فيه من بطش فظيع، وتعذيب مريع، لكنه يتحدى، ويعلن تصميمه، وعجزهم أن يحنوا إرادته، أو يغيروا موقفه، مذكرًا إيانا بقولة ابن تيمية العظيم رضي الله عنه: ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي لا تفارقني: أنا سجني خلوة، وقتلي شهادة، ونفيي عن بلدي سياحة: وتأمل تعبيراته عن: عصبة الباستيل/ دونكمُ/ الإغلاق والتأمين (من ألفاظ السجن) أخلو إلى كتبي/ الكتب خير خدين/ أنسي مصحفي/ بنور يقينه يهديني/ بظل عقيدتي:

يا عصبة الباستيل دونكمُ فلن	آسى على الإغلاق والتأمين
سدوا على الباب كي أخلو إلى	كتبي فلي في الكتب خير خدين
وخذوا الكتاب فإن أنسي مصحفي	أتلوه بالترتيل والتلحين
وخذوا المصاحف إن بين جوانحي	قلبًا بنور يقينه يهديني
الله أسعدني بظل عقيدتي	أفيستطيع الخلق أن يشقوني؟

لحساب من؟

وينظِّر الشاعر (في أسلوب تقريري مباشر في بعض الأحيان) حول المجاهدين والشهداء، وبطولات المسلمين القديمة والحديثة، وارتباط الثورة بالخارج الكاره

للإسلام، وإهمال الخارج المسلم، المحتاج للدعم والنصرة والتثبيت، فاقرأ له: الأتون مسجر/ يلقى له بالفحم/ روت دماها أرض فيلسطين/ ضربوا بطولة فتية/ سلطان عليه مبين/ ومن استذلوا من ليوث/ حرب للعدو زبون/ أغنى بها الشهداء عن تبييني/ بالجزم لا بالخرص والتخمين/ أرضى بنا الطاغوت سادته/ بالتثبيت والتأمين/ انتفاضة ديننا/ بعد الجمود/ بعد نوم قرون/ بكل سعد فاتح/ دين الله يرجع مصدرًا/ البطل الهمام/ أقوى بناء للدعاة متين/ باقتلاع الأس جد قمين/ كمالهم/ يطارد الإسلام كالمجنون/ جمالهم/ ذاك امرؤ عار وهذا ماكرٌ/ متلون/ يحكي أبا قلمون، اقرأ وتأمل:

لحساب من هذا الأتون مسجر	يلقى له بالفحم والبنزين؟
لحساب من بطشوا بأطهر ثلة	روت دماها أرض فيلسطين؟
لحساب من ضربوا بطولة فتية	بعثوا صلاح الدين في حطين؟
لحساب من مكروا بإخوة غانمٍ	وابن المنيسي والفتى شاهين؟
لحساب من شنقوا المجاهد يوسفًا	والفرغليّ محارب السكسون؟
لحساب من غدروا بعودة جهرةً	من غير سلطان عليه مين؟
لحساب من ما قتلوا وما قد شوهوا	من أوجه أو أظهر وبطون؟
من عذبوا، من شردوا، من جوعوا	ومن استذلوا من ليوث عرين؟
ألمصر؟ كيف، ونحن صفوة جندها	في يوم حرب للعدو زبون؟
أم للعروبة في قضيتها التي	أغنى بها الشهداء عن تبييني؟
أم يا ترى لقضية الإسلام في	أوطانه، من طنجة لبكين؟
ألمسلمي الأحباش أم لأرتريا؟	من كل مرتقِب لِعَوْن معين؟
أم للألى يفنون في القوقاز أو	من ذبحوا في الهند أو في الصين؟
لا لا وربي، إنني لأقولها	بالجزم لا بالخرص والتخمين

هذا هو السبب الحقيقي:

لحساب من هذا أتدري يا أخي؟	لحساب الاستعمار والصهيون
أرضى بنا الطاغوت سادته لكي	يعدوه بالتثبيت والتأمين

فالقوم يخشون انتفاضة ديننا	بعد الجمود وبعد نوم قرون
يخشون " يعرب" أن تجود بخالد	وبكل "سعد" فاتح ميمون
يخشون أفريقيا تجود بطارق	يخشون كرديًّا كنور الدين
يخشون دين الله يرجع مصدرًا	للفكر والتوجيه والتقنين
ويرون كل تكتل يدعو له	خطرًا وخصمًا ليس بالمأمون
وهنا بدا البطل الهمام منفذ	لمخطط التبشير والماسون
ليسدد الضربات في عنف إلى	أقوى بناء للدعاة متين
ليقول للرقباء: قروا أعينًا	أنا باقتلاع الأس جد قمين
وكذاك قام "كمالهم" في تركيا	ليطارد الإسلام كالمجنون
واليوم سار "جمالهم" في خطة	بتدرج وتخابث ملعون
ذاك امرؤ عار، وهذا ماكرٌ	متلون يحكي أبا قلمون (1)

يا مصر حظك مثل حظي عاثر:

وإذا كانت الثورة قد جاءت لتلغي الدكتاتورية، وتصادر الألقاب، وتخدم الشعب، فقد انتقلت الألقاب للضباط، والسلطة، والتسلط، وشهوة القمع للضباط، حتى قال حمزة (هاتوا ربكم وأنا أحطه في الزنزانة) وقطعت الألسنة، وسجن الناس، واحمى وطيس التعذيب والترويع، وعادت خلطة غريبة من

الفرعونية، والشيوعية، والجهلانية المتقنعة بشعارات غرور، واقرأ قوله: حظي عاثر/ عهد الظلام/ عهد أغر مكين/ سنن الهدى/ ويردها لتراثها الميمون/ يمده عز الرشيد ونهضة المأمون/ أضاء كلمحة/ كالثور حين يدور في الطاحون/ ثرنا على ملك فجاؤوا عشرة/ ملك الملوك ووارث الفرعون.. وغيرها:

---

(1) جاء في المعجم أن أبا قلمون ضرب من ثياب الروم يتلون ألواناً للعيون. وقال الأزهري: قلمون ثوب يتراءى إذا طلعت الشمس علية بألوان شتَّى، وقال بعضهم: أبو قلمون طائر يتراءى بألوان شتى يُشَبَّه الثوب به.

يا مصر حظك مثل حظي عاثر	كم قد نكبت بغاشم وخؤون
قلنا: انقضى عهد الظلام وأقبلت	مصر على عهد أغر مكين
يمضي بأمتنا على سنن الهدى	ويردها لتراثها الميمون
ويعيد عهد الراشدين يمده	عز الرشيد ونهضة المأمون
أمل أضاء – كلمحة – في ثورة فإذا الذي ثرنا عليه تعيده	كنا لها في الروع خير معين كالثور حين يدور في الطاحون
ثرنا على ملك فجاؤوا عشرة	كل يريد الملك غير رزين
وإذا رئيسهمُ يرى في نفسه	ملك الملوك ووارث الفرعون
في نفسه ودمائه: أنا ربكم	لا تجعلوا ربًّا لكم من دوني

حصاد الثورة.. وعطاء الأبطال:

اعترافات خميس وكيل الإخوان
الهضيبي اختفى إلى أن يقع حادث الاغتيال
الإخوان اتفقوا مع الإنجليز على احتلال القطر المصري كله

ويستمر الشاعر في سرد أخطاء الثورة اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وأمنيًّا ووطنيًّا، ويرى أنها أدخلت البلاد في ضوائق لا تستطيع منها خروجًا، فعدت بالحزبية، واللادينية، والإعلام المضلل، والبيانات الكاذبة، وأذى الإسلام، والطوارئ، والفساد الاقتصادي وغير ذلك.

وتأمل تعبيراته وما تحمل في أطوائها من سخرية لاذعة: حزبية عمياء/ يهوي ركنه/ تهيم بالتزويق/ وسيل دعاية، متدفق النشرات/ جد هتون/ خطب توزع للعراة ليكتسوا/ صحافة تهدى إلى المسكين/ أكداس أرقام/ برقٌ ولا مطرٌ/ أوراق ولا ثمرٌ/ جعجعة بغير طحين/ نصبت مشانقها/ تصب عذابها/ تل ديون/ يجري الخراب وراءها أنى جرت.. وغيرها من التعبيرات القرضاوية:

ثرنا على الأحزاب في تضليلها	للشعب في توجيهها اللاديني

ما بالها رجعت لنا حزبية	عمياء ذات دعاية وطنين؟
تدع البناء يكاد يهوي ركنه	وتهيم بالتزويق التزيين
صحف ومذياع وسيل دعاية	متدفق النشرات جد هتون
خطب توزع للعراة ليكتسوا	وصحافة تهدى إلى المسكين
أكداس أرقام ولست ترى لها	أثرًا سوى عري وجوع بطون
برقٌ ولا مطرٌ، وأوراق ولا	ثمرٌ، وجعجعة بغير طحين
حزبية.. هدامة.. شريرة	باسم البناء تهد كل حصين
كانت على الإسلام في أوطانه	شرًّا من السكسون واللاتين
نصبت مشانقها لقتل دعاته	بغيًا، بلا شرع ولا قانون
ومضت تصب على الألوف عذابها	من كل ذي ثقة بهذا الدين
ساءت لعمري ثورةً مشؤومة	لم تجن منها غير تل ديون
يجري الخراب وراءها أنى جرت	وتقول بالتطوير والتحسين

الثورة وأبناؤها العققة:

الجمهورية
مجلس الثورة يقرر حل الإخوان
المرشد يعمل على قلب نظام الحكم
ويكون منظمات سرية في الجيش والبوليس والجامعات وبين العمال
اعتراف الهضيبي بالاتصال بالإنجليز
المرشد العام يسخر الدعوة لمطامعه الشخصية ويدبر انقلابًا باسم الدين
واسطة الاتصال بين المرشد والإنجليز يدلي باعترافات خطيرة أمس
المرشد وبطانته يفاوضون الإنجليز من خلف ظهر الثورة!
EGYPT

ويشير الشاعر لقادة الثورة ورجالها وأنصارها الذين انقلبوا على من ناصروها، وكانوا لها وقودًا، ومظاهرين، فكانت كالقطة التي أكلت بنيها، الذين كانوا حماة ظهورها فصاروا وقيد وطيسها المجنون، والتي صارت أشبه ما تكون بحُمى على الأحرار أو طاعون، إذ بغت وطغت، وكالت الأوصاف الكاذبة، والتهم الملفقة، على أقوام هم – وهذا ما يعزي – ليسوا خيرًا من سيد البشر صلى الله عليه وسلم، فانظر قوله: حماة ظهورها/ وقيد وطيسها المجنون/ ما كانت سوى حُمى على الأحرار/ هرة أكلت بنيها/ قبحت أمًّا/ أفهكذا يُجزى الجميل؟/ وبالضلال ما قالوا/ كالوا لنا تهمًا/ بمحض ظنون/ رمي بطعون!

يا ثورة كنا حماة ظهورها	صرنا وقيد وطيسها المجنون
قالوا مباركة وما كانت سوى	حُمى على الأحرار أو طاعون
يا هرةً أكلت بنيها غدرة	قبحت أمًّا كنت غير حنون
أفهكذا يُجزى الجميل بضده	أين الوفاء وأهله..دلوني؟
واهًا لهم كم أسرفوا وتحيروا	فى وصفنا من يسرة ليمين!
قالوا وبالضلال ما قالوا فكم	كالوا لنا تهمًا بمحض ظنون!
وعزاؤنا أن النبي – فديته	بأبي وأمي – كم رمي بطعون!
من ساحر حينًا لباغٍ مفتر	أو كاهن أو شاعر مجنون!

نعم: القرضاوي رجعي!

ويتعجب الشاعر من التضليل المصطلحي في لفظة الرجعية التي استخدمتها الثورة، لتنفير الناس من الإسلام دينهم التليد، وينعي عليها أن تعتبر من الرجعية الغيرة على الدين، وصيانة الحريم، والتطلع لحياة أفضل، والتربية على الرجولة، والمناداة بتحكيم الإسلام، ورفض سيادة مناهج غريبة، ويعلن أنه مصر على ذلك حتى ولو قيل رجعي: فتأمل قوله:

دعوة رجعية/ الناس تنظر للأمام/ نغار لديننا/ نقوم بالمفروض والمسنون/ نصون حريمنا/ نذرنا أنفسًا لله/ عيش دون/ نربي جندنا للحق/ الرسول زعيمنا/ لسنا الذيول/ الجهاد سبيلنا/ الجهاد ذريعة التمكين/ يحكم الإسلام/ شعب يرى الإسلام أعظم دين/ شرع الله شرع محمد/ شرع نابليون؟! فاحشرن رجعيًّا.. وغيرها من التعابير:

قالوا كِذابًا دعوة رجعية	معزولة عن قرنها العشرين
الناس تنظر للأمام فما لهم	يدعوننا لنعود قبل قرون
رجعية أنا نغار لديننا	ونقوم بالمفروض والمسنون؟!
رجعية أنا نصون حريمنا؟	بئس الحريم يكون غير مصون
رجعية أنا نذرنا أنفسًا	لله تحيا، لا لعيش دون؟!
رجعية أنا نربي جندنا	للحق لا لتفاهة ومجون؟!
رجعية أنا الرسول زعيمنا؟	لسنا الذيول لمركس ولنين؟
رجعية أن الجهاد سبيلنا	نعم الجهاد ذريعة التمكين؟!
رجعية أن يحكم الإسلام في	شعب يرى الإسلام أعظم دين؟!
أو ليس شرع الله شرع محمد	أولى بنا من شرع نابليون؟!
يا رب إن تك هذه رجعية	فاحشرن رجعيًّا بيوم الدين

يا كل فرعون وجلاد:

قل للذي جعل الكنانة كلها	سجنًا وبات الشعب شر سجين
يأيها المغرور في سلطانه	أمن النضار خلقت أم من طين؟
يا من أسأت لكل من قد أحسنوا	لك دائنين فكنت شر مدين
يا ذئب غدرٍ نصبوه راعيًا	والذئب لم يك ساعة بأمين
يا من زرعت الشر لن تجني سوى	شرٍ وحقدٍ في الصدور دفين

حتمية لا نبوءة:

سيزول حكمك يا ظلوم كما انقضت	دول أولات عساكر وحصون
ستهب عاصفةٌ تدك بناءه	دكًّا وركن الظلم غير ركين

ماذا كسبت وقد بذلت من القوى	والمال بالآلاف والمليون؟
أرهقت أعصاب البلاد ومالها	ورجالها في الهدم لا التكوين
وأدرت معركة تأجج نارها	مع غير (جون بولٍ) ولا كوهين
هل عدت إلا بالهزيمة مرّةٍ	وربحت غير خسارة المغبون؟
وحفرت في كل القلوب مغاورًا	تهوي بها سفلاً إلى سجّين
وبنيت من أشلائنا وعظامنا	جسراً به نرقى لعليين
وصنعت باليد نعش عهدك طائعًا	ودققت إسفينًا إلى إسفين
وقفة تحدٍّ ومواجهة:	
أظننت دعوتنا تموت بضربةٍ	خابت ظنونك فهي شر ظنون
بليت سياطك والعزائم لم تزل	منّا كحدّ الصارم المسنون
إنا لعمري إن صمتنا برهةً	فالنار في البركان ذات كمون
تا لله ما الطغيان يهزم دعوةً	يوماً وفي التاريخ برُّ يميني
ضع في يدي القيد ألهب أضلعي	بالسوط ضع عنقي على السكّين
لن تستطيع حصار فكري ساعةً	أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي وقلبي في يديْ	ربّي.. وربّي ناصري ومعيني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي	وأموت مبتسمًا ليحيا ديني
وتجلدي للشامتين أريهمُ:	
صبرًا أخي في محنتي وعقيدتي	لا بد بعد الصبر من تمكين
ولنا بيوسف أسوة في صبره	وقد ارتمى في السجن بضع سنين
هون عليك الأمر لا تعبأ به	إن الصعاب تهون بالتهوين
أمسٌ مضى واليوم يسهل بالرضا	وغدٌ ببطن الغيب شبه جنين
لا تيأسن من الزمان وأهله	وتقل مقالة قانط وحزين
شاة أسمنها لذئب غادر	يا ضيعة الإعداد والتسمين
فعليك بذر الحَب لا قطف الجنى	والله للساعين خير معين

سنعود للدنيا نطب جراحها	سنعود للتكبير والتأذين
ستسير فلك الحق تحمل جنده	وستنتهي للشاطئ المأمون
بالله مجراها ومرساها فهل	تخشى الردى والله خير ضمين؟

يا رب.. يا رب:

يا رب خلص مصر من أعداءها	وأعن على طاغوتها الملعون
يا رب إن السيل قد بلغ الزُبى	والأمر في كافٍ لديك ونون
باسم الفراخ الزغب هيض جناحهم	فقدوا الأب الحاني بغير منون
بدموع أم روعوها في ابنها	وبكل دمع في العيون سخين
بدعاء شيخ شردوا أبناءه	ما بين معتقل وبين سجين
بسهاد زوج غاب عنها زوجها	فدعت لفرط جوىً وفرط حنين
رباه رد علي مؤنس وحشتي	وأغث بعودته جياع بنيني
يا من أجبت دعاء نوح "فانتصر"	وحملته في فلكك المشحون
يا من أحال النار حول خليله	رَوْحًا وريحانًا بقولك: كوني
يا من أمرت الحوت يلفظ يونسًا	وسترته بشجيرة اليقطين
يا رب إنا مثله في كربةٍ	فارحم عبادًا كلهم ذو النون

خصائص شعر القرضاوي

عن خصائص الشعر الإسلامي كتب الدكتور جميل حمداوي: من سمات رسالة الشعر الإسلامي المعاصر:

الالتزام، والصدق الفني والعقدي، والإنسانية، والوعي بالمهمة المنوطة بها، وتحمل الشاعر لمسؤولية التغيير.

ويرى الشاعر محمود مفلح أن من سمات الشعر الإسلامي الإيمان، والجرأة، والثورية، والصراخ في وجه الظلم والباطل، والهداية وتنوير الحقيقة والحياة:

شعر يموت.. وآخر يتسكع وعلى الفتات على الموائد يسرع
هذا يمد على السحاب جناحه وسواه في حمإ الرذيلة يرتع
هل يستوي الشعران: شعر مؤمن ومدجج بالكفر لا يتورع
هل يستوي السيف الذي هتك الدجى والآخر المتزلف المتصنع

ويقول كذلك:

والشعر مرآة الشعوب فإن سمت فالشعر أسمى ما يقال و يبدع
وإذا أضاعت في الوحول جبينها فالشعر منها عند ذلك أضيع
والشعر صوت الحق في آفاقنا لو كان من ثدي الحقيقة يرضع
والشعر قنديل الهداية تارة والشعر إعصار يهز ويصرع
حسب القصائد أنها لا تنحني إلا لجبار السماء وتركع

هذه سمات وخصائص الشعر الإسلامي بشكل عام، فأين القرضاوي من ذلك؟

سمعنا الناس في حياتنا العادية يقولون إن لفلانة (في طبيخها نفَسًا) يجعل له

مذاقًا خاصًّا لذيذًا، يثير شهية الشامِّين والمتذوقين..

وجربت في حياتي الفنية أن لبعض الخطاطين أو الرسامين بصمة أو روحًا في اللوحة، تجعلك تتعرف على عمله الفني، وتطرب له، حتى دون أن يوقع على اللوحة، أو يضمِّنها ما يشير لصاحبها.

وكذا نجد لبعض الشعراء قاموسه الشعري ومفرداته وبصمته اللغوية، التي تجعلك – دون تردد – تقول: هذه القصيدة لفلان.

فهل في شعر القرضاوي (نفَس) إذا صح التعبير، أو روح تميزه، وتجعل القارئ يقطع أن القصيدة له ومن إبداعه، حتى وإن لم يقرأ عليها اسمه؟ هذا ما ينبغي أن نفتش عنه في قراءتنا العجلى هذه لشعر الشيخ القرضاوي:

زخم البدايات، والشح في الخواتيم:

مَطالع حياته، ومع إشراقته العلمية والدعوية والفكرية، كان الشيخ القرضاوي – فيما يبدو لي – مكثرًا، خصبًا، متفاعلاً، دفاقًا، يشارك في المناسبات والأحداث – بدعوته وشعره – بشكل بارز، حتى إنه قُدم في عدد من المناسبات كشاعر يطرب الجمهور، ويحرك مشاعره، ثم مع تحوله من القرضاوي الصفطاوي فالطنطاوي فالقاهري أو الأزهري إلى القرضاوي العالمي بدأت الدعوة تسحبه بعيدًا عن الشعر، فلا يكتبه إلا لمناسبة، وعلى تباعد في الكتابة، كما فعل منذ أواسط الثمانينيات وحتى اليوم، فلا أعلم أنه كتب في هذه الفترة أكثر من خمس قصائد طويلة أو ستًّا، منها يا أمتي وجب الكفاح، وأصولي، وسراب السلام، ومناجاة، والأصوليون – أي إنه يكتب قصيدة كل خمس سنين – وقد كنت محظوظًا حين استلمت أصول معظم هذه القصائد، بخط فضيلته المنمنم الدقيق المزعج – وليسامحني شيخنا – وقرأتها قبل أن يقرأها أحد، فقد جاءت لمجلة الأمة حين كنت أعمل بها، وكنت أقوم – آنذاك – على التصحيح والمراجعة، فسعدت بقراءتها غير مرة.

بل الأصح أنه كتب القصائد الأخيرة – خمسًا أو أكثر قليلاً – فيما بين عامي 1985 و 1990، ولم يكتب بعدها شيئًا حتى الآن، ولم يكن هذا عن جمود في

القريحة، ولا زهد في الشعر، لكنها الدعوة، وهموم الأمة، والعمل الدؤوب الذي ينهزه دائمًا، فلا يستريح، ولا يكاد يستقر في مكان:

ما آب من سفرٍ إلا وأزعجهُ رأيٌ إلى سفرٍ بالرغم يزمعهُ

حتى إنني أطلقت عليه من سنوات بعيدة لقب (الشيخ الطيار) لكونه دائمًا على سفر، لمؤتمر أو ندوة أو محاضرة أو برنامج أو أمر يهم الأمة..

فهل أقول إن من أول ملامح كتاباته الشعرية (الزخم في البدايات، والشح في النهايات)؟ مع الفارق في طبيعة وشخصية الشاعر في الحالين؛ فهو بالتأكيد – شابًّا متحمسًا، يزاحم بمنكبه كبار الشعراء والدعاة والمجاهدين – غيره شيخًا، فقيهًا، رصينًا، راسخ العلم والأداء، منفردًا على قمة شماء، لا يزاحَم عليها، ولا يعنيه أن يزاحم!

الثقة وإثبات الاقتدار:

أزعم أن الشيخ – وبشكل غير مباشر – يؤكد في كثير من الأحيان أنه يستطيع أن يكتب شعرًا وقت يشاء، وكيف يشاء، من خلال أمرين:

- أولهما اختياره لقوافٍ صعبة، شموس، عصية التأتي!
- وثانيهما نفَسُه الطويل في الكتابة، فهو يكتب ويكتب ويكتب، حتى أظن أنه يسكت أحيانًا عن الشعر المباح، قبل أن يفرغ ما في جعبته، فهاك برهاني!

أولاً: القوافي الوعرة:

رغم أن الشيخ أشاع عن نفسه الولع بالقافية النونية، التي قفّى بها أكثر من خمس عشرة قصيدة من أشعاره:

نونية.. والنون تحلو في فمي أبدًا؛ فكدت يقال لي ذو النونِ

فإنه كثيرًا ما يترك النون لقوافٍ أصعب، وأكثر إتعابًا للشاعر الذي لا يملك مخزونًا لغويًّا ضخمًا – كالقرضاوي – يمتاح منه كما يشاء، وقتما يشاء.

ويتجلى اختياره للقوافي الصعبة في قصائد عديدة، طويلة، وثرية، في ديوانيه نفحات ولفحات، والمسلمون قادمون، وفيما تناثر خارجهما من أعماله وضوائعه.. فتعال نتأمل بعض قوافيه – على الترتيب الأبجدي – ونرَ كم هي عصية، وكم لديه من

رصيد لغوي، لكن بعد أن نزعم أن لأصوات الحروف دلالات ومعاني، يوفق لها الشاعر المطبوع – كما كتب سامر إسلامبولي – فأصوات الأحرف العربية لها دلالات فيزيائية مرتبطة مع محلها من الخطاب بصورة منطقية، عندما تجمع مع بعضها بصورة واعية تدل على العلاقة بين صوت لفظ الكلمة مع الواقع؛ إما حالاً أو وظيفة، كما أن هناك دلالة صوتية للألفاظ والحروف – أزعم – تستمد من طبيعة الأصوات نغمها وجرسها، فتوحي بوقع موسيقي خاص، يستنبط من ضم الحروف بعضها إلى البعض الآخر، كما ذكر الدكتور إبراهيم أنيس.

فهل ينتقي القرضاوي قوافيه، لتعميق المعنى وزيادة الإيحاء بما يريد؟!

أزعم ذلك والشواهد كثيرة، فتأمل معي:

جيم الانفراج والبهجة والزهو:

في قصيدته جيل الصحوة الطويلة – التي تبلغ سبعة وسبعين بيتًا – اختار الشيخ قافية الجيم الممدودة بالفتح، وهي من حروف وسط اللسان؛ وتأتي مجهورة، وشديدة، ومستفلة، ومنفتحة، ومقلقلة، ولها وقع صوتي انفجاري (شرط أن تعطش بشكل صحيح (DJ) لا أن تنطق كالجيم القاهرية واليمنية، ولا كالجيم المشربة بالشين):

حيٍّ جيلاً بالمكرمات تناجى	أثلج الصدر صحوهُ إثلاجًا
حيهم مؤمنين أو مؤمناتٍ	حيٍّ فيهم للصالحات انتهاجًا
حيٍّ جيلاً صحا فقرّت عيون	وانتشى الدين فرحةً و ابتهاجًا
حي جيلاً في طهره مثل ماء	المزن ينساب دافقًا ثجاجًا

إلى آخر القصيدة الطويلة..

حاء الوجع:

الحاء حرف من حروف وسط الحلق، يكثر توظيفه في التعبير عن التوجع، ويناسب الحديث عن الألم الحسي والهم.. وقد وظف الشيخ هذا الحرف في رائعة من روائعه هي (يا أمتي وجب الكفاح) وهي حائية طويلة، قريبة من مائة بيت، كتبها في مايو 1985، أثناء وجعه الحسي من آلام بدنه، والنفسي من حال الأمة. يقول عنها: (حركت الأحداث خواطري، وأنا على فراش المرض، أسمع وأرى وأقرأ ما يجرى على

الساحة في ديارنا: صليبيون ولا صلاح الدين، تتار لا قطز، ومرتدون ولا أبا بكر، فكانت من هذه المشاعر والخواطر هذه القصيدة) وكانت القافية الحائية موفقة جدًّا في هذا المقام:

يا أمتي وجب الكفاح	فدعي التشدق والصياح
ودعي التقاعس ليس ينـ	ـصر من تقاعس واستراح
ودعي الرياء فقد تكلـ	ـمت المذابح والجراح
كذب الدعاة إلى السلا	م فلا سلام ولا سماح
ما عاد يجدينا البكا	ء على الطلول ولا النواح
لغة الكلام تعطلت	إلا التكلم بالرماح
إنّا نتوق لألسنٍ	بكم على أيد فصاح

إلى آخر القصيدة الطويلة..

دال المد والجهر والتنفيس:

الدال من الحروف القوية، وهو حرف مرقق، مخرجه من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا. ومن صفاته الثابتة: الجهر والشدة والاستفال والانفتاح والإصمات والقلقة.

وفي يوسف الصديق يجري الشاعر الحوار على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام، معاتبًا الذئب الذي فجعه في ابنه الحبيب الأثير، مستفيدًا من الرنين الصادر عن حرف الدال الممدود:

يا ذئب هلا انثنى ناباك عن ولدي	وكيف تخطف مني فلذة الكبد
وكيف تفجعني فيه وتتركني	على بساط من الأحزان متقد
هلا رحمت أباه وهو مكتئب	معذب في وطيس الحزن والكمد
قد حرم النوم جفني بعده أسفًا	لا كحل للعين إلا إثمد السهد
لهفي على ثغره الباهي ومبسمه	أجمِل بلؤلئه الزاهي وبالبرد
يا حر قلبي من ناري نوًى وجوى	ما فرقة الوُلد إلا حرقة الكبد
من ذاق مثلي عذابًا في ابنه حزنًا!؟	سبحان ربي.. لم يولد ولم يلد

مصائب الناس لا تحصى عدائدها	لكن شر مصاب فرقة الولد
يا ذئب خليتني في لوعة وأسى	فصرت مفتأدًا والشوق مفتئدي
إني أراني في يأس وفي أمل	أأنت مزقته.. أم لم يزل عضدي
يا هل ترى أين أنت اليوم يا ولدي	ويا ترى أنت تحذو أي معتقد
أأنت في ملة الشيطان مطرح	أم لا تزال بدين الواحد الصمد
إن كنت هذا فها دمعي أطلقه	أو كنت ذاك سأبكي آخر الأبد
لا غرو إن كان عندي بعده عدد	فليس ينفع عنه كثرة العدد
إن النجوم كثير في السماء ولا	تغني عن البدر للداني ولا البعد
الأمر لله.. والأكوان في يده	وليس إلا على الرحمن معتمدي

أخرج لسانك للوصولي:

وفي قصيدته (وصولي) وظف القرضاوي الشاعر حرف الذال، وهو حرف يخرج من طرف اللسان، الذي يشق في نطقه الأسنان السفلى عن العليا بشكل واضح؛ وكأنما يخرج لسانه لهذا الوصولي، احتقارًا، وإهانة، فهي قافية شديدة المناسبة لموضوعها، فاقرأ معي وتخيل:

واهًا له يدعونه الأستاذا	وتراه في أخلاقه شحاذا
يزهى بزي ذوي المعارف والنهى	والنفس تحكي السِّفلة الشذاذا
ما كان يومًا باذلاً أو معطيًا	ما عاش إلا سائلاً أخاذا
هيهات يخلو مجلس من وجهه	لينال من هذا ويطري هذا
صياد منفعة يخدر صيده	حتى يصوب سهمه النفاذا

إلى آخر القصيدة.

وفي قصيدته (عجبت) يختار الزاي – من حروف الصفير – قافية، وهو حرف يخرج من طرف اللسان، ومن صفاته الأزيز أو الصفير الواضح، والصفير صوت يجلب الانتباه، ويشد السامع من أذنه شدًّا، مع الصعوبة في مفرداته، فاقرأ له:

عجبت لمن تطاول واستفزا	وراح يؤزه الشيطان أزا
يعادي الله لا يرجو رضاه	ولا يخشى غدًا فيه سيجزى

يخاصم حزبه بغيًا وعدوًا	ويوسع شرعه طعنًا وغمزا
إذا ذكر الضلال اهتز بشرًا	وإن ذكر الهدى تره اشمأزا
على الإسلام يحمل سم حقد	تحز مُداه في الأحشاء حزا
لقد أملى له مولاه حتى	توهم أنه استغنى وعزا

إلى آخر القصيدة..

حفل الصفير:

واختار الشيخ من حروف الصفير كذلك حرف السين ليكتب به قصيدتين هما: سراب السلام، وأندلس أخرى، ومن صفة السين – بجانب أزيزها وصفيرها – أنها هامسة أو مهموسة، وهي تستلفت النظر، وتستوقف السامع، وقد جاء اختياره للعناوين أيضًا صافرًا لافتًا، فالأولى (سراب السلام) والثانية (أندلس أخرى) فاقرأ معي، وتأمل تكرار السين في مواضع عديدة من كل بيت، كأننا في موكب صفير:

على العينين والرأس	سلام الحبر والطرس
سلام الضجة الكبرى	كأن القوم في عرس
وقالوا صفقة للسلم	نطرحها بلا بخس
مقايضة عجبت لها	بسوق الغبن والمكس
سلام يُشترى بالأرض	لا بالسنت ولا البنس
ولا حق له في الأرض	من خمس ولا سدس
ويقبض سلمه ثمنًا	ليحيا سالم الرأس

إلى آخر القصيدة..

وفي أندلس أخرى يقول مركزًا ومكررًا:

أفلسطينًا أم أندلسا	في البوسنة نشهدها بأسى
سريبفو تبكي محنتها	كالقدس وما أغلى القدسا
أندلس أخرى اليوم وقد	كنا أنسينا الأندلسا
درس في الحقد نلَقّنه	أحيا درسًا قبلُ اندرسا

الصرب صهاين أوربا	بل فاقوا الأصل المقتبسا

إلى آخر القصيدة..

مزيد من الصفير الصاخب:

تسمى الزاي والسين والصاد بالحروف الأسلية؛ لخروجها من أدق طرف اللسان، كما تسمى حروف الصفير، ومن صفاتها الاستعلاء والإطباق، وهي أجهر حروف الصفير، وأكثرها صخبًا..

وها هو في قصيدته الصادية (شكوى) يجأر، معبرًا عن ألمه البدني، والألم الذي يجثم عليه من جراحات الأمة، وبلاياها التي تثقل كاهلها، فهو يقول:

شكوت وما بي من علة	يراها الطبيب الذي يفحصُ
ولكنْ بقلبي هموم كبار	بها انقصم الظهر والعصعص
لقد طال ليل لقومي وطا	ل ولم أر للفجر ما يرهص
فكم ليلة لي قد أرقوا	وكم من ضحىً بعدها نغصوا
على المال والجاه حرص الجميع	فمن ذا على دينه يحرص

إلى آخر القصيدة..

وفي قصيدته (نصيحة) يقول، مستنفرًا الهمم، ولافتًا الأنظار، من خلال حرف الصاد الصافر:

أخي أيها الإنسان أدعوك مخلصا	إلى الله فانهض لا تقاعسْ فتنكصا
قد ابتاعك الرحمن بالخلد غاليا	فإياك من حمق تبيع بأرخصا
تبيع حياة الروح بالطين راضيًا	فيا حمق من باع اللآلئ بالحصى
وتسلم للشيطان قلبك طائعًا	فيصبح وكرًا للشرور.. ومفحصا

الضاد للمناجاة:

الضاد من الأحرف التي تميزت بها اللغة العربية، ويقال إنه لا يوجد في أية لغة أخرى – ولا أظنه صوابًا – ولغتنا هي لغة الضاد، ومن صفات هذا الحرف الإطباق، والاستعلاء، والرخاوة، ومن اجتماع الصفات السابقة تنتج الاستطالة، والضاد المتحركة أيسر من الساكنة، وتخرج من حافة اللسان، بتباعد الفك العلوي عن الفك السفلي.

وفي قصيدته (مناجاة) يستخدم الشاعر القرضاوي هذا الروي العصي، شاكيًا لله تعالى ما ألم به، وراجيًا العافية والمعافاة، ومتأملاً الدنيا، وما فيها فيقول:

يا رب ها جسمي يشيخ ويمرض	والوهن وافاني سريعًا يوفض
ولَّت سِنُو عمري كرؤيا نائم	ومضى شبابي مثل برق يومض
ودنا الرحيل ولم أهيئ زاده	وخيام أيامي تكاد تُقَوَّض
كل النفائس قد تعوض إن تضع	والعمر إن ضَيعتَ ليس يُعوّض
ما بعد نضج الزرع غير حصاده	هي سنة لله ليست تنقض
وإذا أتى الأجل المقدر وقته	لم يغن عنك مطبب وممرض
مالي وقد فرطت في أمري سوى	رب إلى نفحاته أتعرض

إلى آخر القصيدة..

أقوى حروف الهجاء لخطاب إلى ابن الإسلام:

الطاء من الحروف القوية، بل هو أقوى حروف الهجاء، مخرجه طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهو حرف مفخم، وفيه فخامة، وجزالة، وجهارة، وشدة، تناسب ما يريده الشاعر من استثارة الهمم، وشحذ العزائم، وفيها يقول:

يا مسلمًا بعرى إسلامه ارتبطا	هلا وفيت بما مولاك قد شرطا؟
أبِالمعاصي ترى الفردوس دانية	من يزرع الشوك لم يحصد به الحنطا
أم تشتري الخلد بالمغشوش من عمل	وسلعة الله لا تشرى بما خلطا
وتخطب الحور لم تهد الصداق لها	ولم تقدم لها عقدًا ولا قُرُطا
أم تنشد النصر لم تدفع له ثمنا	ولم تُعد له الأسباب والخططا

إلى آخر القصيدة..

الفاء المهموسة الرخوة للنصيحة:

وفي التحدي الجديد المهداة لإخوة الجهاد في أفغانستان، يختار الشاعر القافية الفائية، التي تخرج من بطن الشفة، مع أطراف الثنايا العليا، وفيها شيء من الهمس والرخاوة والاستفال، فكأنما يهمس في آذان المصطرعين المتخالفين، بالنصيحة والتوجيه:

بشرونا بوحدة وائتلاف	واقطعوا بينكم جذور الخلاف
لا تتيحوا ثغيرة لعدو	يتشفى بما يرى من تجاف
أمس كنتم إلى القتال خفافًا	حبذا اليوم فيه غير الخفاف
كنتمُ فخرنا فلا تفجعونا	بصراع يفضي إلى استنزاف

القاف لقرع القلوب:

وفي بعض ضوائعه مما كتب أول حياته، حين كان طالبًا بالمعهد الديني، اختار القاف قافية في مسرحيته عن يوسف الصديق، كما استخدمها رويًّا لقصيدة إيمانية، فجاء بالقاف القارعة المجهورة (في أصل وضعها) القوية الشديدة المستعلية، التي تخرج من أقصى اللسان، كأنما ينبه القريبين منه، ويقرع أسماعهم وقلوبهم بقافيته القوية:

يقول في المشهد المؤامرة على يوسف الصديق:

الإخوة:

ألا ترون أباكم ... قد هام في الطفل عشقا
يقبل الفم منه ... ويرشف الريق شوقا
في حب يوسف أمسى ... متيمًا مسترقا
ونحن نُقبل غبرا ... مما من الحر نلقى
فلا يبش إلينا ... ولا نرى الوجه طلقا
فكيف يعشق هذا ... ونحن خير وأبقى؟
ونحن نرعى شياهًا ... ونحن نجلب رزقا؟
بالله إن أبانا ... لفعله فعل حمقى
فما ترون لهذا؟ ... فالخطب يزداد عمقا

شمعون:

الرأي قتل ابن راحيـ ... ـل قتل من لم يرقا
أو تطرحوه بأرض ... ولا تخلوه يبقى

وفي ضائعة من ضوائعه يبدأ بمطلع إيماني دافئ شديد الحنو والحميمية، فيقول:

قلبي يحس برحمة تتدفق	ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا
وكأن أحمد والصحابة أقبلوا	فرحًا بنا، قد باركوا وتحلَّقوا

وعلى الوزن والروي نفسه كتب في يوسف الصديق:

زليخا ليوسف:

رفقًا بصب دمعه يترقرق وارحم لقلب في هواك يحرّق
وارو الأوام بقبلة خمرية تشفي عليلاً ناره تتألق

يوسف:

يا للعجائب كيف أقطف وردة ليست بغصن شجيرتي تتعلق!؟
مولاي آمنني على بستانه أأعيث فيه كالذئاب وأسرق!؟
وأنا الحفيظ على خزائن ماله أأخون فيما لا يحل وأنفق!؟

وفي يوسف الصديق أيضًا ينوع القوافي، وقد يختار منها الوعر، كما اختار الهاء في هذا المونولوج الذي يدور في عقل زليخا امرأة العزيز التي شغفا به حبًّا:

زليخا:

يا حسنه من غلام زاهر زاهي ويا جمال محيا باهر باهي
هذا هو الحسن مجموعًا بوجه فتى هذا هو السحر.. هذا فتنة الله
الليث في غابه.. في عز قوته لو شامه لعَنا.. كالواهن الواهي
لكل شيء شبيه في خليقته وذاك أبصره معدوم أشباه
آه لقد هام قلبي عند رؤيته وهاهو الحب يسري بينه آه
إني أحس بقلبي راح في يده فصار يحكم فيه آمرًا ناهي

وهكذا نجد الشاعر القرضاوي واثقًا من نفسه، جريئًا في اختياره قوافيه، منذ بداياته الأولى وحتى أواخر أشعاره التي ننتظر منها المزيد إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: النفس الطويل:

أما عن نفسه الطويل في الكتابة، فهو يكتب ويكتب ويكتب، حتى أظن أنه يسكت أحيانًا عن الشعر المباح، قبل أن يفرغ ما في جعبته!

وحسبك أن تعرف أن النونية جاوزت الثلاثمائة بيت، وأنك يندر أن تجد في ديوانه المطبوع قصيدة دون الثلاثين بيتًا، بل إنني أحس أنه – أحيانًا – يتوقف عن الاسترسال في الكتابة مللاً، أو خشية الإملال..

وتكاد قصيدته من الشعر الحر: المسلمون قادمون تجاوز النونية طولاً، فهي منشورة على إحدى وعشرين صفحة، بينما النونية مكتوبة على خمس عشرة صفحة!

وقصيدته عن الأصوليين بلغت مائة وثمانية وتسعين بيتًا..

وبلغت قصيدته السعادة مائة وأربعة وسبعين بيتًا..

وقصيدته أم زائرة ولا مزور مائة وثمانية وأربعون بيتًا..

وقصيدته يا أمتي وجب الكفاح سبعة وتسعون بيتًا..

وقصيدته إليك يا بنة الإسلام سبعة وثمانون بيتًا..

وقصيدته رباه عظمي كلا واحد وثمانون بيتًا..

وقصيدته سراب السلام ثمانية وسبعون بيتًا..

وقصيدته جيل الصحوة سبعة وسبعون بيتًا..

وقصيدته أندلس أخرى واحد وسبعون بيتًا..

وقصيدته شوق وحنين سبعون بيتًا، وكذا وقصيدته إليك يا بن الإسلام..

وقصيدته في ذكرى المولد ستة وستون بيتًا..

وقصيدته ثورة لاجئ اثنان وستون بيتًا..

وقصيدته أصولي أصولي بلغت ثمانية وخمسين بيتًا..

وقصيدته عجبت ثلاثة وخمسون بيتًا..

وقصيدته ابتهال سبعة وأربعون بيتًا..

وقصيدته مناجاة خمسة وأربعون بيتًا..

وقصيدته التحدي الجديد أربعة وأربعون..

وقصيدته أنا بالله عزيز ثلاثة وأربعون، وكذا قصيدته يا نفس..

وقصيدته شكوى ستة وثلاثون....

وهكذا نرى أن أكثر قصائده مطولات تنبئ عن شاعر متمكن لديه الكثير مما يريد قوله.

القرضاوي على المسرح بعد عرض مسرحيتي الشعرية عنه: اقتلوا يوسف: وبعدي من اليمين: الفنان وجدي العربي بطل المسرحية، وعن شماله وكيلا وزارة الثقافة القطرية.. فالفنان علي المالكي.. والشياطين جالسون في الأمام!

غياب المرأة في شعر القرضاوي:

ومن الملاحظات التي لا أظنها تخفى على قارئ شعر القرضاوي كله – من بداياته لنهاياته – أنه لم يكتب في المرأة قصيدة طويلة، غير واحدة هي: رسالة إلى ابنة الإسلام، وهذا عجيب في العلامة القرضاوي تأليفًا وشعرًا – فيما أزعم – مع تجاوز مؤلفاته المائة والستين كتابًا ورسالة؛ تبارك الله الوهاب!

وإذا كان لأحد أن يحتج بأن الشيخ يتكلم عن المرأة كثيرًا، فلا أظن أن أحدًا سيجادل عن قلة شعره في المرأة، مع اصطخاب الأحداث عنها، منذ مظاهرة النساء التي كتب فيها – مطالع شبابه – مقطوعة صغيرة، ثم هذه القصيدة الطويلة التي بلغت سبعة وثمانين بيتًا، وهي مشحونة بالنصائح والتضمينات القرآنية والنبوية والتراثية، بجانب الرؤية القرضاوية لمنزلة المرأة في الإسلام، فهل نطالبه بديوان عن المرأة؟

هذه – على كل حال – أبيات من رسالته لابنة الإسلام، تجمل رؤية الشيخ، وتقييمه للأنثى في الإسلام والواقع: وتأمل قوله: يا درة حُفظت/ واليوم يبغونها للهو واللعب/ غربية العقل/ يريدون منها قلة الأدب/ سجنًا من الفولاذ والخشب/ السجود لفكر الغرب/ فاسجدي لله واقتربي/ وآخرُ هاديه أبو لهب؟/ تقفت خُطى حمالة الحطب/ لست ببنت لا جذور لها/ في حضن أطهر أم/ وعندك العقل إن تدعيه يستجب/ سليه من أنا؟/ في موضع الرأس أم في موضع الذنب؟/ هما سبيل سان/ نور من الله لم يُحجب/ في ركبه شرف الدنيا وعزتها/ فاستمسكي بعرى الإيمان/ ارتفعي بالنفس عن حمأة/ الرذيلة داء/ شره خطر/ يُعدي ويمتد/ كالطاعون والجرب/ صوني حياءك/ صوني العرض/ إن الحياء من الإيمان/ اتخذي منه حُليك/ يالقبح فتاة لا حياء لها/ الحجاب الذي نبغيه مكرمة/ يريدون منها قلة الأدب/ لا تحسبي أن الاسترجال مفخرة/ ما بالأنوثة من عار/ لتنسلخي منها/ وتسعي وراء الوهم في سرب/ رُب أنثى لها عزم لها أدب/ فاقت رجالاً بلا عزم/ وإن هوى بك إبليس لمعصية/ فأهلكيه بالاستغفار/ سجود معترف لله مقترب/ وخير ما يغسل العاصي مدامعه/ والدمع من تائب أنقى من السحب:

رسالتي يابنة الإسلام والحسب إليك من عقل أستاذ وقلب أب
يا من هدُيتِ إلى الإسلام راضية وما ارتضيت سوى منهاج خير نبي
يا درة حُفظت بالأمس غالية واليوم يبغونها للهو واللعب
يا حُرة قد أرادوا جعلها أمةً غربية العقل لكن اسمها عربي
نريد منها احتشاما عفة أدبا وهم يريدون منها قلة الأدب
هذا الحجاب الذي جاء الرسول به وليس سجنًا من الفولاذ والخشب
عهد السجود لفكر الغرب قد ذهبت أيامه فاسجدي لله واقتربي
هل يستوي من رسول الله قائده دوما.. وآخرُ هاديه أبو لهب؟
وأين مَن كانت الزهراء أسوتها ممن تقفت خُطى حمالة الحطب
أختاه لست ببنت لا جذور لها ولست مقطوعة مجهولة النسب
أنت ابنة العرب والإسلام عشت به في حضن أطهر أم من أعز أب
فلا تبالي بما يُلقون مِن شُبه وعندك العقل إن تدعيه يستجب
سليه من أنا؟ ما أهلي؟ لمن نسبي؟ للغرب أم أنا للإسلام والعرب؟
لمن ولائي؟ لمن حبي؟ لمن عملي؟ لله أم لدعاة الإثم والكذب
وما مكاني في دنيا تموج بنا في موضع الرأس أم في موضع الذنب؟
هما سبيلان يا أختاه ما لهما من ثالث فاكسبي خيرًا أو اكتسبي
سبيل ربك والقرآن منهجه نور من الله لم يُحجب ولم يغب
في ركبه شرف الدنيا وعزتها ويوم نبعث فيه خير منقلب
فاستمسكي بعرى الإيمان وارتفعي بالنفس عن حمأة الفجار واجتنبي
إن الرذيلة داء شره خطر يُعدي ويمتد كالطاعون والجرب
صوني حياءك صوني العرض لا تهني وصابري واصبري لله واحتسبي
إن الحياء من الإيمان فاتخذي منه حُليك يا أختاه واحتجبي
ويا لقبح فتاة لا حياء لها وإن تحلت بغالي الماس والذهب
إن الحجاب الذي نبغيه مكرمة لكل حواء ما عابت ولم تُعب
نريد منها احتشامًا عفة أدبًا وهم يريدون منها قلة الأدب

لا تحسبي أن الاسترجال مفخرة فهو الهزيمة أو لون من الهرب

ما بالأنوثة من عار لتنسلخي منها وتسعي وراء الوهم في سرب

ولست قادرة أن تصبحي رجلاً ففطرة الله أولى منك با لغلب

يا رُب أنثى لها عزم لها أدب فاقت رجالاً بلا عزم ولا أدب

وإن هوى بك ابليس لمعصية فأهلكيه بالاستغفار ينتحب

بسجدة لك في الأسحار خاشعة سجود معترف لله مقترب

وخير ما يغسل العاصي مدامعه والدمع من تائب أنقى من السحب

ومن خصائصه: الكتابة على النمط الخليلي التقليدي:

لا تُعرف للقرضاوي تجارب في (تكنيك) القصيدة خارجة على النمط الخليلي التقليدي، إلا قصيدة واحدة هي مطولته: (المسلمون قادمون) من بحر الرجز، والتي سمى بها ديوانه الثاني، وهي تجربة أذكر أنه قال إنه لن يكررها، وربما كتبها ليقول إنه قادر على أن يرود هذا الأفق، ويكتب كما يكتب الشباب والمتمردون والمجددون، وهي في رأيي ليست أقوى قصائده، ولا أبهاها، وإن كانت أطولها، وأكثرها تفاؤلاً، وبثًّا للأمل في القلوب، وقد كرر فيها عبارة (المسلمون قادمون) وهو يجوب العالم الإسلامي من أقصاه لأقصاه، مقدمًا حيثيات وبُشريات، وزارعًا الأمل في نفوس أبناء المسلمين، متحديًا خصوم الإسلام على تنوع أطيافهم.. فجل معي – باختصار شديد – بعض الآفاق التي يطوف بنا الشاعر في أنحائها:

قادمون...
من مصر قلب العرب دار العلم والقرآن والأئمة الحداة
من بلد الأزهر حصن الدين حصن الضاد ينبوع المعلمين والدعاة
كنانة الله التي ردت عن الاسلام من قبل جحافل التتار والصليب والغزاة
من عين جالوت وحطين إلى يوم القناة
قادمون...
من جنوب النيل من سودانا الحر الأبي
محطم الأصنام لا يعنو لطاغوت ولا لأجنبي
قادمون...
من حول بيت المقدس الصامد في وجه بني صهيون
من بلدة الخليل من غزة من نابلس من جنين
حيث انتفاضة الجموع إلى حطين
قادمون...
من العراق الحر من دجلة والفرات

أرض الرشيد والأئمة والأعلام والأثبات

قادمون...

من بلاد الشام ذات الفضل في رواية الثقات

أرض ابن تيمية العملاق والجهابذ التقاة

قادمون...

من كل أرض الشام من أردنها المرابط المعاني

ومن مدينة الجبال من ربا عمان

من أرض لبنان التي طهرها القتال

وعرفتها الحرب أن الله لا يشرى ولا يغتال

قادمون...

من شاطئ البوسفور من أرض بني عثمان

أرض الخلافة التي أعلت قرونًا راية الإيمان

قادمون....

من ملتقى البحرين في الرباط في مغربنا الوثاب

من موطن الأحرار في كل السهول الخضر والهضاب

قادمون...

من تونس الخضراء..حيث قد أفاق جيل النصر فاتحًا عيونه

تقوده نحو الصراط المستقيم صحوة راشدة ميمونة

قادمون..

من بلد المقاتل المصابر المغوار

مدوخ الطليان فارس الصحاري عمر المختار

قادمون..

من مهبط الوحي جوار البيت عالي النسب

من طيبة التي طابت بروضة الحبيب الطيب

قادمون..

من الكويت من عمان من قطر من الإمارات من البحرين من نخل هجر
قادمون..
من بلد الأشاوس الأفغان أبطال الجهاد الصابر العنيد
من علموا السوفييت أن النصر بالإيمان لا بالنار والحديد
قادمون..
من أرض باكستان أرض الخير أرض الطهر
تلك التي قامت على الإسلام كي يعبد فيها الله دون قهر
إلى آخر القصيدة الطويلة الحافلة..

ومن خصائصه: وضوح المرحلية في كتاباته:

هناك شعراء حافظوا على نبرة واحدة، ونمط واحد، ونفس شعري متكرر، لم يعدوه من بداياتهم لنهاياتهم، ومثالي على هذا نزار قباني الذي انتهى كما بدأ، بصور واحدة، وألفاظ متكررة،، وموضوع لا يعدوه إلا قليلاً..

كذلك أحمد مطر، ومنذ لافتاته الأولى – وقد بدأت معرفتي به منذ عام 1984، حين قرأت له قصيدته سورة النسف – وحتى اليوم، يدور في الأسلوب نفسه، والموضوع ذاته..

لكن القرضاوي يختلف عن هذين المثلين؛ فلن يخطئ المتأمل ملاحظة أن القرضاوي الشاعر مر بمرحلتين شعريتين واضحتين:

مرحلة الشباب، وفيها العنفوان والثورة والتعابير النارية المواجهة، وخلالها كتب أكثر قصائده التي تحدثت عن الطغيان، والظلمة، والتغيير، والعسكر، والزنازين، والجلادين، والاغتيالات، والحرية، وأحقية الإسلام في السيادة.. ودخل في هذه المرحلة في خصوصياتٍ حركية منحازة، فكتب كثيرًا عن جماعة الإخوان، ومناقبها، ورجالها وما وقع عليها، وكتب عن رمزها الأكبر المرشد العام رحمه الله، وعن الأزهر كمؤسسة دينية مؤثرة تحتاج للتغيير والتطوير..

وكانت المرحلة الثانية مرحلة أكثر عمومية – وتبدأ في رأيي منذ أوائل الثمانينيات

– حين أحس أنه صار أكبر من أن ينحصر في جماعة أو تيار، فبدأ يتكلم كرجل عام يخاطب المسلمين جميعًا، ويوجه نداءه للأمة كلها؛ بغضّ النظر عن الانتماء والولاء الذي أشرت إلى حلقاته سابقًا، فكتب: يا أمتي/ أصوليون/ المسلمون قادمون/ سراب السلام/ إليك يا بن الإسلام.. كما كتب بعض الوجدانيات التي يدق بها باب الكريم الرحمن، بعد إحساسه بالسن، ووهن العظم: رباه عظمي كلا/ شوق و...

وفي هذه المرحلة تخلى أيضًا عن المحاولات المسرحية، وكتابة الأناشيد، والتجريب، وظهر الشح في إنتاجه الشعري والأدبي، بعد أن سلبته أولوياته الدعوية فراغه، واستحوذت على اهتمامه كله، فكأن لم تُبق هذه المشاغل والأولويات في نفسه من هوى الشعر إلا التذكر، والاستشهاد!

ومن خصائصه: السهولة والوضوح:

من أوضح خصائص شعر القرضاوي سهولته وقربه من النفس، فهو غالبًا – لا يحوج القارئ لمعجم، ولا يضطر متابعه إلى النظر لشرح كلمة في الهامش، أو تعليق عليها، وقد لاحظت أن التعليقات التي كتبت في الديوانين هي إما للتأريخ لموقف، والحديث عنه، وإما لبيان مصطلح شديد الخصوصية كالمصطلحات التي استخدمها في الحديث عن السجن (كالتكدير، والتعيين، والتموين، والتأمين؛ فهذه لها دلالات اصطلاحية بين السجناء والسجانين) أو المصطلحات المغرقة في المحلية..

انظر مثلاً إلى أبياته هذه في المناجاة، والمناجاة في كثير من الأحيان منهج يستحب فيه الرمز، والإشارات الوجدانيات، كما يفعل الصوفية – وللقرضاوي معهم وشيجة – وتأمل كيف جرت الأبيات صادقة، عاطفية، وفي الوقت ذاته واضحة، دون إشارات أو إسقاطات، أو ألغاز، أو إغراب في الألفاظ:

يا رب حكمتك اقتضتني مذنبًا	لأجيءَ بابك أستجير وأضرع
فترى عُبيدك تائبًا مستغفرًا	وأراك غفارًا لذنب يفظع
أنا إن عصيت فذاك من نقصي ومَن	غير الإله له الكمال الأرفع
يا رب أنت خلقتني من طينة	ومن الذي لأصوله لا يَنْزِع

لولا هداك ونفخةٍ علوية	أودعتها روحي لكان المصرع
فبها أصول على التراب ترفعًا	وبها أحلق حين تصفو الأضلع
الطين يجذبها إليه بشدة	والروح تصعدني إليك وترفع
فإذا ارتقيت إلى رضاك فغايتي	وإذا هبطت فدائمًا أتطلع

وإذا كان شعره في هذا الغرض واضحًا هذا الوضوح، فهو فيما سواه أوضح وأيسر، ولا يحسبن أحد أن هذا مأخذ أو نقطة ضعف – وقد أشرت إلى ذلك من قبل – فأنا أومن بالشعر الذي يحرك الشعور، ويستثير عقول الناس وعواطفهم، البعيد عن الإلغاز، والتهاويم، والإسقاطات التي لا يستوعبها الشاعر نفسه، ويريد من الآخرين أن يستجلوا بواطنها! ذلك الذي يخدر الناس بكلمات تلتصق بحلوقهم دون معنى، ويليههم عن معاناتهم، ويصرفهم عن تغيير واقعهم، كما قال مطر:

كفرتُ بالشعر الذي لا يوقفُ الظلمَ ولا يحرّك الضمائرْ/ لعنتُ كلَّ كلمةٍ لم تنطلق من بعدها مسيرةٌ/ لعنتُ كل شاعرٍ ينام فوق الجمل النديّةِ الوثيرة/ وشعبه ينام في المقابرْ/ لعنتُ كل شاعر يستلهم الدمعة خمرًا والأسى صبابةً والموت قشعريرةً / لعنت كل شاعرٍ يغازل الشفاه والأثداء والضفائر/ في زمن الكلاب والمخافرْ!

ومن خصائصه: الحمية والعاطفية

القرضاوي – بشكل عام – شخصية مشحونة بالقيم والأخلاقيات، والمثاليات التي تدل على نفس نقية – ولا أزكيه على الله – وشخصية مثل هذه رغم القشرة العقلانية، تكون عاطفية شاعرة، لذا فإن جمل القرضاوي – من المبتدأ للمنتهى – نثرًا كانت أم شعرًا، ملغومة دائمًا بالانفعال الذاتي، النابع من الصدق – ولا أزكي على الله أحدًا – والإحساس بدوره التاريخي والدعوي، وانشغاله الدائم بقضايا المسلمين، وكثيرًا ما يكون أداؤه ملتهبًا ساخنًا بسبب اضطرام القضية التي يتحدث عنها في وجدانه!

انظر إلى دفقة الرقة والعاطفية في مطلعه الجميل:

قلبي يحس برحمة تتدفق ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا

وانظر إلى كمّ الحب، والإعجاب، والولاء في قوله:

كم أنشأت شعبًا كالأنجم انتشرت في مصر دورَ هدًى، يا نعمت الدورُ
أكرِم بها شعبًا، بل يا لها شُعلاً تكوي وتهدي، كذاك النارُ والنورُ

وانظر إلى شحنة الحمية والغضب والانفعال والمواجهة، في قوله:

يا للرجال، أما من غضبة عمم تشفي الصدور؟ وطغيان بطغيان
فحطموا القيد عن أيديكمُ وثبوا فالموت والعيش تحت القيد سيان!

وانظر إلى بغضه الظالمين، ورغبته في مواجهتهم في رثائيته الباكرة:

قتلوك.. شلت كفُّ من قتلوكا

وانظر إلى استمساكه بدينه، وإصراره على التحمل لأقصى مدىً، واعتزازه الراقي بما هو عليه، واستهانته بكل المحن والآلام:

ضع في يديَّ القيد ألهب أضلعي بالسوط ضع عنقي على السكّين
لن تستطيع حصار فكري ساعةً أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي وقلبي في يديْ ربّي.. وربّي ناصري ومعيني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي وأموت مبتسمًا ليحيا ديني

وانظر إلى انكسار نفسه لمولاه، وذله بين يديه، وبراعته في توظيف عبارات التضرع، والرجاء والدعاء:

يا رب في الأولى سترت نقائصي * فأتمَّ سترك يوم عندك أعرض
مالي سواك إذا الخطوب تفاقمت * أمري إليك على الداوم مفوض
لو كان لي رب سواك رجوته * فلمن أمد يدي ومن أستقرض
رباه إن رضاك غاية مطلبي * ما ضرني سَخِط البرية أم رضوا

وتأمل مهارته في الاستنفار، وتحريك العزائم، واستنخاء الضمير في حائيته: يا أمتي:

أرأيت كيف يكاد للإسلام في وضح الصباح؟
أرأيت أرض الأنبياء وما تعاني من جراح؟
عاد التتار يقودهم جنكيز ذو الوجه الوقاح
عادت جيوشهمُ تهدد بالخراب والاجتياح
عادوا ولا (قطز) ينادي المسلمين إلى الكفاح

لولا صلابة فتية غر.. بدينهمُ شحاح
بذلوا الدماء وما على من يبذل الدم من جناح
عاد المروق مجاهرًا ما عاد يخشى الافتضاح
نفقت هنا سوق النفاق تروِّج الزور الصراح
فيها يباع الفسق تحت اسم الفنون والانفتاح
من كل أكذب من مسيلمة وأفجر من سجاح
وجد الحصون بغير حراس، لها فغدا وراح
ومضى يعربد لا يبالي في حمانا المستباح
وتعالت الأصوات تدعو للفجور وللسفاح
مسعورة إن رحت تزجرها تمادت في النباح
ما من (أبي بكر) يؤدبهم ويكبح من جماح
ويعيدهم لحظيرة الإيمان قد خفضوا الجناح
يا أمة الاسلام هبوا واعملوا، فالوقت راح
الكفر جمع شمله فلم النزاع والانتطاح؟

ولعل في هذه الإشارات كفاية..

ومن خصائصه التوسع في التضمين، واستدعاء التراث بأشكاله:

لأن ثقافة الشيخ الدينية موسوعية – متع الله به – ولأنه انشغل منذ بداياته الباكرة بالقرآن والعلم والدعوة، فلن تخطئ عينك قارئي العزيز ولع الشيخ باستدعاء التراث الإسلامي، ومصادره من القرآن والسنة، ومن استدعاء أشعار العرب، وأمثالهم، ومن استدعاء التاريخ ورموزه وحكاياه.

وإنك – بمجرد أن تفتح القصيدة الأولى ثم ما بعدها في ديوانه: المسلمون قادمون – ستجده يقول مقتبسًا من القرآن الكريم:

(وإذا غضبن فما لكم من وال) ثم تتوالى اقتباساته وتضميناته من كتاب الله تعالى: أتلوه يهدي للتي هي أقومُ/ نحو القويِّ ورفده المرفودِ/ حكموا ولم يك حكمهم برشيدِ/ وبنخلها وبطلحها المنضودِ/ قد أحرقوا زرعي وحب حصيدي/ من ينصر الله ينصره، فلا أملٌ/ أضحى أمرهم فُرطا/ هي التي جعلتنا أمةً وسطا/ يؤزه الشيطان أزًّا/ يخاصم حزبه بغيًا وعدوًا/ إذا ذكر الضلال اهتز بشرًا، وإن ذُكر الهدى تره اشمأزّا/ فتلكم قسمة والله ضئزى/ فاسجدي لله واقتربي/ خلق الكون كله أزواجا/.. وإن كان نطفة أمشاجا/ كأن لم تغنَ بالأمس/ أزلزلت الأرض زلزالها؟ وما بعدها..) وهكذا ستجد الكثير، فأنا هنا لا أحاول استيعاب النماذج؛ بل أشير إشارات تكفي اللبيب.

وستجده يقول مقتبسًا من السنة الشريفة: (إمهال ربي ليس بالإهمالِ/ ما بعت نفسي إلا.. له عز وجلا/ والدين قال يسروا وبشروا/ بعد تداعي الكفر كله على أمتنا تداعي الجياع للقصاعِ/ لا بد من يوم لكم.. يلعنكم فيه الملاك والبشر.. فيه سينطق الحجر.. مطاردًا لكم ويصرخ الشجر/ ويضرب الذل عليكم/ الشعب لا ينسى.. وعين الله لا تنام/ فأملوا وأبشروا/ كم بال في أذني شيطان الكرى/ كم وسوس الخناس في صدري فلم.. يجد الذي يعلو قفاه ويصفع/ يا خير من أعطى، وأكرم من عفا/ لكن عافية الرحمن أوسع لي) وغيرها كثير.

وستجده يقول مقتبسًا من لغة الفقهاء غيرهم: بالترتيل والتجويدِ/ من صائمين وركعٍ وسجود/ لا تلفيه مغتسلاً، ولا ينظف رأسًا منه أو إبطا/ أضناه أكلاً ومحقونًا ومستعَطا/ ولا تمل عنه.. لا وكسًا ولا شططا/ في الأمر جزءًا وكُلا/ لا صلاة عرجاء تبدو خداجا/... يقطع الأوداجا/ دعك من المتون والشروحِ.. وغيرها كثير!

وستجده يقول مقتبسًا من الأمثال العربية: (إن الضرورة تحكمُ/ أقام فوق الحروف الشكل والنقطا/ لكنه الخوض في الأوحال للركبِ/ إذا ما لم تكن إبل فمَعزى/ أيرجى الدرُّ من تيسِ؟/ فلا يأس مع الدينِ ولا دين مع اليأسِ/ وأذِّنوا إن شئتمُ في ملطة/ قد يُطلعون الشمس نصف الليلِ/ وفي صراحة الوزير راحة/ حتى قيل: جنيُّ/ لا شيء

يعدوهم، فكل الصيد في جوف الفَرا/ انطلق المارد من قمقمه../ أفعندنا كبش النطاح ونعجة.. في الحرب جماء بغير قرونِ.. وغيرها كثير.

وستجده يقول مقتبسًا من الشعراء الآخرين: (ومضوا كسيل من مكان عال/ كسر الزجاجة كسرٌ غير منشعبِ/ أغلى الحلي حلى الأخلاق والأدبِ/.. ولن تجتني شوكًا من العنب/ فالغصن أقرب تقويمًا من الخشبِ/ والعلم في صغرٍ كالنقش في حجرٍ.. ومن يشب على شيء به يشبِ/ وينشد إبليس لحن الردى، ونحن على لحنه نرقص/ أعذب مطرب هو الحمارُ.. وشر مزعج هو الهزارُ.. وغيرها كثير.

وستجده يقول مستدعيًا التاريخ: (إيذاء عمار وجلد بلالِ/ لا نهج فرعونٍ ولا نمرودِ/ وآخر هاديه أبو لهبِ/ ممن تقفّت خطا حمالةِ الحطبِ/ فإن عبدوا مناة أضاف عزى/.. كمن كان شيخُه الحلاجا/ لا يولي أمره الحجّاجا/ ومن يعم منه القلب لو أنه رأى.. عيانًا عصا موسى لكذب بالعصا/ ولو عاش أيام المسيح لما عنا... لآياته من برء أعمى وأبرصا/ أصنام سوء لا دواء لها سوى.. فأس الخليل تحيلهن جذاذا/ وخدروهم بصلاح الدين.. وأنهم غدًا إلى حطينِ/... وغيرها كثير، خصوصًا في قصيدته: المسلمون قادمون.

ومن خصائصه استدعاء بعض المفردات الشعبية:

لاحظت فيما مضى أن الشيخ في لغته وفي شعره يتنزل أحيانًا ليستخدم مثلاً شعبيًّا، أو مفردة عامية، تكون في الكلام كالملح في الطعام، تضفي عليه طعمًا مستساغًا محببًا، وستجد هذه السمة أو الخَصيصة منثورة في أثناء القصائد بشكل يعطيها طرافة وقبولاً.

ومن أمثلة توظيف المفردات والكنايات العامية قوله: ورجعت بالعبرات فوق خدودي/ ورددت خطّابي بكل برودِ/ رباه إن الظلم دمر عيشتي/ رباه... خذهم/ إن كنت عاجزة فإنك قادرٌ/ يخال حياته جوزًا ولوزًا/ وأعمالُ خيرٍ هي الحمّصُ/ وإنتاجها الصفر أو أنقصُ/... لا بالسنت والبنسِ/ لقاءات على دخَنٍ.. لشرب الشاي والببسي/

حوار الصم والخُرسِ/ وقاوموا نفوذ أهل الكيفِ/ حتى الدخان عندهم ممنوعُ/ وتلك كالهروين والحشيشِ/ لكي يحاربوا طواحين الهوا/ وأين يذهبُ المِني والمِكرو؟

ولا أشك أن انتشار هذه الملامح التي يتنزل فيها الشيخ لغويًّا أمر مما يحمد ولا يعاب، ومما يكشف عن سبب من أسباب قرب الشيخ من قلوب جمهوره، وحرصه على التواصل معهم، نسأل الله تعالى أن يديم النفع به..

ولعل في هذه الإشارات غنية وكفاية.

من ضوائع القرضاوي

وجهة نظر:

كل قصيدة يكتبها شاعر هي قطعة منه، ومن الزمن، تجمدت فصيغت بالكلمات شعرًا ومشاعر، لذا فهو يضن بها، ويأسى إذا ضاعت، ولا يألو جهدًا للوصول إليها. وكل قصيدة يجدها المبدع بعد ما أيس من العثور عليها تكون قطعة من عقله وذكرياته أعيدت إليه، ولو كان بعض أبيات؛ فهي تجدد الشجن، وتثير الحنين..

وضوائع شيخنا القرضاوي كثيرة، بعضها فُقد رغمًا عنه – مع غارات زوار الظلام كما سماهم – وبعضها سُلم لإخوة – لم يتمكنوا لسبب ما من المحافظة على النسخة الوحيدة من القصيدة – فأضاعوها، وبعضها ضاع أثناء النقل من مكان لمكان، وبعضها نسي أين وضع، وجرت عليه سنن الله تبارك وتعالى.. وفي هذا يقول الشيخ:

أذكر أنه ضاع لي عدد من القصائد التي أنشأتها في تلك المرحلة، وجلها في الوطنيات والمناسبات الإسلامية، وقصائد في مناسبات وطنية، أو دينية مثل المولد النبوي، وقصيدة في رثاء الشيخ المراغي، وغيرها، كلها ذهبت فيما ذهب؛ تخلص منها إخواني الذين أودعتها عندهم؛ خوف مداهمات التفتيش، وهذه ستكشفهم وتدل عليهم، فلم يكن منهم إلا أن أحرقوها، وهم لا يعلمون أنهم إنما أحرقوا معها قلبي، سامحهم الله، وجزى من خوفهم إلى هذه الدرجة ما يستحق.

وقد أزعم أن نسبة لا يستهان بها مما أبدع شيخنا قد ذهبت من الريح – وإن خولفتُ في هذا – لأسباب عدة؛ منها:

- أن الشيخ مكثرٌ من العطاء في طبيعته، وقد وهبه الله تعالى سيولة في القريحة، وفي القلم.

- أنه عرف في سنينه الأولى شاعرًا، وكان يستدعى خصيصًا لإلقاء قصائده التي تفاعل معها جمهوره بشكل واسع.
- وأنه يتفاعل – منذ البدايات – مع الأحداث، مشاركًا، ومحللاً، فليس من السهل أن تمر حادثة كبيرة دون أن يقول فيها.. وقد مرت بفضيلته أحداث كثيرة لا تزال توثر في الحياة العامة حتى اليوم.
- كما أنه حريص على حفظ إنتاجه بحكم تكوينه الشخصي، الذي يعتز كثيرًا بما يبدع، ويحب التوثيق والضبط.
- وقد تذكر أثناء تدوين مذكراته عددًا من العناوين والأبيات، لكنه لم يكد يجمع قصيدة كاملة مما فقد، بل ربما تذكر بيتًا واحدًا من قصيدة فقيدة، فلم لا ينسى قصائد كاملة؟!

وقد لاحظت أنه شارك – منذ مطالع شبابه – في مهرجانات ومؤتمرات وملتقيات وأمسيات، فما لنا لا نجد غير ديوانين في أحدهما ثمانية عشر نشيدًا وقصيدة، وفي الثاني أربعًا وعشرين؟!

أهذا معقول؟

أكل حصيلته في هذا العمر المبارك، والعمل الذي لا ينقطع، أقل من أربعين قصيدة، ومسرحية شعرية واحدة؟

قلبي يقول لا، وعقلي يقول لا، والحقائق تهتف بي أنه يجب أن تُفتَّش آثار الشيخ ومكتباته بعناية، كما يجب أن تراجَع مجلة المباحث الفضائية، والإخوان المسلمون وغيرهما من المجلات التي كانت تنشر للشيخ منذ أربعينيات القرن الفائت، يعكف عليها باحث صبور دؤوب، ليستخرج للأمة والتاريخ والحقيقة ما لا يسعفني الوقت القصير الذي أجهز فيه هذه الورقات لاستخراجه، وما لا يسعفني انشغالي بواجبات ينوء بها كاهلي؛ فمن ينتهض لهذه الضوائع، ويخرج لنا ديوان شعر عن: ضوائع القرضاوي؟

ويعزز ظني السابق أنني مسحت مذكرات الشيخ حفظه الله (سيرة ومسيرة) لأجده في مواضع كثيرة يصرح أنه قال هنا أبياتًا، وذكر هناك قصيدة، وشارك هنالك بمطولة شعرية، ويتذكر أبياتًا من المفقود..

وسأحاول إيراد ما استطعت من هذه الضوائع هنا، التي تذكرها في مذكراته، مع شيء من الترتيب والعناية، وكذا سأورد القصائد التي وجدتها أو بعضها في المباحث والإخوان، كما سأورد جزءًا كبيرًا من أهم ضوائعه: مسرحية يوسف الصديق، التي بدأها مبكرًا جدًّا، وكانت أول ما طبع له من الأعمال، حين كان في الصف الأول الثانوي بالمعهد الأحمدي.

واعتمادي هنا على مذكرات الشيخ حفظه الله تعالى، وبعض ما أمكنني الوصول إليه من المجلات القديمة عن طريق الأخ عصام تليمة السكرتير السابق للشيخ، وسأحافظ على لغة الشيخ ما استطعت؛ إلا ما اقتضته صياغة، أو ظننته خطأ طباعيًّا، وكم للطابعين من زلات تحرج المؤلفين، وقد تحل الحرام وتحرم الحلال، وتبرئ المسيئين، وتسيء للبرآء.

اسألوا السكرتاريا:

وعلمي أن الشيخ يكره جدًّا أن يتدخل أحد في صياغاته، أو يراجع وراءه شيئًا – ثقة منه بنفسه واقتدارًا – ولعل من اللطيف أن أسوق هنا حادثة وقعت معي أنا شخصيًّا قبل خمس وعشرين سنة، لا يعرف بها الشيخ ولا غيره؛ فلا أذكر أنني حكيتها لأحد:

كنت آنئذٍ محررًا لغويًّا في مجلة الأمة – عليها رحمة الله – وكنت أتلقى مقالات الكتّاب كما كتبوها – قبل أيام الشيخ كمبيوتر حفظه الله – لأجد منهم المحسن والمسيء، وأتعرف على المتأنق والمتساهل، ومن يخطئ في الإملاء والنحو، ومن لا يُفلت نأمة، ومن يكتب (نكش فراخ) ومن يصوغ مقالته كأنها ذهب سبيك، ويشتركون جميعًا أنهم من المشاهير الأعلام..

ولا أذيع سرًّا إذا قلت إنني لم تر عيني أحسن خطًّا وضبطًا لمقالة من ثلاثة أعلام متباينى الأقطار والتوجه: هم الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من سوريا، والرجل الجليل الفخم اللواء الركن محمود شيت خطاب من العراق، والدكتور الطبيب الأديب حسان حتحوت من مصر.. تأتيك مقالة أحدهم فلا تستطيع أن تضيف إليها نقطة، أو فاصلة، أو علامة ترقيم، مع جمال خط، وحسن ترتيب؛ غير المادة الشائقة الجاذبة الجميلة.

وكان فضيلة الشيخ الغزالي يكتب بخط غريب علي كمصري، أقرب في ملامحه للخط الفارسي، بكلمات كبيرة ضخمة، حتى إن مفردات سطره لا تزيد على خمس أو ست، ويكتب على سطر ويترك سطرًا، على عكس شيخنا القرضاوي الذي (يعقّد) من يقرأ له، فالسطور متتابعة، وفي السطر خمسمائة كلمة، مكتوبة بخط رقعة دقيق، بسرعة تُعجله أحيانًا عن وضع النقاط على الحروف، والهمزات حيث تنبغي، ناهيك عن علامات الترقيم النادرة، وكأنه يتمثل قول المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلقُ جرّاها ويختصمُ

والخلق هنا هم السكرتارية، والمصححون الغلابة الذين لا بد لهم أن يعرفوا طريقة الشيخ، وإلا وقعوا في عناء وعنت..

وربما واتته – حين يعيد قراءة صفحة كتبها بيده – كلمة يضيفها، أو جملة يزيدها، أو فقرة يفرّعها، فيمد الأسهم على الهوامش يمينًا وشمالاً، وأعلى وأسفل، وربما إلى ظهر الصفحة، واسأل إن شككت في كلامي سكرتيريه؛ لتعلم أنه يضنيهم بخطه المنمنم الدقيق!

فأما ما حصل – وآسف على الاستطرادة السابقة، لكنها في إطار حديثنا – فهو أنني كنت أصحح مقالة من مقالاته للمجلة، فوجدت فيها كلمة مجزومة بحذف حرف العلة، لم أر آنذاك وجهًا نحويًّا لجزمها، فعدلتها على ما ظننت، ثم ألهمني الله – قبل أن تقع الطوبة في المعطوبة – أن آخذها للمحرر الأول للمجلة، لأذكر وجهة نظري، فذُعر الرجل وقال: يرحم والديك، احنا مش أدّ الشيخ يوسف.. أكيد هي صحيحة

ولها وجه احنا مش منتبهين له.. خليها، ما دام كتبها كدا هو حرّ.. لا تورطنا معاه أخي.. الله يرضى عليييييك!

طبعًا لم يعجبني هذا كثيرًا، لكنني انصعت لكلام (الريس) فيما أخذت أفتش عن سبب نحوي مقنع، لأجد بعد ذلك أن ما ساقه صحيح، وهو نص حديث ضعيف: (كما تكونوا يولّ عليكم) وأن للجزم مساغًا، فبلعت لساني وسكت!

السياقات التاريخية والعمْرية:

ومن المناسب هنا فيما أظن أن ألفت نظر القارئ الكريم لإنتاج الشيخ الشعري أن يضع القصائد في سياقها التاريخي، ومساحتها العمرية من حياة الشيخ حفظه الله تعالى، وينظر بعين العقل إلى الحياة الهدارة التي كانت في النصف الأول من القرن العشرين أو ثليه، وما حفلت به من تيارات صاخبة سياسية وفكرية وعقيدية ووطنية ودعوية، اقتضت المفكرين ألوانًا من التعبير والكتابة ربما لا يصلح بعضها الآن، لكنها كانت أنسب ما يناسب، وأوجب ما يجب.

كما أن عليه أن ينظر بعين الواقع إلى العمر؛ فمن قصائده ما كتب وهو دون العشرين، ومنها ما كتب بعد العشرين، ومنها ما أبدعه بعد. منها ما كتبه وهو في وقدة الشباب وعرامه، ومنها ما صيغ بعد أن عركت الشيخ التجارب، وصاغته المحن، وصقلته الدربة، وأكسبته السنون عمق الفكرة؛ لذا فإن القصائد ستتفاوت قوة وضعفًا – بحسب سياقاتها – فتأمل..

كما نلاحظ أن جل الضوائع تغلب عليه الروح (القتالية) إذا صح التعبير، فهي ملأى بألفاظ مجلجلة شبابية متحدية ناقدة، بحسب المناسبات والمواقف التي أملتها، وإن كان أكثرها في الوطنيات والمناسبات الإسلامية كما

قال الشيخ نفسه، واسمحوا لنا أن نورد بعض ضوائع الشيخ حفظه الله بغير ترتب، حتى أعود لها فيما بعد إن شاء ربنا تبارك وتعالى:

لولا قيادة حكمة تنهاهمو

تحت هذا العنوان كتب الشيخ في رثاء الأخ الصادق مرعي أربعة عشر بيتًا، نشرتها مجلة الإخوان المسلمون: 4/ 2/ 1948 استطعت أن أقرأ منها:

لولا قيادة حكمة تنهاهمو

وجاءتنا قصيدة من الأخ يوسف القرضاوي مندوب معهد طنطا ننشرها فيما يلي:

قتلوك شلت كفُّ من قتلوكا يا صادقًا لهمو وهم كذبوكا *

يا من حملت اسمًا كريمًا صادقًا فصدقت عهد الله حين لقوكا

وهتفت باسم الله والدم سائل الله أكبر لم تزل تحدوكا

قتلوك ما قتلوك إنك خالد .....

....

....

....

....

....

يا راحلاً للخلد أودع خلفه مهجًا تذوب.. وليتها تقفوكا

لولا سكون ضلوعنا لقلوبنا طارت إليك بثوب من.....

....

الله يعلم أن روحك قاطنٌ فيها، وإن عن أعينٍ حجبوكا

لولا قيادة حكمة تنهاهمو لم يكفهم من قتلوكا

---

* ألف الخروج هنا من وضعي، فهي في المنشور: قتلوك، كذبوك، لقوك، تحْدوك، إلخ.

بعبد الله أشرقت الروابي

يقول الشيخ متع الله به:.... كان لي أبيات قلتها في مديح سيدي عبد الله ابن الحارث، الذي كان لقريتنا (صفط تراب) الحظوة به دون سواها، وهي أبيات لم تنشر من قبل، وهذه مناسبة لأسجلها هنا، وأنا أعطي صورة عن القرية، قلت:

بعبد الله أشرقت الروابي	وبوركت السهولُ مع الهضابِ
صحابيّ الرسول، جزيت خيرًا	عن الإسلام، يا نعم الصحابي
شرفتَ بصحبة المختار دهرًا	تلقَّى من مناهله العِذاب
وتسمع منه قول الحق صفوًا	وتشهد فعله.. وبلا حجاب
وجئت لمصر تحمل خير دينٍ	مع ابن العاص في شرخ الشباب
ورحب شعب مصر بكم، وأصغى	لدعوتكم، وفتَّح كل باب
دعوتم مصر بالحسنى فلبّت	نداء الله، لا بِشَبا الحراب
بسيف الحب والعدل انتصرتم	وليس ببطش ذي ظفر وناب
وأمست مصر للإسلام حصنًا	ودرعًا للسان وللكتاب
وأنقذتم من الرومان شعبًا	غدا لهمو كأبقار الحِلاب
وأسلم أهل صفطَ على يديكم	ودانَوْكم بصهرٍ واقتراب
وعشت بها ومت بها هنيئًا	لها بك من جوار مستطاب
وحق لصفطنا بك أن تسمى	بصفط التبر لا صفط التراب!

وتلاحظ في القصيدة الروح التأريخية، والتقريرية، وأظرف ما فيها دعوته لتغيير اسم القرية إلى صفط التبر!

وليت أهلها يملكون من الوعي ما يجعلهم يتبنون دعوة الشيخ هذه ليكون الخير من جهتين، ولو أسموها (صفط الذهب) لكان أسهل على ألسنة العامة؛

فما تقولون يا صفطاوية؟!

في ذكرى الهجرة

ومن ضوائع الشيخ قصيدة عينية، عنوانها: في ذكرى الهجرة، كان مطلعها:

سهرت إلى نجم السها أتطلعُ وأصبحت من جام الأسى أتجرعُ
وما بي هوى ليلى ولا عشقُ زينبٍ ولا غــرني قرطٌ وعقـد مرصعُ
ولكنني أهوى العلا في محمد وليس لقلـبي في سواه تــطلع

ومن هذه القصيدة:

فهل كان أسطولٌ، وكانت قنابلٌ وكانت مظلاتٌ تقيه وتمنع؟
عديمٌ عديمٌ كل هذا، وإنما هو النصرُ من أفق السموات يطلع
بحسبك نسج العنكبوت مظلةً وقنبلةً من صنع ورقاء تسجع

يقول الشيخ حفظه الله: وكنت لا أزال على الاعتقاد الشائع بأن هناك حمامة عششت على الغار، وعنكبوتًا نسجت عليه، ولم يثبت هذا بحديث صحيح، وبخاصة ما يتعلق بالحمامة، والقرآن يقول في سورة التوبة: (وأيده بجنود لم تروها) والحمام والعنكبوت جنود مرئية! ومن هذه القصيدة:

وماذا ستجدينا القصور شوامخًا وأخلاقُ أهليها خرابٌ وبلقع؟
وماذا يفيد القزُّ والجلد أجربٌ؟ وهل ينفع الطربوش والرأس أقرع؟

والشيخ في هذه القصيدة أكثر عمقًا، وأجود سبكًا، وقد نجح في توظيف القافية العينية التي يروق الشعراء المتفلسفة استخدامها، ولا أدرى لماذا تراودني هنا عينية ابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاءُ ذات تعزّزٍ وتمنّع

ولعل ألطف لطائف هذه الأبيات هو المصراع الذي يقول الشيخ فيه (وهل ينفع الطربوش والرأس أقرع؟!) ففيه إشارة إلى رغبة الشيخ آنئذٍ في تحديث المفردات والصور في قصائده، وروحه الشبابية في صياغة القصيدة!

وأنا أسلم مع شيخ الأمة بنفي قصة الحمامة التي لم تصح سندًا، لكني لا أسلم برفض حكاية العنكبوت بحجة أنها مرئية، فالإخباريون يثبتون قصة سراقة رضي الله

عنه، كما يثبتون حكاية أم معبد، ونسج العنكبوت، والنوم الذي ألقي على الكفار المتربصين عند خروجه صلى الله عليه وسلم، وكلها جنود مرئية، وهل يمنع كون بعض الجنود لا تُرى، وجود جنود قد رأوها؟!

وحي الهجرة:

ومن ضوائعه الطويلة قصيدته الرائية وحي الهجرة التي تبلغ 56 بيتًا، وفيها قسم الشاعر السيرة النبوية المشرفة مشاهد، كأنه كان ينسج على منوال أحمد محرم، صاحب الإلياذة الإسلامية أو ملحمة السيرة، وليته أتمها، إذن لكانت عملاً مما يجوز إنشاده على المسرح من خلال مجموعات من الملقين المهرة.. وهي منشورة بالمباحث القضائية، ولم أعرف تاريخ النشر – لأني رأيت صور صفحات لا المجلة ذاتها – كما لاحظت أن هناك بعض الأخطاء الطباعية، بجانب ألفاظ يسيرة عجزت عن قراءتها؛ بسبب صغر الفونط، ورداءة الطبع، فأرجو المعذرة..

وهذا هو نص ما نشرته المباحث القضائية:

وحي الهجرة نظم: يوسف القرضاوي

يا هجرة النور في ذكراك لي طرب	وطالما مرت الأعياد والذكر
كم فيك من موقف للحق عز به	يفنى الزمان ويبقى وهو مزدهر

شجاعة عمر

يوم انتضى سيفه الفاروق في ثقة	وبين جنبيه سيف ليس ينكسر
سيفان سلا: أبو حفص وصارمه	الاثنان يقدح من عينيهما الشرر
يهدد القوم بالتقتيل منفردا	ويرضخ القوم إذعانًا وقد كثروا
يقول: شاهت وجوه ربها هُبل	وأرغمت أنف من في غيهم سدروا
يصيح: من يتبعنّي زار أسرته	اليتم والثكل والترميل والكدر

من رام أن يرقص الأعناق من طرب	فإن كفي وسيفي العود والوتر
ومر كالدهر لا تثنى عزيمته	وطأطؤوا كاليتامى حين تنتهر
ما أعظم الجمع! لولا أنهم كفروا	وأهون الفرد! لولا أنه عمر

مؤامرة

ويوم آوت قريشًا دار ندوتهم	مؤامرة كمجلس الأمن بالعدوان يأتمر
يقلبون قداح الرأي في رجل	يدعو ودعوته في شرعهم نكر
يدعو إلى شرعة كالصبح نيرة	أن يعبد الله.. لا أن يعبد الحجر
أيخرجون رسول الله ويحهمُ؟	فالبدر أنى سرى يهدي ويزدهر
أم يحبسون الذي وافى يحررهم؟	والمسك إن يخف يبدو نشره العطر
أم يقتلون الذي يحمي بصائرهم؟	وأين عبد مناف؟ إنهم..... نمر
أم يجمعون ثلاثين امرءًا يده	فيها الحسام كما في قلبه السحر
..... ضربة جمعاء تقتله	وما لعبد مناف عندهم قدر
هذا هو الرأي إبليس يعضده	وساء رأيًا به إبليس يفتخر

العبد يقرر، والله يقدر

دع الطغاة ليلقوا بذر باطلهم	فإن في صخرة صمّاء ما بذروا
دعهم يشيدوا على الأمواج صرح منى	هم يمكرون وعند الله ما مكروا
يقرر العبد والأقدار ضاحكة	مما يقرره من ليس يقتدر

وإنما يملك التنفيذ من يده	في قهرها الجن والأملاك والبشر
مرسوم ربك قد جاء الأمين به	وحيًا لأحمد أن هاجِر لمن طهروا
لا تحسبوها فرارًا.. إن هجرته	توحيد جهد.. وتكتيل له أثر

تضحية علي

من في فراش الهدى تغشاه بردته؟	والقوم بالباب هم ناب وهم ظفر؟
هذا ابن عم رسول الله يخلفه	هل يخلف البدر إلا الأنجم الزهر؟!
والبيض تنظر شزرا وهو لا وجِل	والموت يفغر فاه.. وهو لا حذر
إن كان قُدِّر موت لم يفد حذر	أو لم يقدر: فمم الجبن والخور؟
وأشرق الصبح بالآمال مشرقة	فهم بأحمد وهو القصد قد ظفروا!
يا خيبة الأمل المرموق حين رأوا	أن المسجى عليٌّ لا من انتظروا
أجل لقد خرج الهادي وهم حرسٌ	معفرًا لرؤوس حشوها البطر
أليس أحمد نور العالمين بدا	وهل يرى النور إلا من له بصر؟
إن الإله الذي أعمى بصائرهم	أعشى العيون عن الهادي فما نظروا

إيمان أبي بكر

لله سرى الهادي وصاحبه	يحكيهما النيران الشمس والقمر
جدا إلى الغار لا جبنا ولا جزعًا	إلا استتارًا.. وغالي الدر يستتر
قال الصديق: تمهل يفتديك دمي	حتى أجوس شقوقًا كلها خطر

سد الشقوق إزار منه مشرفه	وظل بالحب والإيمان يأتزر
وظل بالغار جحر فاتح فمه	فسده عقب بالطهر مشتهر
ما أكرم الغار لولا أن حيته	حيت صديق الهدى باللدغ يستعر
وأوجع السم لولا أن وقدته	زالت بنفة ريق ماؤه سَكر

بالبيض لا البيض

ماذا على غار ثور والرسول به	..... اسمها القدر
فل... القوم ما شاء الـ.... لهم	هاهم قريش عن الأنياب قد كشروا
فليت شعري وما بالباب من حرس	كيف النجاة لطه وهو منحصر
مهلاً فللقوم قوات وأسلحة	فنصر ربك لا يبقي ولا يذر
بالبيض لا البيض أنجى الله من يدهم	خير الورى، يأولي الأبصار فاعتبروا

هجرة الإخوان

قل للألى أخرجونا من مواطننا	لستم بإخراجنا أفذاذًا ابتكروا
فهجرة الحر بالإيمان مضطهدًا	أمر دعاه..... التاريخ والسير
واهًا لهم أخرجوا الجثمان من وطن	هل أخرجوا القلب من دين به كفروا؟
يا ويلهم! نفضوا اليدين فمذ	حلوا الجماعة قلنا: قبرهم حفروا
وأغلقوا الدور ظنوا الدور قبلتنا	أيعجز الطير عشٌّ أيها الزمر؟
ورغبونا فقلنا: الله غايتنا	وعذبونا فقلنا: قبلنا نُشِرُوا
وحرموا أن ترى أعمالنا وضحا	والبذر يحيا وينمو وهو مستتر

قالوا إلى الطور، قلنا دار هجرتنا	منها نعبئ تقوانا وندخر
بشرى لمن أخرجوا في الله واضطهدوا	والويل للظلم.. والعقبى لمن صبروا

الدعوة تتحدث عن نفسها

ومن الضوائع قصيدة بعنوان الدعوة تتحدث عن نفسها ألقاها الشيخ في الاحتفالات بمرور عشرين عامًا على تأسيس حركة الإخوان.

وقد أصدرت جريدة الإخوان اليومية عددًا ضخمًا خاصًّا بهذه المناسبة – كما أشار الشيخ في مذكراته – تضمن بعض تاريخ الإخوان، وألوانًا شتى من أنشطتهم المتنوعة، ومساهماتهم في خدمة المجتمع.

كما احتفلت شُعب الإخوان في أنحاء مصر بهذه المناسبة، فكان للشيخ نصيب من المشاركات في عدد من البلدان.

وقد أخذها إخوان محلة أبو علي لتنشر في مجلة أو نشرة خاصة تظهر بهذه المناسبة، وكان لا بد لرجال المباحث أو القسم المخصوص كما كان يسمى: أن يوافق على مادة المجلة قبل أن تنشر، فبقيت المجلة عنده مدة، ثم لم يوافق، ولم يرد مواد المجلة إلى أصحابها. وضاعت النسخة الوحيدة التي كان يملكها لهذه القصيدة!

ومن ذاكرة الشيخ حفظه الله التي شحذتها مذكراته أورد هذه الأبيات:

يا دعوة الحق قصِّي ما لقيت فقد	يؤذى الهدى ويعان الباطلُ البورُ
قالت: وُلدتُ وحقُّ الشرق مكتئبٌ	وباطل الغرب مسرورٌ ومغرورُ
لا عدلَ في الأرض، بل ظلم وتفرقة	والعدل أعظم ما تحوي الدساتير
حق الإباحي محفوظ ومحترم	وحق ذي الدين مهضوم ومهدور

وفيها:

ظنوا وراء اللحى بُلْهًا ودروشة	مهلاً، فخلف اللحى أسْدٌ مغاويرُ
للغرب هم أجَلٌ، للشرق هم أمَلٌ	للدين نصر، وللأوطان تحرير

وعن دعوة الإخوان قال:

كم أنشأت شعبًا كالأنجم انتشرت	في مصر، دورُ هدًى، يا نعمت الدورُ
أكرم بها شعبًا، بل يا لها شُعلاً	تكوي وتهدي، كذاك النارُ والنورُ
تكوي أناسيّ أعيا الطبَّ داؤهمو	والكيّ آخرُ ما تأتي العقاقير
وترسل النور يهدي من له بصر	والعُمْي تنكر، والخفاش مذعور

ومنها:

كم من سفيه تعدَّى فابتسمت له	أصون ذيلي، فإن الكلب مسعورُ
وكم كبيرٍ تحداني يناطحني	فعاد من صخرتي والرأسُ مكسور

ويتجلى في هذه القصيدة اعتزاز الشيخ بدينه وانتمائه الحركي، وقد أكثر في الأبيات من المقابلات بين حق الشرق وباطل الغرب، ومكتئب ومسرور، والعدل والظلم، والإباحي وذي الدين، والمحترم والمهدور... إلخ، وفيها من حسن التقسيم ما يطرب، ويدل على تمكن واقتدار/ فاقرأ واطرب:

للغرب هم أجَلٌ، للشرق هم أمَلٌ	للدين نصر، وللأوطان تحرير
كم أنشأت شعبًا كالأنجم انتشرت	في مصر دورَ هدًى، يا نعمت الدورُ
أكرِم بها شعبًا، بل يا لها شُعلاً	تكوي وتهدي، كذاك النارُ والنورُ

ولم يُخف تأثره بالتراث في قوله:

وكم كبيرٍ تحداني يناطحني فعاد من صخرتي والرأسُ مكسور

حين استعان بالصورة الشهيرة:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وقول الآخر:

يا ناطح الجبل العالي ليثلمه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ويضمِّن المثل الشهير: آخر الدواء الكي، في قوله:

والطب آخرُ ما تأتي العقاقيرُ

وقول البوصيري: قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ.. بقوله:

وترسل النور يهدي من له بصر والعُمْي تنكر، والخفاش مذعورُ

في استقبال مصطفى مؤمن:

يقول الشيخ في مذكراته: كان إخوان الأقاليم يتابعون ما يجري من الأحداث في القاهرة، وبين طلبة الجامعة خاصة. وكان رأس طلبة الجامعة، ولسانهم الناطق باسمهم، والمعبر عن إرادتهم، هو الطالب مصطفى مؤمن،الطالب بكلية الهندسة، وهو خطيب سياسي مؤثر، كان يسحر الطلاب ببيانه إذا خطب فيهم، ويشدهم إليه شدًّا!

وقد زار مصطفى مؤمن عددًا من عواصم الأقاليم، للإسهام في تجنيد الطلبة للقضية الوطنية، وكان من العواصم التي زارها مدينة طنطا.

وقد احتفت به طنطا، واحتشد له جمع كبير من الشباب وغير الشباب، وأقيم له سرادق كبير، تكلم فيه أكثر من واحد، منهم الطالب محمود دبُّور بالمدرسة الثانوية. كما ألقيت في هذا الحفل قصيدة وطنية، حييت فيها زعيم طلبة مصر مصطفى مؤمن، وقد ضاعت هذه القصيدة فيما ضاع من شعري القديم، ولا أذكر منها إلا أبياتًا تتعلق بمصطفى مؤمن، أقول فيها:

حييت فيه لحية سُنِّيَّة	أضفت عليه مهابة الحكماءِ
سوداء من شرخ الشباب كأنها	حظ اليهود الغُبْرِ يوم لقاءِ
الشعر مزدحم بها، فكأنها	حكم، وذاك تزاحم الزعماء

ثم كان مسك ختام الحفل كلمة الشاب الثائر المتوقد مصطفى مؤمن، الذي شرح قضية مصر بأسلوبه الخاص، الذي عبأ المشاعر حولها، وختم كلمته ببيتين من الشعر:

يا للرجال، أما من غضبة عمم تشفي الصدور؟ وطغيان بطغيان

فحطموا القيد عن أيديكمُ وثبوا فالموت والعيش تحت القيد سيان!

ولم يقصر مصطفى مؤمن جهده على داخل مصر، بل سافر بعد ذلك إلى أمريكا لحضور جلسة مجلس الأمن، مجتهدا أن يسمع المجلس صوت الشعب المصري. وإن كان هناك وفد رسمي مصري برئاسة رئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي باشا.

ولم يغير القرضاوي رأيه في اللحية حتى اليوم، وإن رأى ألا تكون مزدحمة بالشعر كلحية مصطفى مؤمن، كما لم يغير رأيه في اليهود.

غنَّى فأشجى

يقول الشيخ: ظللنا فترة مديدة من الزمن، والقضية الوطنية شغلنا الشاغل، وهمنا الأول، نبذل لها الجهود، ونحشد لها الحشود، ونجند لها قوى الأمة.

وأذكر أن مما ساهمت به في تلك الفترة – بجوار الخطب الثورية، وقيادة مظاهرات الطلاب – عددًا من القصائد ألقيتها في دار الإخوان، أو في المعهد على الطلبة.

وقد ضاعت هذه القصائد فيما ضاع من شعري، ولكني أذكر أبياتا من قصيدة ميمية كان مطلعها:

غنَّى فأشجى السامعين وهاموا	ليت المغنِّي نائحٌ لطّامُ

وفيها صفعات لفظية تخاطب الإنجليز بلغةٍ لا تهادن ولا تجامل:

يأيها الأضياف! لا أهلاً ولا	سهلاً، ولا ترحيب لا إكرامُ
الضيف إن تمررْ عليه صبائحٌ	يثقلْ، وقد مرت لكم أعوام
غصت مساكننا بجندكمو، كما	غصت قطارات، وغص ترام
وغذت بطونَكمُ غلالُ بلادنا	وبنو البلاد من الطوى قد صاموا
وغدت مصانعنا تحوك للبسكم	والعري فينا قاعد قوّامُ
إن القِرى إن لم يكن بسماحة	فالسمن سم، والحَمام حِمَام

وفي الأبيات تتجلى وطنية الشاعر القرضاوي، ورفضه المطلق للاحتلال، ويعكس مدى الانتهاك والاستنزاف الذي يمارسه الإنجليز المحتلون لخيرات مصر، وما أحلى الصور المتقابلة للبطون الملأى والبطون الطاوية، واللباس والعري، والجناس في السمن والسم، والحمام والحِمام، وما أحلى استخدامه لجمع القلة (الأضياف) للإنجليز، كأنه يحقرهم.

وداع الشهداء في فلسطين

ويقول الشيخ حفظه الله: ومن القصائد الضافية قصيدة وداع الشهداء في فلسطين، وهي من بحر الخفيف، ولا أذكر إلا مطلعها:

زملوهم بما بهم من ثياب لن يعيب الحسام بالي القراب!

وهو مطلع قوي ابتدأ بكلمة شريفة وأصيلة في الذاكرة الإسلامية (زملوهم) كما أنه استدعاء لفقه الشهادة في دفن الشهيد بثيابه.

نساء اليوم

ومن هذه القصائد قصيدة اجتماعية ساخرة، عنوانها نساء اليوم، ألقاها الشيخ حفظه الله في دار الإخوان، تعليقًا على ما نشر في الصحف من أن بعض الجمعيات النسائية اجتمع أعضاؤها، وكان لهن مطالب منها: ضرورة حذف نون النسوة من لغة الخطاب! فكان مما جاء في القصيدة:

ما الذي طالب النساء به اليو	م: أطالبن إنجلترا بالجلاء؟
طلبَ الغيدُ حذف نون إناثٍ	يا لها من مطالبٍ شماء؟
وغدًا يطالبن بالذين* وهذا	معرضاتٍ عن هذه واللائي
وغدا يلتمسن بكرًا وعمْرًا	بدلاً من سعادَ أو أسماءِ
لا تقولوا: هذا بعيدٌ وناءٍ	ليس شيءٌ على أولاءِ بِناءِ!

ويعرض الشيخ لسفاهة المطالب النسائية آنذاك؛ فإنهن لم يطالبن بشيء من ملحات حاجات الأمة المحتلة – كخروج الإنجليز – بل طالبن بالتسوية في لغة الخطاب بين المذكر والمؤنث – مع إكرام اللغة للمرأة ووصفها بأحلى الصفات: فهي الكريمة، وهي العقيلة، وهي الخريدة، وهي الأهل، وهي الزوج، وهي الهبة، وهي...! ومع إكرام الدين لها، فهي نصف الدين، وخير ما يوهب المرء، وشقيقة الرجل، نعم ما يكنز المرء – بل طالبن بإزالة الفوارق اللغوية (مع أن هذا لم يحصل في أية لغة فيما أعلم).. ويسخر مولانا من (المطالب الشماء التي جاء بها أولاء، ويتنبأ أنهن سيخاصمن الرجال على أن ينادَين بالذين بدل اللائي، وبهذا بدل هذه، كما سينازعنهم على الأسماء، ولا يَستغرب أن ينادين بأبعد من هذا – وقد فعلن – فعندي صور لنساء يستخدمن الشارب كإكسسوار، ويحلقن (على الزيرو) ويربين العضلات، ويتزوجن النساء (وما حدش أحسن من حد)!

○ كانت: يطبن الذين، فلعلها من الطابع.

مناجاة القبر

ومن أهم القصائد الضائعة التي أسف الشيخ عليها: قصيدة تأملية أنشأها مبكرًا تحمل نزعة فلسفية، (وكنت في السنة الأولى الثانوية، وعنوانها مناجاة القبر، لا أذكر إلا بيتين منها) هما:

حنانيك ماذا في حناياك يا قبر؟	بربك خبِّر قبل أن يفدح الخُبْر!
ألا ليت شعري ما تكنُّ ليوسفٍ:	أروح وريحان أم النار والجمر؟

وإن تعجب فعجب أن يتكلم شاب في مقتبل عمره عن القبر وما وراءه؛ مع توقده وامتلائه بالحيوية والعطاء والتفاعل، فلم تكن تحيط به ضغوط من النوع الذي يبعث على اليأس كتلك التي جابهت شاعر النيل، بل كان القرضاوي آنذاك يملأ الدنيا صخبًا، وشعرًا، وثورة، فكيف خطر بباله هذا؟

أهي نزعة زهدية؟

أهي استشراف للحكمة وتعرض لأسبابها.

أم هو التقليد؟

لست أدري، ولكن القصيدة تبدأ قوية، مع تجلى المعالم البلاغية في تشخيص القبر، واستعطافه، وفي المجانسة بين الحنان والحنايا، والخبر والخُبر، ومقابلة الروح والريحان بالنار والجمر.

وليتنا نجد هذه القصيدة لنقرأ المزيد من عاطفة الشيخ، ورؤيته، وعمقه العلمي، والدعوي، والفني في هذه المرحلة!

وما ذلك على الله بعزيز.

إن أنْسَ!

يقول الشيخ حفظه الله: وقصيدة أخرى – وكانت أكثر من ثلاثين بيتًا – أنشأتها بمناسبة سكناي في بيت كان مشبوهًا، وقد اتخذ وكرًا للفساد، ولم نكتشفه إلا بعد سكنانا فيه، فبقينا فيه شهرًا واحدًا، ثم رحلنا عنه، وفيه قلت:

إن أنس لم أنس دارًا كنت ساكنها	تبًّا لساكنها، تبًّا لكاريها

قد خيم الشر فيها، واستطال بها	زرعُ المفاسد إذ دارت سواقيها
ابن الفضيلة يبدو كاليتيم بها	وابن الرذيلة يعلي رأسه تيها
كم من عجوز بها شمطاءَ شائهةٍ	هي (العُزلاء) حقًّا ليس تشبيها
تميس في الخز كالطاووس تائهة	والخز يخزى.. ويأسى من مخازيها
قوادة في اقتناء الغيد بارعة	صيادة لشباب الشر تغويها
أمضيت شهرًا بها قد خلته سنة	ساءت نهارها* ساءت لياليها

وقد رشح فيها للاستعارات بالحديث عن استطالة زرع المفاسد بدوران السواقي، وترنم بتكرار الخاء والزاي، وشَخْصَنَ الخز فجعله يخزى ويأسى، وقابل بين حالي ابن الفضيلة وابن الرذيلة.

والحق أنني أخاف أن تكون كلمة العزلاء – التي لم أفهم المراد بها – خطأ طباعيًّا أو تصحيفًا لشيء، فهل هي الغرلاء (نوع من القرود البشعة في العامية) أم هي العزلاء: الاست (آسف) ومَصَبُّ الماء من الراوية، والقِرْبةِ في أَسفلها حيث يُسْتَفْرَغ ما فيها من الماء؛ والجمع العَزالِي، والأَعْزَل: سحابٌ لا مطر فيه كما في اللسان! الله تعالى بما كان في صدر الشيخ أعلم، والشيخ حفظه الله تعالى بما كتب أخبر.

وكم كنت أتمنى أن أجد ثلاثة أرباع القصيدة التي فقدت، لنقرأ ذهن الشيخ ورؤيته آنئذٍ، فإن في كتابته روح التوثيق والتأريخ، بجانب روح الشعر والتعبير.

قصيدة في دار الإخوان

يقول الشيخ في مذكراته:

دعاني بعض شباب الإخوان المسلمين إلى إلقاء قصيدة في افتتاح الموسم الثقافي بدارهم قرب ميدان الساعة، بعد أن ذاع صيتي بين طلاب المعهد بقول الشعر.

وفعلاً أعددت قصيدة قافيّة القافية، وألقيتها بالدار، وكان لها وقع طيب في نفوس الإخوان، ولا سيما بين الشباب. ومطلعها :

---

* ساءت نهارها: لا تستقيم، ولعلها: ساء النهار بها، أو ساءت نهاراتُها.

قلبي يحس برحمة تتدفق	ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا
وكأن أحمد والصحابة أقبلوا	فرحًا بنا، قد باركوا وتحلَّقوا

وماذا أقول بعد هذا المطلع المطرب، وليس في يدي من القصيدة شيء؛ إلا لا حول ولا قوة إلا بالله؟

واخطب بالفم الثاني

يقول الشيخ حفظه الله: أقمنا نحن طلاب الأزهر معسكرًا لشباب الأزهر بجوار الجامع الأزهر هناك، وفي جوار قاعة الإمام محمد عبده وكلية الشريعة،..... ولقد أردنا أن تكون هذه مناسبة طيبة لإبراز مكانة الأزهر ودوره

في هذه المرحلة الحساسة من حياة مصر.

ودعونا عددًا من كبار الشيوخ في الأزهر والدعاة من خارج الأزهر، منهم الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، والشيخ محمد عبد الله دراز، والأستاذ عبد الحكيم عابدين من الإخوان، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء بالجزائر وضيف القاهرة، وقدّم الأخ أحمد العسال للحفل، وألقى بعض هؤلاء الضيوف كلمات، ثم قُدّمت لألقي كلمة المعسكر وشباب الأزهر، فارتجلت كلمة قوية، ختمتها بقصيدة نظمتها بهذه المناسبة، وقد ضاعت فيما ضاع، أذكر منها:

دع المداد، وسطر بالدم القاني	وأسكت الفم، واخطب بالفم الثاني
فم المدافع في صدر العداة له	من الفصاحة ما يرزي بسحبان

وكان من هذه القصيدة:

يا أزهر الخير قدها اليوم عاصفة	فإنما أنت من نور ونيران
هذا شبابك للميدان منطلق	فهل نرى في الشيوخ اليوم كاشاني؟

وكان آية الله كاشاني في تلك الفترة في إيران قد لفت أنظار العالم حين لبس الكفن وقاد المظاهرات ضد شاه إيران؛ ولذا جاء في هذه القصيدة أيضًا:

متى أرى ألسُن الدنيا تحدث عن	حمروش مصر ككاشانيّ إيران

وكان شيخ الأزهر في تلك الفترة هو الشيخ إبراهيم حمروش.

المؤتمر الأزهري العام

يقول الشيخ في مذكراته:

كان من أهم المؤتمرات التي أقمناها في هذه المرحلة: المؤتمر الأزهري العام، الذي عقد في ساحة كلية الشريعة وكلية اللغة العربية، في مبانيها الجديدة بالأزهر، وقد حضر هذا المؤتمر طلاب الكليات الثلاث، وطلاب معهد القاهرة الديني، وكان من مطالب أبناء الأزهر، التي طالبنا بها من

قديم، منذ كنا طلابًا في القسم الثانوي، ولم يستجب لها، وقد ذكرت طائفة منها في حديثي عن المرحلة الثانوية من قبل، مثل فتح باب الدراسات العليا، لطلاب الأزهر كغيرهم، وفتح باب الكليات العسكرية – مثل الحربية والشرطة – أمامهم، والعمل ملحقين دينيين في سفارات مصر، وفتح مجالات العمل في المصالح والوزارات المختلفة أمام أبناء الأزهر، وفتح معاهد للطالبات.. إلخ.

وكنت المتحدث الرئيسي في هذا الملتقى، وتوليت شرح المطالب، وضرورة إرسال نسخة من مطالبنا إلى شيخ الأزهر.

وكان مما قلته في هذه المناسبة قصيدة كان لها وقعها وصداها بين طلبة الأزهر، ضاعت إلا أبياتا منها:

صبرنا إلى أن ملَّ من صبرنا الصبرُ	وقلنا: غدًا أو بعده ينجلي الأمرُ
فكان غد عامًا، ولو مد حبله	فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر
وقلنا: عسى أن يدرك الحقَّ أهلُه	فصاحت عسى من لا، ولا طعمها مر
وماذا علينا بعد نار مرجلٍ	من الغيظ والإهمال.. يغلي به الصدر
سددنا بطول الصبر منا صمامه	فزادت عليه النار، فانفجر القِدْر

ومنها:

عجبت لمصر تهضم الليث حقه	وتسرف للسِّنَّوْر، ويحك يا مصر!
سلام على الدنيا، سلام على الورى	إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر!
أيعطى لزيد ما يشاء من المُنَى	ويحرم حتى من ضروراته عمْرو؟
أيُعطَى لنا يا قومنا القشر والنوى	ومن دوننا يعطى له اللب والتمر؟
إذا العدل والإنصاف في الأرض لم يقم	فمن أين يأتي أهلها العز والنصر؟

ووصلنا مطالبنا إلى الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الخضر حسين، وكان متجاوبًا معنا في كل مطالبنا، وكان رجلاً له هيبته ومقامه العلمي والديني الكبير، وصاحب تاريخ مجيد في العلم والجهاد، ولكن الدولة لم تكن تتجاوب مع آماله، وهو صاحب المقولة الشهيرة التي قالها لرجال الحكومة:

إن لم يزد الأزهر في عهدي فلا ينقص منه!

وفي أوائل ثورة يوليو ذهب إليه اللواء محمد نجيب قائد الثورة وزاره في مكتبه في مشيخة الأزهر، وقال: إن من واجب الرؤساء أن يزوروا العلماء.

في استقبال الملك عبد العزيز

يقول الشيخ في مذكراته: كان طلبة الأزهر يكنون مشاعر مودة وتقدير لابن سعود، لما شاع عنه أنه كان يطبق أحكام الشريعة السمحة، ويقيم الحدود، ويحكم بالكتاب والسنة. ولهذا سافرنا إلى عروس البحر الأبيض الإسكندرية، لنستقبل ابن سعود، ونتفسح في هذه المدينة مع ذلك.

وقد كنت أعددت قصيدة كان طلاب المعهد ينشدونها، ويهتفون ببعض أبياتها، أذكر منها:

ملائكة تلك أم أنبياء؟	أم ابن سعود إلى مصر جاء؟
فأهلا وسهلا بأكرم ضيف	ويا مرحبا بالسنا والسناء
نيويورك من مكة ذرةٌ	ولندن من طيبة كالهباء
فمن طيبة شع نور الهدى	ومن لندنٍ شاع سفك الدماء

وقد بتنا هناك في القسم الداخلي مع زملائنا طلبة المعهد الديني الابتدائي في (القَبَّاري)، وقد وسعونا على رغم ضيق المكان..

مسرحية يوسف الصديق عليه السلام

من أهم الضوائع التي فقدها الشيخ مسرحيته التي كتبه وهو في المرحلة الابتدائية عن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام، تأثرًا بمنهج الأمير شوقي في مسرحيتيه الشعريتين كليوباترا ومجنون ليلى وغيرهما، وقد عرضت مسرحية بالاسم نفسه من قبل – والعهدة على الدكتور بهنام عطا الله – أخرجها داؤد الشورجي وهي من تأليف المطران سليمان الصائغ (1886-1961) – في العراق – وهي مسرحية يوسف الصديق، أو مشاهد الفضيلة، ومُثلت مسرحية ثانية بالاسم نفسه ثانية على المسرح بين عامي 1947-1948.

يقول الدكتور القرضاوي عن مسرحيته، وآسف على إعادة بعض ما مر، للتذكير، وسأختصر:

مسرحية (يوسف الصديق).. أول ما نُشر لي:

أول عمل لي دخل المكتبة العربية كان عملاً شعريًّا مسرحيًّا، فقد قرأت مسرحيتي شوقي (مصرع كليوباترا) و(مجنون ليلى) وتأثرت بهما، وأردت أن أنسج على منوالهما مسرحية عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام؛ لما فيها من غرائب الأحداث، مما يصلح لمسرحية شعرية. وقد شرعت في كتابتها وأنا في السنة الرابعة الابتدائية، وأكملتها وأنا في السنة الأولى الثانوية.

وكانت المشكلة في تكاليف الطبع؛ ولم أجد من يعينني في ذلك غير قريب أقرضني مبلغ خمسة جنيهات، أعطيتها للمطبعة، وكتبت عليَّ وَصْلا بالباقي، وكان العدد كله 500 خمسمائة نسخة، أهديت وبعت منه في محيط الطلبة والإخوان حوالي المائة، وبقي نحو 400 أربعمائة نسخة، فهيأ الله رجلاً اشتراها على ما أذكر بعشرة جنيهات، أعطيت منها الخمسة التي اقترضتها من قريبي، وسددت باقي مبلغ المطبعة، وقلت: الحمد لله الذي أخرجني سالمًا، لا لي ولا علي، فإن الدَّيْن هَمٌّ بالليل ومذلة بالنهار .

وقد أثنت بعض المجلات الأدبية في حينها على المسرحية، باعتبارها تمثل

نموذجًا من شعر الشباب، ونقلت فقرات منها .

وقد كتبت على غلاف المسرحية هذه الأبيات :

يا مَن رمتْهُ الليالي اصبرْ لرميتِها إن الليالي والأيامَ أدوارُ

فالجوُّ يصحو، وإن عمَّت غمائمُهُ والليلُ يعقبه صبحٌ وإسفارُ

وانظر ليوسف أضحتْ مصرُ في يده وقبل في سجنها انتابتْهُ أظفارُ

وعلى غرار ما جرى عليه كثير من الشعراء في ذلك الزمن، وضعت صورتي في مقدمة المسرحية، وكتبت تحتها :

أمُصوِّرَ الأشكالِ والأبدانِ هلا تصورُ حِكمتي وبياني؟

أتصَورنْ وجهَ الرجال وتتركنْ تصويرَ ما بالرأسِ من عرفانِ؟

المرءُ ليسَ بوجهِهِ أو جسمِهِ لكن بفكرٍ ثاقبٍ ولسانِ

لو كان قَدْرُ المرءِ جسمًا لا حِجًا لسَمَا عليه الثورُ بالجسمانِ

كان هذا هو عملي المسرحي الأول، ولقد عملت عملاً مسرحيًّا آخر في عالم النشر، وهو مسرحية تاريخية تجسد طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي وجبروته وموقف العلماء منه ممثلا في واحد من أبرزهم هو العالم الفقيه الشجاع سعيد بن جبير. وقد سميت هذه المسرحية (عالم وطاغية).

وقد مُثلت في أكثر من بلد ولقيت قبولاً، وأما مسرحية (يوسف الصديق) فلم تمثل؛ لأن الفتوى المعتمدة أن رسل الله وأنبياءه لا يمثلون .

فماذا كتب القرضاوي في يوسف الصديق التي حصلت على هذا الجزء منها من الشيخ عصام تليمة، الذي وعدني بالجزء الباقي، قريبًا إن شاء الله تعالى، وأعتذر هنا قارئي، فإذا وجدتَ شيئًا تحته خط، فإنني أعلمك أنه به خللاً أو سقطًا بسبب النقل:

يوسف الصديق:

رواية شعرية تمثل ما جرى لسيدنا يوسف عليه السلام

مع أبيه وإخوته ثم مع امرأة العزيز ثم مع الملك

من البداية إلى النهاية

تأليف: يوسف عبد الله القرضاوي

يا مَن رمَتْهُ الليالي اصبرْ لرميتِها	إن الليالي والأيامَ أدوارُ
فالجوُّ يصحو، وإن عمَّت غمائمُهُ	والليلُ يعقبه صبحٌ وإسفارُ
وانظر ليوسف أضحتْ مصرُ في يده	وقبل في سجنها انتابتْهُ أظفارُ

الإهداء:

إلى من رماه الهم في جب حيرة	وأدخل سجن البؤس ليس له وزر
لمن غالب الأيام حتى غلبنه	وظن محالا أن يكون له نصر
إلى من جفاه حبه وهو هائم	فظل كئيبًا لا يبش له ثغر
وبات مهيض القلب في عينه قذى	وفي صدره جمر وفي فمه صبر
إلى ذلك الصب الذي ظل عمره	وساعته شهر وليلته دهر
إلى هؤلاء البائسين ليعلموا	بأن مجيء المد إذ ينزل الجزر
إلى هؤلاء الأشقياء ليوقنوا	بأن ظلام البؤس يخلفه فجر
كتابًا من أخ ضيم مثلهم	عسى أن تعزيهم بشائره الغر
كتابًا من غريم زمانه	فسلسله ملح.. وسكرُه مر
فإن وجدوا فيه عزاء وسلوة	فلي منهم شكر ومن بارئي أجر

المؤلف

أشخاص الرواية

- يوسف ولد يعقوب.
- بنيامين شقيق يوسف.
- يهوذا أخو يوسف من الأب.
- شمعون أخو يوسف من الأب.
- قطفير عزيز مصر وسيد يوسف.
- زليخا زوجة العزيز.
- راحيل أم يوسف.

أمُصوِّرَ الأشكالِ والأبدانِ	هلا تصورُ حِكمتي وبياني؟
أتصَورنْ وجهَ الرجال وتتركنْ	تصويرَ ما بالرأسِ من عرفانِ؟
المرءُ ليسَ بوجهِهِ أو جسمِهِ	لكن بفكرٍ ثاقبٍ ولسانِ
لو كان قَدْرُ المرءِ جسمًا لا حِجًا	لسَمَا عليه الثورُ بالجسمانِ

المؤلف

الفصل الأول

انكشف برقع الليل عن وجه الصباح، فذهب يوسف إلى أبيه يقص عليه حلمًا رآه:

يوسف:

رأيت من النجم إحدى عشر	سجودًا مع الشمس لي والقمر

يعقوب:

بنيّ اكتم السر وادفنه في	فؤادك كالميْتِ بين الحفر
وأغلق عليه بقُفل حديد	ولا تفتح القفل تلق الضرر
وإياك إياك من إخوة	إذا علموا طار منهم شرر
ينالون منك منالَ الحسو	د لما يصطفيك عليه القدر
وقابيل أروى الثرى بدما	ء أخيه ولم يخش نار سقر
سيختارك الله من بينهم	ويسقيك من فيضه المنهمر
وهم كالنجوم قليلو الضياء	وإنك من بينهم كالقمر

بين الحقول الناضرة يجتمع إخوة يوسف متحدثين في حب أبيهم له من دونهم.

الإخوة:

ألا ترون أباكم	قد هام في الطفل عشقا
يقبل الفم منه	ويرشف الريق شوقا
في حب يوسف أمسى	متيمًا مسترقًا
ونحن نقبل غبرا	مما من الحر نلقى
فلا يبش إلينا	ولا نرى الوجه طلقا

فكيف يعشق هذا	ونحن خير وأبقى
ونحن نرعى شياها	ونحن نجلب رزقًا
ونحن نزرع أرضا	.....
بـالله إن أبانا	لفعله فعل حمقى
فما ترون لهذا	فالخطب يزداد عمقا

شمعون:

الرأي قتل ابن راحيـ	ـلَ قتل من لم يرِقّا
أو تطرحوه بأرض	ولا تخلوه يبقى

يهوذا:

لا تقتلوه..

شمعون:

لماذا أنت ترحمه؟

يهوذا:

القتل فعل وحوش ذات أظفار

شمعون:

فما تراه لنا كي نستريح به؟

يهوذا:

الرأي عندي رأي غير ضار	
ألقوه في الجب حيًّا حيث يلقطه	مسافر سائر أو راحل سار

كبيرهم:

هذا هو الرأي رأي نستريح به	والرأي بالفكر لا بالسيف والنار

صغيرهم:

لكن يعقوب لا يعطي ابنه لكم	فكيف تلقونه في الجب والغار

يهوذا:

بالمكر نأخذه منه بلا تعب	والمكر يوقع ليث الغابة الضاري

يرجع الإخوة لأبيهم ثم يقولون له:

أبي إن يوسف وردة حسن	إذا حبست يعتريها الذبول
ولا بد للورد رؤيا الفضاء	وشم الهواء النقي العليل
فما بالك تحبسه كالسجين	ألا إن ذلك سجن يطول
فأرسله معنا غدا حيث نلهو	ونرتع بين جمال الحقول
لينظر ما في الورى من جمال	فإن الجميل يحب الجميل
ولا تخش إنا له حافظون	ورب السماء الحفيظ الوكيل

يعقوب:

أخاف عليه الذئب في حين غفلة	فيأكله والذئب بالطفل غادر

الإخوة:

أيأكله ذئب ونحن جماعة	إذن نحن جمع لا محالة خاسر

هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه:

جزاؤك يا يعقوب بيْن وحرقة	ودمع هموم منه تدمى المحاجر
فكيف تخاف الذئب والذئب عاجز	ولا ترجون الله.. والله قادر

يأخذون يوسف ليلقوه في الجب فيسمعون صوتًا، ولا يرون صاحبه (الشيطان).

الشيطان:

اقتلوه تستريحوا	وتكونوا آمنين
فغدا إن يبق يخرج	مع قوم سائرين
يأت يعقوب سليمًا	كله نور مبين
حينذا يغشاكم الخسـ	ـران والخزي المهين
فأطيعوني فإني	لكم خل خدين
واسمعوا نصحي فعندي	لكم النصح الأمين
واقتلوه تستريحوا	وتكونوا آمنين

يهوذا:

يا عدو الخالق اخسأ	أنت مطرود لعين
تدعي أنك خدن	وصديق لا يخون
ولعمر الله ما أن	ت سوى الخصم المبين

شمعون:

يا بني يعقوب هيا	فاطرحوه واذبحوه
ليس يشفينا سوى القت	ـل فهيا مزقوه
ليس رأي غير هذا	فافعلوا ما شئتموه

يهوذا:

ويلك يا شمعون من غدار	ما أنت فينا غير وحش ضار
تريد قتله بلا افتكار	والقتل جرم السفل والأشرار
نقتله.. وعند الادكار	نظل في هم وفي أكدار
إن لم تخف عذاب هذي الدار	فلتخش دار الخلد والقرار
ولتخش من حر اللظى والنار	

ويهمون بإلقائه، فيضربونه ضربًا موجعًا!

يوسف:

رحماكم رحماكم يا إخوتي	إني صغير فارفقوا بطفولتي
إنا سهام من كنانة واحد	وتفرغت أغصاننا من دوحة
هلا ترق قلوبكم لتضرعي	هلا تلين قناتكم لمذلتي
إن كنت قد أذنبت يومًا فاغفروا	ذنبي إليكم وادفعوه بالتي
أو لم أكن فترفعوا عن مظلمي	خوف الجحيم ورغبة في الجنة
والله إن نلتم أخاكم بالأذى	فستندمون عليه كل ندامة
فبحق بارئكم وحق خليله	وبحق إسحق ارحموا لإخوتي

يجردونه من ثيابه ويلقونه في الجب.. يوسف حين ألقي:

يا من برحمته أنجى الخليل وقد	رمى به المعتدي نمروذ في النار
فأصبحت جنة خضراء زاهية	بكلمة منه لا ماء وأمطار
ومن فدى بعدُ إسحاقًا وقد وُضعت	عليه حد المدى من غير إضرار
تمر بالنحر منه غير مدمية	كما يمر نسيم فوق أزهار
فنجني يا إله العرش من كربي	كما رحمت جدودي إنك الباري

(حينما ألقي الخليل في النار كان عريانًا، فأتى جبريل بقميص من الجنة، وألبسه إياه وتوارثه بعده ابنه إسحق، ثم يعقوب، ثم جعله يعقوب تميمة ليوسف، فحين ألقي في الجب نزل جبريل عليه، وحل التميمة، وألبس يوسف القميص)

جبريل ليوسف:

لا تخش سوءًا فإن الله واقيكا	ومن حمى قبل إسحاقًا سيحميكا
هذا قميص من الفردوس متخذ	ما دمت لا بسه فالله ينجيكا
من شم ريحه لم يأته ضرر	ولم يخف سيدًا أو يخش مملوكا
بلبسه قد نجا جداك وانتصرا	فكِل أمورك للرحمن يكفيكا

يوسف:

يا قلب لا تجزع ولا تفزع وكن	قلبا على سهم البلاء صبورا
فالله لي هادٍ وربك ناصري	(وكفى بربك هاديًا ونصيرا)

الإخوة:

هاتوا لنا سخلة لنذبحها	حتى نروِّي قميصه دمها
نقول هذي دماء يوسف قد	سالت فما أنقاها وأكرمها
أتاه ذئب في حين غفلتنا	خاوية بطنه فأطعمها

يتأمل يعقوب في القميص:

يا لهذا الذئب ما أحلمه	أكل المرء وما مزق ثوبه
ها قميص ابني أتاني كي أرى	وجهه فيه.. فما أحلم ذئبه
يأكل الذئب الفتى عظمًا ولحما	أفلا غادر هذا الذئب صلبه
أصحيح أكل الحسن الذي	لو رآه الوحش لانتابته هيبة
وسباه من محياه سنا	مثلما يسبى من العاشق قلبه
ضربتني كف دهري ضربة	آه من ذا الدهر ما أغلظ ضربه
ورماني حربة مسمومة	ويل من يرمى من الدهر بحربة
وسقاني شربة من حنظل	كانت الأمس من السلسل عذبه
فاصبري يا نفس صبرا طيبا	من يلذ بالصبر يمح الله كربة
إنما ذو الصبر من حزب الإله	معاذ الله أن يخذل حزبه
وهو مرتاح بدنياه وفي	يوم يلقى ربه يغفر ذنبه
وإذا لم يصطبر لم يغنه	صرخة أو نوحه يندب خطبه
ما قضى الله سيمضي رغمه	لم ينل إلا الذي أتعب قلبه
صحب الشيطان مفتونا وما	أبعد الشيطان أن ينصر حزبه
ويحه أتعب في أولاه قلبه	ويله أغضب في أخراه ربه

إخوة يوسف يذهبون إلى الحقل فيجدون ذئبا فيقيدونه ويجيئون به إلى يعقوب:

الإخوة:

هذا هو الذئب الذي	فتكت بيوسف نابه
وأذقناه من بعده	كأسًا يمر شرابه

يعقوب يخاطب الذئب باكيًا:

يا ذئب هلا انثنى ناباك عن ولدي	وكيف تخطف مني فلذة الكبد
وكيف تفجعني فيه وتتركني	على بساط من الأحزان متقد
هلا رحمت أباه وهو مكتئب	معذب في وطيس الحزن والكمد

قد حرم النوم جفني بعده أسفا	لا كحل للعين إلا إثمد السهد
لهفي على ثغره الباهي ومبسمه	أجمل بلؤلئه الزاهي وبالبرد
يا حر قلبي من نار نوى وجوى	ما فرقة الولد إلا حرقة الكبد
من ذاق مثلي عذابًا في ابنه حزنِا	سبحان ربيَ.. لم يولد ولم يلد
مصائب الناس لا تحصى عدائدها	لكن شر مصاب فرقة الولد
يا ذئب خليتني في لوعة وأسى	فصرت مفتأدًا.. والشوق مفتئدي
إني أراني في يأس وفي أمل	أأنت مزقته أم لم يزل عضدي
يا هل ترى أين أنت اليوم يا ولدي	ويا ترى أنت تحذو أي معتقد
أأنت في ملة الشيطان مطرح	أم لا تزال بدين الواحد الصمد
إن كنت هذا فها دمعي أطلقه	أو كنت ذاك سأبكي آخر الأبد
لا غرو إن كان عندي بعده عدد	فليس ينفع عنه كثرة العدد
إن النجوم كثير في السماء ولا تغني	عن البدر للداني ولا البعد
الأمر لله والأكوان في يده	وليس إلا على الرحمن معتمدي

ينطق الله الذئب:

ألا يا نبي الله أقسم بالذي	حباك الهدى فالرشد منك يرام
لقد كذبوا ظلمًا علي وإنما	علينا لحوم الأنبياء حرام
ولو أننا كدنا نموت من الطوى	فدون لحوم الأنبياء حمام
عجيب عجيب كيف نأكل لحم من	بدونهم الدنيا دجى وظلام
وهم زينة الدنيا وطب قلوبها	إذا ما اعترتها علة وسقام
أنروي الثرى بغيًا بطهر دمائهم	إذن فعلى هذا الوجود سلام
فلا وإلهي ما أكلت للحمه	ولا ذُق منه في يدي عظام
وإني غريب ليس لي موطن هنا	وما لي في تلك البلاد مقام
وإني من مصر وفارقني أخي	وما عاد حتى اليوم وهو غلام
أخي عضدي كفى ذراعي منكبي	ألا يعتريني من نواه سقام

جناحي وظهري والفؤاد مهجتي	ولولاه ما هابت قواي نعام
إذا ضامني دهري أراه معونتي	ومن ذا الذي في الدهر ليس يضام
وإن رامت الأيام حربي بجيشها	فلي منه رمح طاعن وحسام
ومن ذا رأى كفًّا يصفق وحده	وهل حائط في الانفراد يقام؟
فأمسيت في نار من الوجد والأسى	وقلبي فيه لوعة وضرام
وأقبلت في تلك البلاد مفتشًا	وبين ضلوعي للحبيب هيام
فصفدني ظلمًا بنوك وقيدوا	وما لي ذنب.. أو علي ملام
فكم من بريء في يديه سلاسل	وكم من مسيء في يديه وسام

يعقوب:

ألا عجبًا للآدمي وحقده	وكيف يعادي أهله وأخاه؟
وحوش الفلا يحنو على البعض بعضها	فهل من حنو في القلوب نراه؟
ألا يا بني يعقوب قوموا تأملوا	إلى الذئب واستهدوا بنور سناه
أتى من أراضي مصر حيران والهًا	لبعد أخيه حين طال نواه
أتى باكيًا يشكو فراق حبيبه	ويرغب لو أن الحمام رماه
أتى باحثًا في كل شرق ومغرب	ليطفئ وجدًا كامنًا بحشاه
فما بالكم ضيعتمو لأخيكمو	ولم ترحموا ما قد ينال أباه

تهب ريح على يعقوب فيخاطبها:

يا ريح بلغ سلامي إن مررت به	وصف له بعض ما بالقلب من ألم
وقل له إن يعقوب به ظفرت	يد الخطوب يد الآلام والسقم
وأنه قد أسال الدمع منهملاً	وصار يمزجه من عينه بدم
أخبره أن يد الأيام قاسية	كادت تقطعني لحمًا على وضم
وإن دائي داء غير منحسم	وإن جرحي جرح غير ملتئم
وإن حبل همومي غير منصرم	وإن جيش زماني غير منهزم

يا ريح إن جزته فالثمه في كلف	أطيب بمبتسم منه وملتثم
يا ريح عانقه في شوق وفي ظمأ	عناق صب بنار البعد مضطرم
فالدمع أغرقني والبعد أحرقني	والوجد أرقني والقلب في ضرم

صورة في بيت القرضاوي القديم بالدفنة، عمرها نحو 17 سنة فيها من اليمين: الشيخ القرضاوي، ثم الشيخ عبد المعز، ثم الممثل حسن يوسف، ثم الدكتور الديب، ثم البسيوني، ثم الإذاعي صلاح خليفة.. رحمهم الله أجمعين.

الفصل الثاني

بقي يوسف في الجب ثلاثة أيام يتردد عليه يهوذا بالطعام حتى أقبلت سيارة يريدون الشرب، وكان ماء الجب ملحًا فعذب:

يا صاح هذا غلام	ذو غرة كالصباح
ومبسم جل حسنًا	عن أن يضاهي الأقاحي
فلنذهبن سريعًا	به كذات الجناح
فإن فيه غنانا	وفيه خير رباح

إخوة يوسف يقبلون:

يا قوم رويدكم انتظروا	هذا عبد منا هربا
فإذا شئتم فاشروه ولا	تغفوا عنه أنى ذهبا
فإذا نمتم عنه سيفر	ولا تجدون له طلبًا

السيارة:

سنأخذه منكم بعشرين درهما	

الإخوة:

	رضينا وإن كنا نرى العبد أعظما

يحذرونهم من فرار يوسف:

ذاك عبد آبق فاستوثقوه	واحذروا إن تغفلوا أن تفقدوه
فلكم فر مرارًا هاربا	فاحذروه واحذروه واحذروه

باع السيارة يوسف لقطفير عزيز مصر ولم يكن له ولد فتبناه، وذهب به إلى امرأته زليخا يبشرها: قطفير:

بشرى زليخا فإن الله ظفرنا	هذا غلام كقرص الشمس وهاج
كأنما هو في أنواره ملك	كأن راحته في حسنها عاج
فأكرميه وكوني مثل والدة	إني لمثل محياه لمحتاج

ثم يلتفت ليوسف:

وأنت يوسف كن بالجد مؤتزرًا	فالجد للمكرمات الغر منهاج
وكن أمينا على ما تقتنيه يدي	إن الأمانة للعلياء معراج

زليخا تنظر ليوسف فيسكرها حسنه:

زليخا:

يا حسنه من غلام زاهر زاهي	ويا جمال محيا باهر باهي
هذا هو الحسن مجموعًا بوجه فتى	هذا هو السحر هذا فتنة الله
الليث في غابه في عز قوته	لو شامه لعَنا كالواهن الواهي
لكل شيء شبيه في خليقته	وذاك أبصره معدوم أشباه
آه لقد هام قلبي عند رؤيته	وهاهو الحب يسري بينه آه
إني أحس بقلبي راح في يده	فصار يحكم فيه آمرًا ناهي

ضرب الحب أطنابه بقلب زليخا فلم تملك إلا أن تبوح به:

زليخا ليوسف:

رفقًا بصب دمعه يترقرق	وارحم لقلب في هواك يحرق
وارو الأوام بقبلة خمرية	تشفي عليلاً.. ناره تتألق

يوسف:

يا للعجائب كيف أقطف وردة	ليست بغصن شجيرتي تتعلق
مولاي آمنني على بستانه	أأعيث فيه كالذئاب واسرق
وأنا الحفيظ على خزائن ماله	أأخون فيما لا يحل وأُنفق

تترك زليخا يوسف يائسة باكية:

قد رماني الدهر سهما فأصابا	ما لسهم الدهر لم يخطئ طلابا
كنت من قبل الهوى سيدة	حكمت كفي رؤوسًا ورقابا
إن أقل لي تصغ ألفا أذن	كلها ترشف من قولي شرابا
وإذا رامت سؤالاً شفتي	كانت الدنيا وما فيها الجوابا
فإذا بي حين وافاني الهوى	أمة فانقلبت حالي انقلابا

لست غضبى إنني راضية	غير أن الحب يسقينيَ صابا

تسمع زليخا وصيفتها مارية فتدخل عليها متكتمة:

مارية:

مولات، قلبي والعيون فداك	ماذا اعتراك وما الذي أضناك؟
أين الشباب وأين جدول مائه	متدفقًا يزهو به خداك؟
أين القدود السمهرية أين ما	حملته من ثقل الصبا ردفاك؟
أين النهود وأين رماناتها	أين المضاء بجفنك الفتاك؟
لو أن سيدتي تنبئني بما	تبغي لطرت إليه شبه كراكي
أو كان في غور البحار نزلتها	وسألت عنه جماعة الأسماك
إني لتدمى مقلتاي لحالها	يا ليت فيّ جميع ما أضناك

زليخا:

ماذا سيضنيني وعندي بغيتي	من لذة تسمو عن الإدراك؟
لكنه داء دفين هدني	والداء حامل صارم سفاك

مارية في خبث:

داء بجسمك أم بقلبك يا ترى؟

زليخا في تجاهل:

داء بجسمي زائد الإنهاك!

مارية:

يدري الجواب إذا تلى عنوانه	إن كان ذا فلم العيون بواكي؟

زليخا:

وهبي زليخا قد شكت لك ما بها	ألديك طب للعليل الشاكي؟

مارية:

إن الطبيب مخفف بكلامه	لهب الضنى إن غاب عنه دواك

زليخا:

نصب الهوى لي في الجمال شباكه	حتى وقعت بهذه الأشراك
أحببت يوسف ظاهرًا مع باطن	لما رأيت به سنا الأملاك
يبدي الدلال إذا طلبت وصاله	ويردني حسرى وطرفي باكي

ماربة:

مهلا فإن الحب ورد ناضر	والورد لا يخلو عن الأشواك
فلأنصبن له شباك مكايدي	حتى تنالي منه كل مناك

زليخا بعد أن ظهر سرها:

أخفى الهوى ونحولي غير ستّارِ	والدمع يهتك استاري وأسراري
فمدمعي وزفيري للهوى فضحا	إن الدخان لعنوان على النار

تذهب مارية ليوسف تستعطفه على سيدتها:

مارية ليوسف:

يا من سمت بهجةَ الأقمار بهجتُه	ارحم فؤادًا كليمًا أنت مهجته
ارحم زليخا فإن الوجد أحرقها	وكاد يسلب منها الروح لوعته

يوسف:

لا فارق بين ذي عقل وذي وتد	ما دام ذو العقل تستهويه شهوته
لا تشربي الخمر ما دامت محرمة	عذوبة الشيء لا تبقيه حرمته

تيأس مارية من يوسف، وتعود إلى زليخا فيسري الأمل في زليخا حين تراها:

زليخا:

ألانه الله قلبًا	للصب يحنو عليه
فالجسم مني سقيم	وذاك من مقلتيه
وبين جنبي نار	حمراء من وجنتيه
والدمع مني قان	أعيرَ من شفتيه
والكون أسود داج	واللون من حاجبيه
والأرض ضاقت أمامي	كمنفذي أذنيه

وذا فؤادي لديغ	من عقربي صدغيه
ألانه الله قلبًا	للصب يحنو عليه

تقبل مارية فتسألها زليخا:

ماذا وجدت؟

وجدت طودًا راسيًا	ما إن يرق لمدمعي وكلاميا
ليث ولم تفتنه خدعة صائد	فيزج في قاع الحفائر هاويا
فمكايدي ومصايدي وزخارفي	ضاعت هباء عنده وخداعيا

زليخا في ألم:

رمتني دعجاوان ناعستان	فأيقظتا عين الهوى بجناني
عيون مراض وهي بعد صحيحة	ومن ذا رأى الضدين يجتمعان
مراض فواهًا كيف يغلبن قوتي	وأرجع في ذل بغير توان
فيالك من رامٍ حِداد سهامه	حرام عليها الطيش كالحدثان
فأظلم به من سافك الدم معتدٍ	رماني رمي المرء للكروان
رماني فأصمى القلب وانحل عقده	وخر صريعًا زائد الخفقان
ولم يعبأنْ أو يحتفل بالذي رمى	فيا ويل عينيه فكم تئدان
وكم تقتلان الآدميين جهرة	ولا قوَد يجري.. ولا تَدِيان
ومرهم جرحي عنده ودواؤه	فلم ليس يعطينيها بأمان
ألا إن هذا الحكم يا قوم جائر	وإلا دعوا الخصمين يقتتلان
دعوا ذا القوى يغتال ذا الضعف باغيا	وإلا املئوا بالعدل كل مكان

مارية في نفسها:

ويل المحب من المحبوب يرميه	بسهمه ثم يجفو ليس يرثيه
يبكي المحب بدمع هاطل هتن	والحب يضحك من دامي مآقيه
مثل السماء تسيل الدمع منسجمًا	والأرض تضحك من تهطال جاريه

أرخى الليل سدوله، وأوى الناس إلى مضاجعهم، وبقيت زليخا مسهدة الطرف، سائلة الدمع، تناجي نفسها بوجدها وحرقتها:

نامت الشهب شهابًا فشهابا وغراب الليل قد شاخ وشابا

ومنام العاشق الصب جفاه

ما الذي أقلق في الليل زليخا فغدت تصرخ كالملدوغ صرخا

تشبه الورقاء إذ تفقد فرخا وجهها القار سوادًا واكتئابا

لونها كالورس مصفرًّا تراه

هو ذاك الحب خلى القلب سلخا ورماه في إناء الوجد طبخا

وانثنى ينفخ كير الشوق نفخا لا يبالي أنه قلب زليخا

فمضت تلتهب النار التهابًا فاستحال القلب لحمًا مستطابا

كل يوم فيه للسقم عشاه

أي طير لم ينم في وكره؟ أي وحش لمن ينم في قفره؟

أي ضب لم ينم في جحره؟ نمن طرًّا، والذي في قصره

تخذ الحب على عينيه بابا ليس يخطوه الكرى إلا انتهابا

من هوى بدر سباه بحلاه

ليت عيني تذوقان الكرى فأراني قد حضنت القمرا

ورشفت الريق منه سكرا ولثمت الفم منه مسكرا

لثمة ترجع للشيخ الشبابا فتراه قد صبا لا قد تصابى

فمتى تظفر عيني فتراه

قد زها مبسمه بالفلج وتعالى طرفه بالدعج

وتباهى خده بالضرج وتسامت غرة بالبلج

وزها العنق بطول لن يعابا جل من صوره حسنًا مذابا

ذلك الحسن له تعنو الجباه

ويبقى الجزء المفقود من المسرحية عسى الله تعالى أن يعثرنا عليه قريبًا..

خاتمة بسيونية

ولعل من المناسب هنا أن أتوج هذه الدراسة بإحدى قصائدي في الشيخ حفظه الله تعالى، وقد كتبتها في فبراير 2005 في احتفالية أحبابه بمناصرته بعد هجوم عليه شنه شانئوه، وعنوانها:

قالت هيت.. وغلَّقت الأبواب

يا دوحةَ الخير.. قامت تنثر الثمرا	ولجةَ البحر.. أضحت تلفِظ الدررا
يا قمةً شماءَ، يشتاقُ العلاءُ لها	تُطاول النجم، تعلو الشمس والقمرا
مجددَ الجيل، عنوانَ السماح به	وذا المآثر.. زانت أعناقَنا دررا
ما ضر طودًا بأن يرميه من نقَموا	أو ضر بدرًا بأن يعوي الجِرا.. سَحرا
ما ضر أن يَلغط الحمقى بإفكهمُ فلا يسؤك صياح الصائحين ولا	ويُهجِرَ الفدمُ.. أو يُلقي الغَبي حجرا كيدُ البُغاث.. ودم بالله منتصرًا
فالفجر يوشك أن يطل على	رغم العِداة.. ورغمَ الغدر مستعرا
(إنا لنصر) موعودُ الإله لنا	(وكان حقًّا) فهل تخشى بذا الغِيرَا؟
إن كنتَ أهدى من المختار منزلةً	فدونَك الشمسَ منها استشعلِ الشررا

أبشر يا يوسفُ يا صدّيقْ

يا صوتَ الحقِّ بأسواق التضليل

رؤياك حبيبي في طَور التأويل

وغمامُ الزيف سينقشع قريبًا

وغدًا يرتد الجمع بصيرًا

حين يرف قميصُ الوعي على الأفئدة

نسائمَ من رضوان

سيقولون بحقٍّ

تالله لقد آثرك علينا الرحمن

وسيظهر زَيْف البهتان

الجمع سيُهزَم ويولي الأدبار

الجمع سيدرك يا شيخ مرارةَ عدوانِ ذوي القربى

ومؤاخاةِ الرُّقطِ ذوات الأنياب

قد لبسَتْ ثوبَ الأصحاب

وحِّد ربك يا صديقُ.. ولا تهتم بما يفري الشيطان

يا طاهر: يومًا سيرون من الله البرهان

الحق يحصحص دومًا يا صديق

إن الملأ ليأتمرون

يختلقون ويصطنعون وينتقمون

وشهادات الزور حبيبي باليورو والدولار وبالمجان

القومُ أساتذةٌ في التلفيق

الباطل هشٌّ.. لا ساق له

والزور حبيبي لا قلب له

لا يعرف عدلاً أو حقًّا أو ربًّا أو إيمان

إن الملأ يريدون الحق صريعًا

ويريدون الخير صريعًا

ويريدون أفولَ النور سريعًا

إن الملأ يريدون حياتك يا مولاي

إن خياراتك يا عيني بين القتل وبين النفي وبين التثبيت

فسل الله التثبيتَ فما الملأ بأقوى من صمدٍ منان

الشيطان تآمر كي يطرحك بِجُبٍّ دون قرار

الشيطان سيسعد لو أكلت دنيانا النار

الشيطان حبيبي أستاذٌ

هو رب الجهلاء ومعبودُ المدموغين

كل بضاعته يا مولاي أباطيل وأرجاس

هو لا يقبل إلا المغموصين وإلا الملفوظين وسفهاء الناس

رغم لسان الحال الناطق أنك يا شيخ حفيظٌ وعليم

زعموا أن العالم بعدك سيكون بمأمن

سيعيش بحب ويقين

إن الملأ يكيدون أيا يوسفُ كيدا

ويناصرهم كل الشقر وكل الحمر

وكل بني الأعمام

يا يوسف قد جاء الأحزاب

جاؤوا من فوقَ ومن أسفلَ منا

مَن عرفونا يا يوسف ضلوا عنا

حتى زاغت أفئدةٌ وانبهرت أبصار

قالوا ما كان الوعدُ من الله تعالى إلا أكذوبة

هُرعوا يا مولاي وراء شعارات مكذوبة

لنعيش التاريخ جديدًا

لنرى الذلة يا يوسف قِنديدًا

لنرى الذل بساحتنا يا شيخي يسعى في استعلاء

لنرى منا من يمسح أنياب الأفعى في استخذاء

من يهتف: هذا الضنكُ الجاثمُ عارضُ خيرٍ ممطرُنا

هذا القحط عطاءٌ ممرعنا

هذي الظلمةُ هي ناموس النور

هذا العفن الضارب بالأطناب نعيم

لنرى من يجهر في فرعنة مظلمةٍ:

هات الله لأحبسه معكم في زنزانة

رضع كثير منا سفهًا يا عيني وخيانة

نسمع فينا من يهتف: لا رب، ولا خوف
ولا آخرة ولا جنات أو نيران؛

لكن أبشر يا صديق
في الأفق هنالك من يهتف
في ثقة حبلى بالأمل بوعد الله تعالى:
هذا ما وعدُ الله ووعَد رسول الله
فهنا يمتاز الصفوة من أهل الإيمان
يا يوسف لذ بالعدل الرحمن
فهو القادر أن يكشف غمتنا
وهو القادر أن ينصر أمتنا
وهو القادر ربي أن تنجلي بصيرتنا
وهو القادر أن ينزل فاضحة
تغسل رجس النكران
وهو القادر أن يدفع عنك وعنا البهتان
يا شيخي: لا تلم الباطل إن خافك
لا تلم القبحَ إذا عافَك
لا يُدْهِشك لعاب الجشعين إذا سال على أعتاب الخوانين
أنت تريد بدعوتك إلهًا غير الدولار
تبرأ أن يخنقنا الشيكل
أو نسجدَ لليورو للدينار
أنت تريد بدعوتك عبادًا
تؤمن بالله وبالآخرة وبالكتب وبالجنة والنار
أنت تريد بصائر جلاها نور القرآن
أن تريد عقولاً تحترم الإنسان

أنت تريد الحق عزيزًا غيرَ مهان

أنت تريد يقينًا لا يتوسل لعزيزٍ أو هامان

لكن جريرتك كبيرة:

لم يأذن لك سادات صناعات البهتان

والإذن حبيبي بات فريضة

فدعاوى الجبروت عريضة

يا يوسف قد أرسل فرعون إلى كل مدائنه

يدعو لطريقته المثلى

يرغم آناف الناس على دوس الآجلة بكعب الدنيا

يزعم أنك تفسد في الأرض وتفتك بالقيم العليا

فرعون يقول أنا ربكمُ الأعلى لا ربَّ سواي

فرعون يفتش في الأفئدة وفي الأحشاء

فرعون يقتِّلُ أطفالاً وشيوخًا ونساء

فرعون ينادي بالثارات

الجاحد لم ينس الثارات

أقسم فرعون بأن يقطع كل الأيدي والأرجل

ويصلِّب من رفضوا السحر الأسود

أقسم أن يحرق أحباب الله بأفران الغاز

أقسم ألا يبقى بربوعك يا يوسف مسجد

ألا يبقى بالأرض مصل وموحد

اقصص رؤياك أيا صديقُ ولا تلق البال

حتى لو مُلئ الوادي آباء رغال

حتى لو جاءتك الدنيا سافرةً في أكمل زينة

حتى لو قالت هيت.. وغلَّقت الأبواب

حتى لو أطفأتِ الأنوارَ.. وجهزتِ الأكواب

حتى لو قدَّت قمصانَك طرا

حتى لو حشدت أبواق الزور

حتى لو قالت أنت البادئ أنت الناقم أنت الشانئ أنت الظالم

حتى لو حشدت ترسانتها من حيل السحرة وأخاييل التضليل

اَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ

على أبناء عمومتك.. على الدنيا

وسيرمونك بالزور وبالبهتان

ستتوج رأسَك كلُّ أفانين التهويل

حتى يخلو وجه أبيهم

حتى تخضر أمانيهم

وسيأتون عِشَاءً بعد رحيلك يَبْكُونَ

سيجيئون

سيجيئون حبيبي بِدَمٍ كَذِبٍ

قولٍ كذب.. كذبٍ كذبٍ

عُذ بالله أيا صديق

ربُّك قد أحسن يا يوسف مثواك

فاشكر يا مولانا مولاك

ربُّك قد مكن لك في الأرض وعلمك من التأويل

أعطاك من الحكمة ما يلقَفُ كلَّ أفاعي التضليل

الله تعالى يا شيخي غالب

الله تعالى غالب

حتى لو جمَّعَتِ الحسناءُ كتائبها من حسن ودهاء

حتى لو بين يديها قامت سطوتُها

حتى لو هتفت: وَلَئِن لَمْ يَفْعَلْ

رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ أيا صديق

والفرج وشيك

هل تأتي سعة إلا من ضيق؟!

يا يوسف أعوامُ القحط ستؤذن بزوال

هي سنة يا شيخ الأمة.. ثم يحول الحال

سيمكِّنُ ربك لك في الأرض حبيبي

تتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ تشَاءُ

فتَبَوَّأْ مِنْهَا حَيْثُ تشَاءُ

تتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ تشَاءُ

هذا ما تيسر لي جمعه في عجالة، أسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، وأن يكون كلمة صدق، وشارة حب، وأن يغفر لي تقصيري فيه، وأن يحسن عاقبتي وقرائي الكرام في الأمور كلها.. اللهم آمين..سبحان ربك رب العزة عما صفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين..

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

عبد السلام البسيوني

الدوحة في منتصف يونيو 2007

من أعمال المؤلف:

العقيدة:

1. الألوهية في العقائد الشعبية على ضوء الكتاب والسنة
2. كتاب المحجوبين عن رؤية رب العالمين
3. في ظل عرش الرحمن تبارك وتعالى
4. النعيم المعنوي في الآخرة

دعوة وإعلام:

5. مواجع داعية
6. الإعلام الإسلامي في مواجهة الغزو الإعلامي الغربي
7. التلفزيون: السم اللذيذ
8. مواصفات في مدرِّسة الشرعية
9. خطيب الجمعة

فقه الواقع:

10. في فقه الواقع: رسائل إلى الإسلاميين
11. لله يا زمري
12. الثورة والثورجية
13. إسلاميون ثوار
14. الحاج أستيكة

الأسرة:

15. ماذا يريدون من المرأة؟
16. تفكيك الأسرة: الخطر القادم
17. العنف الأسري: رؤية إسلامية
18. المسنون في منظور الإسلام
19. تجفيف منابع الأنوثة
20. الغيرة: خلق المسلم النبيل

21. العفة وأهل العفاف
22. نساء عديمات الأنوثة
23. حكايات الستات
24. وقال نسوة

فكر وثقافة:

25. العقلانية هداية أم غواية
26. وهل في الإسلام حرية للرأي
27. Freedom of Opinion
28. اليسار الإسلامي: خنجر في ظهر الإسلام
29. التعذيب: عار العصر (مجموعة ملفات)

دراسات إسلامية:

30. التبيان ... تحقيق
31. فقه الأذان والإقامة
32. ملفات ملغومة
33. وأدرك عبسلام الصباح
34. لله يا زمري/ مواجع داعية
35. في المراية
36. المقامات

تاريخ:

37. الأندلسي
38. قال الراوي
39. المسجد الأقصى الشريف
40. زفتى التي في خاطري
41. تاريخ المستعين بالله البسيوني

سير وتراجم:

42. محمد صلى الله عليه وسلم في أعمال اثنين من المستشرقين
43. دعاة ومشاهير عرفتهم
44. مشايخ لكن ظرفاء
45. رجال نمرة واحد
46. رجال اختلف فيهم الرأي

كتابات ساخرة:

47. رجل اسمه نرجس
48. علي وعلى قرائي
49. حقك وفوقه بوسة
50. ناس نمرة واحد
51. نساء عديمات الأنوثة
52. طمع إبليس في الجنة
53. رجال آخر مسخرة

الشعر، والدراسات الأدبية:

54. ديوان صلاة قلب
55. ديوان: عذرًا يا سيد خلق الله
56. ديوان مراميات
57. الذئبة التائبة (ديوان شعر)
58. يا سادتي (ديوان شعر)
59. زهرة (ديوان شعر)
60. القرضاوي شاعرًا
61. أبو مازن: الصوت الساحر
62. الشعراء
63. الشواعر

مسرحيات شعرية:

64. الأعظم (مسرحية شعرية)
65. القرضاوي شهيدًا (مسرحية شعرية)
66. الحراني (مسرحية شعرية)
67. الحرباء (مسرحية شعرية)
68. ليلى حلمي (مونودراما شعرية عامية)
69. أحمد يا سين (ملحمة شعرية عامية)
70. المسرحية الجديدة

كتب مصورة:

71. التماثيل الشعبية الأوربية: رؤية مختلفة للإنسان
72. الرسول صلى الله عليه وسلم في الرسوم والمنحوتات الأوربية عبر التاريخ
73. التعذيب: عار الحضارة المعاصرة
74. الله تعالى في ثقافات الشعوب (باور بوينت)
75. فن الخط العربي: (باور بوينت)
76. الخطوط العربية والفنون المنبثقة عنها: (باور بوينت)

كتب تعليمية:

77. أيها المهتدي أحبك في الله
78. الحج من الألف للياء
79. العقيدة
80. الأخلاق....
81. منهج الشرعية، للصف الأول الإعدادي: الدحيل الإعدادية

تحت الإعداد:

82. يا دوحة رايتك بيضا
83. أيام المدينة الطيبة
84. المعجم القرآني الأكبر

85. القلب: دراسة شرعية

86. محمد صلى الله عليه وسلم: رؤية قرآنية

87. العقائد المصورة

88. الحياء

89. حبيب قلبي